

إريد...مرايا الصبا

(ذكريات من الخمسينيات والستينيات)

أريد...مرايا الصبا

(ذكريات من الخمسينيات والستينيات)

د. نبيل حداد



طبع بدعم من وزارة الثقافة

2018

الآراء الواردة في الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الجهة الداعمة

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
رقم (٢٠١٨/٥/٢٣٣٥)

(ردمك) ISBN 978-9957-89-148-0

لايسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله أو استنساخه
بأي شكل دون إذن خطي مسبق

All rights reserved
No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or
transmitted in any form or by any means without prior permission in
writing of the publisher



مؤسسة حمادة للدراسات

الجامعية والنشر والتوزيع

أربد - شارع الجامعة - مقابل بوابة الآثار لجامعة
اليرموك - مجمع المهندس مهدي الطوافشة - ص.ب
(١٢٨٤) موبایل: ٠٠٩٦٢٧٩٧٧٨١٨٥٠

Email: hamadacompany@yahoo.com

Tel. : 00962 6 534 6 482
Fax : 00962 6 534 6 483
ص.ب 2855 عمان 11941 الأردن
zamzamjo@gmail.com

أربد...إباصبا

(ذكریات من الخمسينيات والستينيات)

د. نبيل حداد

المحتويات

إهداء.....	- ٧ -
إنتشارات.....	- ٩ -
أيام " أبي عبيدة ".....	- ٢١ -
أبو اللجا.....	- ٤٣ -
تتارعان ... البارحة والهاتنمي.....	- ٦٩ -
وسط البلد.....	- ١٠٥ -
نحو المدينة.....	- ١٤٩ -
السينما والراديو.....	- ١٦٥ -
عصر الرومانسية ... والحب.....	- ١٩٩ -
الرصف ... أزيكية إربد.....	- ٢٢٥ -
السياسة... انتتغال أم انتتغال؟.....	- ٢٨٣ -

إهداء

إلى شقيقتي الكبرى فادية حداد (أم نايف) ...
فكلما نظرت اليوم في مرآة العمر رأيتها إلى
جانبي... ودوماً بالرف الخمسينيات وبهاء الستينيات ...



إنتارات

قد يتبادر إلى ذهن القارئ الكريم أول ما يتبادر قضية "الوصف" العام لهذه الأوراق؛ هل هي محاولة للتأريخ لمدينة إربد خلال الخمسينيات والستينيات، كما قد يوحي العنوان؟

بالمعنى العلمي؛ فإن ما كتبه ليس تاريخاً ولا تأريخاً، فليس كاتب السطور مؤرخاً ولا يمتلك أدواته ولا القدرة أو الرغبة في أن يؤدي دوره، ولكن "تقنية" التأريخ-بمعناها المجرد- من الحصافة بحيث تسخر ذواتنا لاستحضار مشاهد الماضي من صاحب شهادة على نبض الحياة وحركتها وتحولاتها في الأمكنة التي عاش فيها، وعبر الأزمنة التي عايشها. شهادة تنبع من "رؤية خاصة" (من البصر) وقد تستعين "بالرؤيا" (مايتراءى للبصيرة) بشرط أن تكون هذه الأخيرة نابعة من وجدان تمرغ في تراب تلك الأمكنة. والوجدان هنا هو القلب العقل معاً.

إنها مشاهدات ومعايشات لمرحلة كان الوجدان مشتتلاً فيها، بل مازال هذا قادراً على الحركة والطواف واستحضار صور الحياة للماضي القريب، وتمثله والتفاعل معه بالحواس الخمس... والتنقل بسهولة ويسر بين دهاليزه المشعة في أعماق الذاكرة.

استحضارها؟ نعم، ولا يحتاج هذا مني إلى جهد كبير، فلقد ظلت تلك المشاهدات والمعاشات، ولا بأس في أن أقول: والذكريات... تلازمني من لحظة أن بدأت أدرك ما حولي وحتى هذه الساعة، وظلت دائماً أتخيل الطريقة التي سأكتبها بها؛ ذلك أنني ما تصورت يوماً أن أتخذ طريقاً غير طريق الثقافة، والكتابة فعلها الرئيسي. لكنني الآن شعرت أنني خذلت ذلك العهد البعيد؛ العهد المتزامن مع تلك الوقائع؛ فالكتابة الوحيدة التي أومن بها - ولا أجيدها - هي الكتابة الإبداعية؛ ولكن جرت الأمور وأفضت استحقاقات مسيرة الدرب إلى غير ما كنت أتطلع إليه؛ فاتخذت جهودي في الكتابة - التي خرجت إلى العلن - "السمت الوظيفي" ليس غير.

وأستأذن القارئ في أن يبدي قدراً من التسامح تجاه "إشكالية النوع" لما سيقروءه في الصفحات القادمة... أن يعدها لونهاً من "الكتابة الخاصة". لا أزعم أن الإبداع الفني الخالص كان وراء هذه الصفحات. ولكنني أصر على أنها ليست كتابة وظيفية خالصة، لا بهويتها ولا بتصنيفها الفني، ولا بارتباطها بالمنهجية الأكاديمية.

فهي، بالنسبة للتصنيف الوظيفي الأول، ليست تاريخية، مع الإقرار منذ الآن أنني مع احترامي للتاريخ فإنني سأجاوزه بل أتخطاه وأحوره قليلاً، أي تاريخي الشخصي. كما أنها ليست كتابة صحفية إلا ببعض سمات الخطاب الصحفي وليس أشكاله من مثل الخبر أو المقال، ربما يوافق بعض ما كتبت بعض شروط الكتابة الصحفية، أسلوباً، الخطاب التقريري الغالب، وشكلاً

بعض شروط الصورة القلمية Feature ولكن بطريقة عابرة ومتناثرة يمكن تلمسها في بعض "النماذج" البشرية التي انطبعت في الذاكرة حتى لحظة الكتابة عنها على الأقل؛ بل إن لحظة التوحد مع الكتابة كانت في كثير من الأحيان معيناً لي في اسحضار صور كان قد طواها النسيان لعقود وعقود، وأظنها ما كانت لتحضر لولا لحظات التوحد تلك. كيف حضرت بالكتابة؟ والله لا أعلم... لكنني لا أزعّم أنها جاءت من وادي عبقر، ولا أدعي هذه الصفحات صفة الكتابة الفنية أو الإبداعية... ربما فيها بعض مقومات السرد، وهو -أي السرد- على أية حال، وبمفهومه "الأولي" قد يحضر في التاريخ والصحافة، ولا أظن أن أحداً يتطلع إلى إدراجهما في الفن القصصي أو الدرامي.

ولئن ادعيت، مع بعض المجاوزة، أن ثمة سرّاً فنياً عابراً يحضر هنا أو هناك؛ فلا بأس في أن أنظر إلى العديد من "الناس"؛ بوصفهم نماذج بشرية، لا تكتسب صفات الشمول الإنساني؛ فهم -على الأكثر- نماذج بشرية يرتبطون بمرحلة ما، بيئة ما، بوصف البيئة هي الحقيقة المكانية والزمنية والاجتماعية لواقع ما. نعم إنهم نماذج، وهذا ما يضطرنني الآن لأن أوضح المفهوم المنهجي، الذي ارتضيت به وسرت على هديه في جميع دراساتي، للنمذجة الروائية بما تشمله من شخوص ومواقف.

تكتسب الشخصية، وفق رؤية "المنهج الواقعي في الإبداع الروائي"، أهليتها "النموزجية" من كونها لا تمثل نفسها فحسب، بل تمثل شريحة اجتماعية واسعة، وليس شرطاً أن تكون هذه الشريحة بحجم الطبقة الاجتماعية

(بالتقسيم الثلاثي الشائع للطبقات: الفقيرة (الكادحة أو البروليتاريا) والمتوسطة (البرجوازية) والعليا (الأرستقراطية). بل قد تكون الشريحة بحجم الفئة داخل الطبقة، وربما أصغر كأن تكون منظومة بشرية مهنية أو ثقافية، أو ذات فئة عمرية أو "جندرية" متقاربة.

وقد شاء قدري أن التجربة الأوسع كانت -بحكم الواقع الذي أنتمي إليه- مع الطبقتين الفقيرة، والبرجوازية الصغيرة (بتأثيرها لا بعددها)، ولا سيما أن وضعي العائلي كان الأقرب إلى هذه الطبقة منه إلى الطبقة الأعلى (البرجوازية الكبيرة). وهكذا فإن الحديث عن نماذج تلك الطبقة الأقل حظاً هو حديث يأتي في سياق تاريخ شخصي بشكل أو بآخر؛ فتلك النماذج البشرية من المهمشين هي التي استقرت في ذاكرتي وسكنت وجداني، وخاصة أولئك ممن ظلوا يحتلون مساحة واسعة بل متجذرة في قاع الذاكرة وما تحت القاع. كانوا نماذج "حيوية" بمعنى الكلمة، وأعني "بالحيوية" سمة ما من سمات التفرد والخصوصية غير تلك التي يسبغها على الشخصية وضعها الاجتماعي أو المهني أو التعليمي ... إلخ. سمة أقرب إلى الخصوصية، تضفي كثافة سيكلولوجية تميز الشخصية عن غيرها من طبقتها أو فئتها. فعلى سبيل المثال قد يكون "النموذج / الشخصية" عاملاً كادحاً يشقى بعرق جبينه ... هذا مستوى أول، وهو مستوى يتسم بالعمومية. ولكن حين يكون الشخص بالإضافة إلى ذلك خفيف اليد لا يؤمن جانبه، أو أميناً يعتمد عليه، حينئذ يكتسب بعض الخصوصية، التي تستكملها ظروفه الخاصة، وصفاته

الشخصية، بل وتكوينه السيكولوجي الخاص به، إضافة إلى طبيعة دوره في الأحداث، وهو ما يعول عليه يشكل رئيسي في عملية "رسم الشخصية" إن كنا في سياق سردي بطبيعة الحال.

حسناً، لسنا، بصدد مفهوم الشخصيات الروائية بالنسبة للناس الذين استحضرتهم، ومرة أخرى، لا أزعـم لهذه الأوراق سمات الكتابة الفنية السردية الخالصة، ولكنني منذ بدأت أعـي طبيعة الفن القصصي، أدركت أن لدى هؤلاء المهمشين بذرة النموذج القصصي، ولم يكن الأمر يحتاج، بالنسبة لي، لأكثر من أدوات فنية لإنجاز النموذج الفني ورسم ملامحه حسب مقتضيات الفنية... للأسف لم تساعدني ظروفـي للتفرغ لإنجاز مثل هذه التطلعات؛ فجاء الواحد من هؤلاء الشخوص أقرب إلى مشروع النموذج منه إلى النموذج الناجز، حسناً ليتـه يصبح، بالنسبة لي أو لغيري، "مادة خام"، لا أكثر، يـبني عليها من يشاء ما هو أوسع مساحة، وأعمق دلالة، وأجمل تكويناً، وأكثر شمولاً، وأعمق جذوراً، وأقوى بنياناً، وأصلب عوداً ليكتسب شروط الشخصية الفنية وأهليتها النموذجية... ولكن ذلكم... كل ما لدينا...

صحيح أن كل إنسان متعلق بماضيـه، أو بما أصبح واحداً من أكثر التعبيرات تردداً -وربما ابتداءً- في أيامنا: الزمن الجميل، وبالنسبة للزمن الذي أتحدث عنه (الخمسينيات والستينيات)؛ فمن غير المتصور أن يجادل كثيرون في حقيقة أنه كان زمناً جميلاً حقاً. هل نقيسه بأحوالنا هذه الأيام؟ ومن أي جانب من جوانب واقعنا؟

لعل مقارنة من ذلك القبيل كانت من العوامل الأساسية التي حفرت لتلك الحقبة تضاريس في الذاكرة تتأصل معالمها وتتضح مساراتها وتتحدد محطاتها، مع الأيام. لا أماري ولا أنكر أن المقياس الأول لدي في المقارنة بين الحقب والأزمان هو درجة الوعي، وتغليب العقل مع إعلاء شأن الوجدان، وهذا يعني بكل بساطة منح كل من العقل والقلب أوسع مساحة ممكنة، ولعله من غير الاعتساف الزعم أن أيامنا هذه - قياساً بحقبة هذه الذكريات - تشهد جوراً كبيراً على العقل، ومصادرة لا ترحم لحقوق القلب، ومن ثم ضاقت السبل بالروح... فلا تجد سبيلاً أفضل للفرج من الإفضاء، وتلك المهمة، لعمرى، هي الأجل والأجدى عندي بالنسبة لكل ما كتبت، وكان بالمناسبة، أضعاف ما هو بين يدي القارئ.

هذه الصفحات، على ما فيها من ترسل في التشكيل الفني وابتسار في رسم الملامح وقصور في ملاحقة أبعاد الشخصيات (هل نسيت نفسي؟ أنا لا أكتب رواية)، وعلى ما هي عليه الأوراق من تباين في مستويات التعبير... ثمرة حنين لزمان انقضى. لا أضع نفسي بموازاة الراحل الدكتور محمد حسين هيكل حين قرر أن "زينب" جاءت ثمرة الحنين... حنين المغترب عن الوطن ... وأما حنين العبد الفقير، فهو حنين إلى الزمان ... وكما قالوا: كيف نفصل الزمان عن المكان؟... وشخصياً؛ كيف أفصل "زقاق بربرة" وأناقة من أكسبته الاسم، وهي بالمناسبة أناقة باريسية، عن تضاريس إربد في ذاكرتي عن تلك الأيام؟... وكيف أفصل طعم "هريسة" خيرو عن حلاوة ذلك

الزمن؟... وكيف أفصل مذاق الحياة آنذاك عن طعم "الفشاش" التي كان يقدمها "قلينا"؟ وكيف أفصل "هيئة" هذا الأخير ووقفته أمام مقلاه عن صورة الحياة وإيقاعاتها تلك الأيام؟

بقي بعض التنويهات التي قد تجيب عن بعض التساؤلات الأخرى

المشروعة:

أولاً: لقد حرصت - ما أمكن - على ذكر الاسم الحقيقي للشخصية التي أعرض، ولا أقول (أعرض) لها... فحاشا الله أن أكون فكرت بأن أعرض جانباً لأي واحد ممن توقفت عندهم من الأشخاص يمكن أن يمس ذكراه أو يחדش مشاعر ذريته بأي قدر من السوء؛ فليس من مهمات هذه الأوراق أن تحاكم هؤلاء الناس ولا أن تكتب تاريخهم، بل أقصى ما طمحت إليه عرض مقطع انطباعي تصويري عابر عما يمكن أن يكون قد علق في جعبة الذكريات أو استقر في إحدى زواياها، مقطع لعله يشكل حلقة صغيرة في سلسلة يجمع بينها المكان أولاً والتجربة الشخصية المباشرة على الأغلب الأعم، ثانياً، دون الادعاء بأن هذا يمثل سعيًا روائياً وإن استنجد ببعض أدواته وحاول توفير أقل القليل من شروطه.

وليتني كنت قادراً على استكمال "الصورة القلمية" لأي ممن توقفت عندهم بالقلم أو بالأحرى معهم بالوجدان. إن جل ما طمحت إليه هو استحضار روح الحقبة؛ بمكانها وزمانها وإنسانها وإقاعها. من هنا، فإن معظم الشخوص جاءت بأسمائها الحقيقية أو ألقابها التي كانت شائعة في تلك الأيام. ولا يد لي

باختيارها بطبيعة الحال؛ بل إن القدر هو من وضعني -أو وضعها- في طريقي لتغدو جزءاً عزيزاً من تاريخي الشخصي بل مكوناً أساسياً من بنيتي النفسية والسلوكية. وأقل القليل جاء بأسماء مستعارة، مع بعض التصرف في الأوصاف والمواقف، حرصاً مني على عدم انكشاف هوية صاحب تلك الشخصية التي ربما انطوى عرضها أو شاب صورتها ما يشي بما هو سلبي أو لا يشرف.

ثانياً: إن جميع هؤلاء الشخصوس أو النماذج أو البشر -سمهم ما شئت - هم بالنسبة لي ما زالوا أحياء في وجداني، صحيح أن أكثرهم غادر الدنيا، وربما منذ عقود طويلة، ولكنهم ظلوا حاضرين معي، أنام وأقوم - رغم تشعب شؤون الحياة وتكالباتها - على ملاحظتهم وأصواتهم ومواقفهم وتصرفاتهم؛ لذا لم يطاوعني قلبي في أن أكتب كلمة "مرحوم" على جلال معناها، إزاء اسم أي منهم. وثمة سبب "عملي" آخر؛ فإن عدداً من ذكرت - والعبد لله أولهم - ما زال حياً يرزق، وقد يحتاج بعد حين إلى هذا الوصف؛ فالكل في حاجة إلى رحمة خالقه، والكل في سبيله إلى هذا الوصف، ولكن لندع الجميع متساوين فيه، وهذا سعي إلى "الإطلاق"، لعله الأنسب لطبيعة هذه الأوراق.

ثالثاً: هل تم احترام الحقيقة التاريخية فيما يتعلق بالأشخاص والنماذج؟ نعم، إلا ما اتصل بتغيير بعض الأسماء أو تحوير بعض المشاهد والمواضع، لا لهوى في النفس أو رغبة في الإتحاف بل حرصاً على الاستبعاد الزمني (وهو

متطلب ضروري للنمذجة) وتعميق الفكرة وتوسيع الدلالة التي أسعى إليها، وذلك حين أشعر أن إيراد صورة لأحد الشخص من مجردة من ملمح ما، قد لا يغني أو يسمن من جوع "جمالي"، وقد ظل هذا في حدود ضيقة جداً، وضمن حالات عددها أقل من أصابع اليد الواحدة.

رابعاً: من الإنصاف أن أسجل فضل رواية الأستاذ نجيب محفوظ "المرايا" في استيحاء العنوان على الأقل. ولكن من الإنصاف للنفس أن أسجل كذلك، أن فكرة كتابة هذه الأوراق قد ألحت علي قبل أن ينشر الروائي الكبير عبد الرحمن منيف سفره الرائع "سيرة مدينة" عن مدينة عمان وذاكراته عنها في الأربعينيات، وقدم من خلالها صورة روائية نابضة للحياة فيها.

وبالنسبة لي، لا أدعي امتلاك أدوات القص مقارنة مع ذلك الروائي الفذ ... هيهات! ومأزق الموازنة هذا أتحسب له ولا أريد أن أحشر نفسي فيه؛ فأنا أدرئ الناس بإمكاناتي في الإبداع السردى، وكل ما أريد قوله في هذا السياق إن فكرة الكتابة عن إربد في الحقبة التي انشغلت بها هذه الأوراق كانت تراودني منذ عهد بعيد، ولكن "سيرة مدينة" لعبد الرحمن منيف شجعتني وحفزتني بل أعطتني بعض المؤشرات وأوحت إلي ببعض الأرضيات التي يمكن أن أقف عليها وأنطلق منها لاستئناف ماكنت شرعت به. ومرة أخرى وعاشرة أكرر... إنني أدرئ الناس بإمكاناتي التي لا ترقى إلى إمكانات روائي أو قاص "حقيقي"... ناهيك عن علم بحجم الأستاذ عبد الرحمن منيف...

ولئن كنت أدري الناس بإمكاناتي في السرد، فإنني أعرفهم قطعاً بعيوب هذه الأوراق، وسأوفر على المتلقين بعض جهدهم في هذا السعي "النقدي"؛ ولعل فيما ألمحت إليه سابقاً عن إشكالية "النوع" لهذه الأوراق ما يغني عن مزيد من الإيضاحات، وهذا أبرز ما أريد تسجيله.

خامساً: ولعل من حق القارئ أن يتساءل عن الدافع الرئيسي وراء كتابتي لهذه الأوراق، لا سيما أنني لست في حاجة إليها لغرض أكاديمي؛ ترقية، أو مشاركة في ملتقى علمي، أو شهرة لا أحبها ولم أسع إليها في يوم من الأيام، أو مكانة في عالم السرد لن أصل إلى أي درجة متقدمة فيها مهما امتد العمر وتكررت التجارب؛ فليس هناك من يتصور أن يصبح قاصاً أو روائياً وهو على مشارف السبعين... فالعمر بات ورائي والعطاء المتألق (في هذا الحقل) ضاعت فرصته... فلم إذن هذه الأوراق؟

بصراحة وأمانة، فإن استعادة الماضي حالة تلازمي. لا أنكر أنني أعاني من الحنين المزمّن للماضي (النوستالجيا) إلى درجة ربما كانت "إكلينيكية". وقد لا أذيع سرّاً، ولا أجد غضاضة في أن أعترف بأن السبيل الأمثل بالنسبة لي للخروج من هذه الحالة "الإكلينيكية" هي بالمزيد من الاندماج فيها بل التوحد معها وتقمصها من خلال السفر عبر الزمان، ماضياً. صحيح أنني كنت كتبت بضع صفحات من هذه الأوراق قبل حوالي عشر سنين وشاركت بها في ندوة عن إربد... وقد نسيتها ولم أكن أتصور أن تصبح جزءاً من مشروع أكبر، كانت تلك الصفحات بعنوان ومحتوى يشيران إلى

"الزمن الجميل" الذي عاشته إربد في الخمسينيات والستينيات... ولكن مع استهلاله العشرية الثانية من القرن الجديد، ومنذ بدأنا نعيش هذا الزمن الرديء... الرديء حقاً، (والعيب ليس فينا) كانت العودة إلى تلك الأيام هروباً مما نحن عليه اليوم ولوذاً بماض قريب عايشته... ماض أراه اليوم أنقى وأنظف وأجمل. وهكذا تهيأ لي الحافز لفعل أكبر وأجدى من الاكتفاء السلبي بالذكريات والتأملات والمقارنات... فعل الكتابة.

ولا أجد غضاضة في أن أعترف بأنني شغوف إلى درجة كبيرة بعالم الأبيض والأسود، بل إنني أحياناً إذا ما شاهدت فيلماً رومانسياً حديثاً، أزيل الألوان كي ألوذ "بالحالة" التي عشتها في تلك الأيام، لعل وعسى أن تخف الوطأة عن النفس جراء "أرذل" حالة تعيشها أمتنا هذه الأيام أجل... إنها نعمة الكتابة حين تفتح سبل الهروب (أو النكوص... لا أدري والله) نحو طريق واحد: ما مضى وانقضى...

وبعد؛ فهذه أوراق زمن كان زمني وزمن أبناء جيلي ممن عرفتهم وطاب لي إعادة مجالستهم ولو عن طريق الإيهام، ولا أقول الوهم، والإيهام على أية حال ركيزة أساسية في عالم السرد. لا يحضر الإيهام هنا لأجل القارئ فحسب؛ بل كذلك الحاجة لدى العبد الفقير...

بقي تنويه أخير؛ لم أعرض لكثيرين كان من الأولى أن أتوقف معهم لولا مقتضيات الإطار الذي رأيت أن أتحرّك فيه، والمنهج الذي ارتضيته، والمبدأ الذي يحكمني ويحكم غيري حين الخوض، بالذاكرة والقلم، في تجربة

أيام عشناها ونسعى لمحاولة تمثيلها، أعني إعادة إحيائها ... إنه الركيزة الأساسية الأخرى بعد الإيهام أو قبله، أعني ... العزل والاختيار.

وبعد،

فلا يسعني، في هذا المقام أن أتقدم بالشكر والتقدير لأهله ومستحقيه، ممن أسهموا معي، ولا أقول: ساعدوا في إعداد هذه الأوراق وإخراجها في الشكل الذي جاءت عليه، وأخص بالشكر: الأستاذ الدكتور نايف حداد الذي تفضل فأهدى الكتاب تصميم غلافه الخارجي، والأستاذ الدكتور مصلح النجار الذي قدمت قراءته لمسودة الكتاب العديد من الملاحظات اللغوية والتحريرية السديدة، كما أشكر السادة مؤسسة حمادة للنشر والتوزيع ممثلة بمديرها ومؤسسها الأستاذ خالد الرشيد والأنسة ازدهار وحشة صاحبة الفضل الأول في التنسيق الداخلي وكذلك الفنان صدام طبيشات الذي أضاف بريشته من خلال تصميم الرسومات الداخلية لمساة فنية أسهمت في تشخيص النماذج البشرية وتعميق ملامحها.

وأخيراً، وليس آخراً لا أنسى فضل وزارة الثقافة الأردنية، مسؤولين ومحكمين على الرعاية التي تكرموا فأولوها لهذا الجهد من خلال الدعم السخي: المادي والمعنوي..

أسأل الله الهادي سواء السبيل، وهو الموفق والمنيب.

نبيل حداد

٢٠١٨/٥/٢١

أيام "أبي عبدة"

١-

ثمة مشاهد في الذاكرة، أشعر، لعدم يقيني من مطابقتها مع ما جرى في أرض الواقع، أنها في قاع الذاكرة. وحين أستعيدها، ويعيد الوعي تشكيلها بمنطق لا أطمئن إلى مدى صدقه التاريخي، أشعر أنها ليست حقيقية بتاريخيتها فحسب، بل بتجلياتها الحاضرة في حياتي اليوم، عبر رحلة تكاد تقطع سبعة عقود في هذا الوجود السرمدى الذي يدعى الزمن.

هل كل ما سأرويه حول سني الطفولة (والطفولة فقط) جاء من الواقع أم إنه تسرب بصورة أو بأخرى من حلم ما؟ أو من حديث تردد على مسامعي فاستقر في ذاكرتي واقعا وعاشته، فغدا مع الأيام، ومع تكرار الحديث عن محتواه، جزءاً من مكونات الذاكرة، وليس من محتوياتها فحسب؟

ما سأرويه في بداية الأمر حمل بذرة التأسيس. لا بل سيظل يلازمي ويشكل، بصورة أو بأخرى، ما سيتبع من وقائع حياتي ويرسم طريق مسيرتي: الاهتمام بالشأن العام.

تقول مفردات المشهد الأقدم في قاع الذاكرة، إنني كنت جالساً على عتبة بيتنا الخارجية، الواقع إلى الغرب الجنوبي قليلاً من مخبر سر كيس (القائم مبناه إلى اليوم) ذات ضحى، لا أدري سبب إحساسي بأن الوقت كان ضحى. ولكنني عاجز عن تخيل أي فترة نهائية أخرى.

كانت العتبة، وبنظرة إلى اليمين، تطل على الشارع الرئيسي، البارحة،
وبتحديد أكثر تطل على السياج الجنوبي لكرم علي نيازي المحاذي لشارع
البارحة. إن جزءاً من تلك الجهة ما زال أرضاً خلاء إلى اليوم، ويقال،
وسأعتمد كثيراً في رواياتي على "يقال" هذه... يقال إن الوجيه صاحب الكرم
اضطر لبيع هذا الجزء من الأرض إما لتعليم ولده الأثير أو لعلاج، ويقال
أكثر من هذا، إن هذه القطعة الخالية حالياً هي أول جزء من الكرم باعه علي
نيازي.

وبالعودة إلى المشهد: سيارة عسكرية مسرعة في الشارع الرئيسي
متجهة إلى الغرب. حين كبرت قليلاً وأخذت أستعيد المشهد فهمت أنها من
نوع "اسكاوت"... يطل منها رأس جندي أو أكثر، ثم حركة سريعة من
والدتي ترج بي داخل البيت.
انتهى المشهد.

لكن المؤكد أن المشهد التالي، ويشي باهتمام مبكر بالتاريخ والسياسة؛ هو
من الواقع. يوم شتاء بارد عرفت فيما بعد أنه من أيام شباط ١٩٥٣. كنا نتحلق
حول "طبلية" الطعام، ونستمع إلى الراديو الضخم الذي كان يشغل ببطارية
رصاصة ضخمة، تحاكي بطاريات السيارات في أيامنا هذه.

وكانت "الطبخة" فوق الطبلية هي "الششبرك"... كتل عجينة كل
واحدة بحجم بيضة الدجاج مغموسة بمرق أصفر. كنت لحظتها أنقي الكتلة
من البصل، فقد كنت وما زلت إلى اليوم أمقت البصل المطبوخ.

توقف والدي فجأة عن الأكل (وما كان ليوقفه سوى شأن عظيم) ثم أخذ يهز رأسه ويقول: مات ستالين، وكان ينطق الاسم كالناس جميعاً حتى عهد قريب: "ساتالين" ... ظللت أتساءل عن "ساتالين" هذا إلى أن كان يوم أذكره مشهداً ثالثاً من نفس المنحى.

كنا انتقلنا إلى منزل آخر في نفس الحارة، ولكن إلى الغرب الجنوبي قليلاً. وكان بيتاً يضم غرفتين مطليتين على حوش، وثمة غرفة ثالثة مقابلة غير تابعة لنا، بل يستعملها صاحب البيت أبو يعقوب.

تلك الغرفة الثالثة محشوة بالغلال من قمح وخلاف ذلك، إضافة إلى جوانات الكرسة وخيش التبن. وكان يطيب لي أن أدخل الغرفة وأتمدد على خيش التبن خاصة، وفجأة أحسست بقطعة داخل خيشة التبن، وتحت رأسي مباشرة ثمة مجموعة من الكتب والأوراق تعود، كما فهمت بعد ذلك، لأيوب ابن أبي يعقوب المهندس الذي درس في مصر. كان لون الكتاب أحمر، ويحتوي على صورة ستالين بشاربه المخيف، كنت قادراً على القراءة آنذاك، وقرأت في هذا الكتاب الكثير من المعلومات عن الرفيق.

المشهد الرابع ... تمثيلية في مدرسة الراهبات الوردية، وكانت صفوفها العليا للبنات فحسب، عنوان المسرحية "جان دارك"، وتقدم بمناسبة ليلة رأس السنة. طوال سنين عديدة، ظل يعهد لشقيقتي الكبرى فادية بالدور الرئيسي في المسرحية. وكان معها مجموعة من صبايا إربد الفاتنات في ذلك الحين: أديبة وربيعة ونوزت وجورجيت وأنطوانيت، وغيرهن بطبيعة الحال.

يشارك في جميع الاحتفالات المدرسية التي تشارك فيها شقيقتي، ولكنني لا أذكرهن مجتمعات، كتلك الذكرى في موقعة أبي عطا الله.

- ٢ -

كان شارع البارحة، وامتداده الشرقي أو ما يعرف بشارع الهاشمي (أو الشارع الهاشمي) قلب إربد النابض تجارياً واجتماعياً في ذلك الوقت. إضافة إلى جزء كبير من شارع البارحة، أي بدءاً من المنعطف الشرقي باتجاه شارع الهاشمي (زاوية بربرة) وغرباً إلى أطراف البارحة الشرقية، مروراً بحي أبي اللجا في الجهة الشمالية. وعرفت من يكبروني أن علي نيازي التل قدم كل التسهيلات لإقامة دير اللاتين، وباع الأرض للكنيسة بأقل من سعرها السائد، مصراً على أن يكون الدير قريباً من بيته.

وكان الدير، وما يزال، يضم، كنيسة ومدرسة ومستوصفاً ونزليين لإقامة الكاهن والراهبات. بل إن علي نيازي لم يلبث أن باع قطعة أرض أخرى بنفس التسهيلات لإرسالية كنيسة أخرى، ظل "أبو خليل جحا" يدير شؤونها لسنوات طويلة.

أما أبو عطا الله فقد اشترى قطعة أرض مقابل بيوت آل منديل، وأقام على الشارع الرئيسي مبنى أنيقاً خصص جزءاً من طابقه الأرضي لبقالة حديثة، وتعنى بمستلزمات المنازل والمدارس المحيطة. والرجل طيب متسامح مع الصغار. مظهره، بالطربوش أحياناً وبالكوفية والعقال في أيام الشتاء الباردة،

ينم عن أنه من بيئة مدينية، لكنه رجل مرح يحب المزاح ولا يترك زبوناً إلا يداعبه بتعليق ما أو تعقيب عابر على طلب سلعة أو لأي سبب آخر. وذات عصر حل في دكانه ذلك السرب من طالبات الوردية، شقيقتي ومجموعتها، وكان متوسط أعمارهن في حدود الرابعة عشرة، وربما أقل. وقد اعتدن على المرور على دكان أبي عطا الله لشراء الملابس أو اللبان أو التسالي أو "بُكَل" الشعر وما إلى ذلك، واعتاد الرجل على ممازحتهن دون تكلف أو حرج كأنهن بناته؛ فيعلو ضحكهن بكل طلاقة، إلى أن كان يوم خاطبت واحدة منهن -أمامه- زميلتها باسمها: ربيعة.

فعقب أبو عطا الله على الاسم بنداء الباعة الشائع: ربيعة.... ربيع "الكلب" (القلب) يا خس"، ولكن سن الفتيات آنذاك هو سن المزاج المتقلب.

ويبدو أن ربيعة كانت متكدره المزاج من موقف ما لها مع إحدى المدرسات (وكن في غالبتهن من الراهبات) فصبت جام غضبها على الرجل الطيب .. واتتها فجأة حمية النزوع المحافظ؛ فصرخت: "شو بتقصد؟ طيب بورجيك... والله لأقول لأخوي عنك". وكان أخوها واحداً من أهم الزعماء السياسيين في المملكة.

وانسحبت الفتيات واجمات بعد المزحة وردة الفعل الصادمة، وانسحبت معهن الطمأنينة لدى أبي عطا الله، ولعب الفأر في عبه، فكان أن طرق بابنا فجأة وشرح الأمر لوالدي وكانت شقيقتي واقفة معه على الباب

تدعوه مع الوالد أن يتفضل بالدخول، ولكن الرجل أبى، وأكدت له شقيقتي، ومعها الوالد بطبيعة الحال، أن المسألة انتهت. وما زلت أذكر تعبير والدي آنذاك: "ولدنة بنات" كيف اجتمع الضدان؟ لم أكن قد درست الشعرية أو الانحراف الأسلوبى في ذلك الحين بطبيعة الحال.

- ٣ -

وبدأ من ١٩٥٣ تنتظم أمور الذاكرة لاستعيد دروس الدين الأولى. ما زلت استعيد مقاطع مثيرة من المعلمة (الراهبة، واسمها السير فيديل) حول نشأة الكون كما وردت في سفر التكوين، وأكثر ما ترك في نفسي أثراً كان قصة طوفان نوح. كم تخيلت شكل السفينة، وكم عايشت كائناتها المرسومة التي أراد نوح حفظ سلالاتها، ولا سيما رسم الحمامة التي تحمل في منقارها غصن زيتون مبشرة بانتهاء محنة الكون. ولقد عرضت علينا "السير فيديل" آنذاك رسومات بواسطة "البروجيكتور" تمثل آدم وحواء، وعدداً من أنبياء العهد القديم، بل إن إحدى الصور كانت ترمز للخالق عز وجل، وقد فهمت فيما بعد أنها لفنان أوروبي من عصر النهضة، وأنها موجودة على جدار إحدى كنائس البندقية القديمة. كانت الصورة تحمل وجهها عميق الملامح فوق السحب التي تحيط بالكون، كما شرحت الراهبة.

لم تكن تجربتي في مدرسة الراهبات مريحة، ولم أرتح سوى "السير فيديل" التي لم تكن تهدد الكسالى والمشغبين بحجرة الفئران النائية والمهجورة؛ لذا كنت سعيداً حين تم التحاقى بمدرسة أبي عبيدة، وكان مقرها

في منطقة نائية في الجهة الشرقية من إربد. كان ثمة بيوت قليلة حولها، أهمها بيت الأستاذ حسن أبي غنيمة، وبيت الشبار الذي ما زال قائماً، وما زالت تسحرني حتى اليوم حجارته الحمراء على شكل "نصف برميل".

لم توافق إدارة المدرسة على إلحائي في الصف الثاني كما أستحق، لأن عمري كان ينقص بضعة أشهر عن السنين السبع، وقد أبدت الإدارة استعدادها لمساعدتنا -ظاهرياً على الأقل- ولكنهم، كما قال المدير، عاجزون عن تجاهل شرط السن، إضافة إلى عجزهم عن توفير "رحلالية" جديدة وحيز لها في الغرفة الضيقة. تراخى والدي وقُبلت في الأول ابتدائي فحسب. كان معي، في الصف، آنذاك من زملاء: إلياس بيضون، وسهل غزاوي، وسميح سهاونة، وسميح شوقي سماوي، وعبد الرحمن جرادات، ومنذر الشيخ السالم، وعبد المنعم الرجال، وزهير أبو السميد، وعدلي حجازي، وهيثم حجازي، وعصام مسمار، ومحمود الكايد، وحليم لبانة، ووانو كريكور، وزيد ارشيدات، وراكان عصر المجالي، وعصام بهاء الدين العمري، وأرتين الأرمني، ووليد السخني، ومحمد محمود خريس، وراضي حداد، ومهند ارشيدات، ومحمد أحمد الروسان، وعاصم ارشيدات، وجهاد باكير، ومحمد وليد الحمصي، ومحمد طارق مرزوقة، وغيرهم - قليلون - ممن لا تحضرني أسماؤهم الآن.

وقد أظهرت في المدرسة الابتدائية تفوقاً ملحوظاً (لم يستمر بمستواه في المرحلتين التاليتين) فوجدت تشجيعاً من أساتذتي الذين كانوا يعايرون طلبة

الصفوف الأعلى بي. ومن جملة من أذكرهم من الأساتذة آنذاك؛ معارك أبو غيدا، وغازي الشرع، وأحمد الخضر الرشيدات، وفؤاد ارشيدات، وربما خالد خريس، وأبو صالح الروسان الذي علمنا أنشودة ملحنة منغمة بصوته المنخفض الدافئ الرخيم، يقول مطلعها:

أهلا وسهلا يا كرام "شرفتموا" هذا المقام

وكان الأستاذ عبد الرحمن بيبرس من أقرب المعلمين إلى القلوب، وكلما دخل الصف يسارع إلى فتح النوافذ لتهوية الحجرة وهو يتأفف من الروائح المنبعثة من بعضنا، وكان يعرف المتسبين؛ فيؤنبهم بالاسم واحداً واحداً بتعليقاته اللاذعة، وناحياً باللائمة على حشوبطونهم بالفلافل "ع ساعة هالصبح ما شا الله"... يقولها بلهجته الشامية المحببة. كان أنيقاً يعتني بهندامه، ويحرص أيام الشتاء على "تلبس" حذائه الجلدي اللامع في آخر مطاطي درءاً للطين في ساحة المدرسة، أو من شوارع البلدة التي لم يكن معظمها معبداً.

أما المدير فقد كان في البداية الأستاذ يحيى الشرايري، بشخصيته الودودة العطوف، وجسمه الضئيل ونشاطه الذي لا يهدأ، رغم أنه كان في سن متقدمة بالنسبة لسائر المعلمين. لم يمكث الأستاذ الشرايري طويلاً بعد قدومي، إذ سرعان ما جاء مدير قوي الشخصية ما زالت ذكراه ماثلة بين أبناء جيلي إلى اليوم ممزوجة بمشاعر الرهبة والهيبة والاحترام، وربما بشيء من ضغن الطفولة، تجاه ما يراه التلميذ، بمقاييس الطفولة بطبيعة الحال، قسوة، ولكنها

بمقاييس النضج التزام بالعمل وتطبيق لأسس الانضباط كما كانت تفرضها شروط المرحلة.

إنه الأستاذ قاسم الغزاوي (أبو سهل). ليس في الذاكرة أي تجربة شخصية قاسية لي معه، بل على العكس فقد كان يقابلنا، ابنه سهل صديقي الأثير آنذاك، وأنا، هاشاً باشاً حين كنا نذهب إليه لغرض ما الأرجح أنه كان يخص "سهل". بل أستطيع أن أزعم أن لا أحد من رفاقي في مدرسة أبي عبيدة يحمل ذكرى قاسية مع أبي سهل. ولعل الهالة الأسطورية التي أحاطت باسمه، والنابعة من شدة انضباطه والتزامه بالموضوعية والقانون، قد تكونت فيما بعد، حين كان الرجل مديراً لثانوية حسن كامل الصباح، التي تحولت حين قدوم أبي سهل مديراً إليها، وربما قبل ذلك بقليل، إلى ثانوية للذكور بعد أن ظلت سنين طويلة ثانوية للإناث، قبل تأسيس ثانوية بنات إربد في شارع شفيق ارشيدات (أيدون آنذاك) أواخر الخمسينيات على الأرجح. وتعد ثانوية الصباح نموذجاً رفيعاً لطراز العمارة الشامي العريق، وهي - على ما أظن - أقدم بناء مدرسي قائم في إربد؛ إذ شيدت مع بداية القرن العشرين، إبان الحكم العثماني. كان "الشباب" في مدرسة الصباح (ولم أكن واحداً منهم) يتناقلون الحكايات والموقعات التي تظهر "رجولتهم" أمام أبي سهل، وكنا نعلم أن هذه الادعاءات كانت من قبيل المبالغة أو "العرط" بلغة تلك الأيام، فقد كانت نظرة نارية من أبي سهل كافية لأن تصعق أي واحد منهم أو حتى من أساتذتهم أو من الأولياء الأمور - إذا تجاوز أحدهم - وتجعله مذعوراً يلتفت يميناً

وشمالاً ربما لأيام. فقد كان شخصية قيادية حازمة، وكان من الممكن الإفادة من صرامته ونزاهته في مواقع أعلى. إنه نموذج من طراز من قرأت عنهم من رجالات الأردن، وكانوا مضرب المثل في النزاهة والحزم والحرص على حقوق المجتمع.

لم يمكث أبو سهل في "أبي عبيدة" سوى بضعة أشهر، جاء بعده مدير آخر بشخصية دافئة، ولكنه لم يكن بعمق خبرة أبي سهل الإدارية أو بحزمه، ثم جاء الأستاذ عقيل الأنسي.

كان البطش بالتلاميذ صفعاً وركلاً وشتما عملية لا تحتاج من الأستاذ عقيل أدنى تردد أو تفكير أو ترو، كان ممارسة عادية، كأنه يقول للتلميذ: "كيف حالك وحال أهلك؟". والمصيبة أنه كان ذا راحة كف عريضة ثخينة في حجم "المحماة". وكان قدرتي وربما من حسن حظي كذلك، أن يستخدمني الأستاذ عقيل - ربما لما أظهرت من نباهة - أنا وشقيق زوجته "سيف الدين" في شراء بعض الاحتياجات المنزلية وإيصالها إلى بيته القريب من المدرسة، ولما كان سيف الدين أقرب إلى الطيبة والبساطة، بل السذاجة؛ فقد كان يعتمد عليّ في الأساس، وكان في صفنا طالب اسمه محمد علي، والده يمتلك بسطة خضار على مدخل الحسبة القديمة (شرق الجامع الكبير)؛ فكان الأستاذ عقيل يرسلني أثناء الدوام - كل يوم تقريباً - برفقة سيف الدين ومحمد علي "لشراء" الخضار والفواكه من عند والد محمد. في البداية كان يرسل معنا عشرة قروش لندفع الثمن، ولكنه لم يلبث أن أخذ يرسلنا - الثلاثة - لجلب قائمة من الخضار؛ كأن يقول لنا: "ثلث أواق بطاطا، ونص رطل بندورة

وجيبوا كمان (ظُمة بقدونش) حيث كان يميل إلى نطق السين شيئاً (التفشي في علم اللغة) ودون أن يرسل معنا ثمن أي شيء. وكان من السهل أن نلاحظ آنذاك أنه يأخذ السلع خاوة أو أتاوة بالكلمة التي عليها وحي اليوم، ولطالما ألمح محمد علي إلى أن الوالد يرجو عقيل، كلما جاءه متبضعا (بالمجان طبعاً) صباح يوم عطلة، بأن يدير باله على الولد، وكان هذا كسولاً جداً، ونظام الرسوب سيف مسلط (آنذاك) فوق رقاب التلاميذ وأهاليهم.

لم أر في حياتي "تربوياً" في جراءة، بل تجرؤ الأستاذ عقيل في الاستخفاف بالطلبة أو بكرامة أولياء أمورهم، علناً، بل أمام الملاء. كان مثلاً يسأل التلميذ: "إنت يا حمار شو اسمك؟" وحين يرد التلميذ فلان الفلاني، يرد: "إنت ابن فلان وله؟"، ويكون الجواب "نعم" في معظم الأحيان، ليرد الأستاذ عقيل: "والطقاعة... أقولك... والظراطة". ثم يردد بينه وبين نفسه وكأن التلاميذ لا يسمعون: "إي والله والظراطة... يلعن أبوك على أبو أبوك" وأذكر أن أحد الآباء ممن وقعت عليهم الشتيمة كان تاجراً مرموقاً ومحترماً بين الناس، ولكنه مشهور بالتقتير وكزازة اليد... كان عقيل يصب جام غضبه على الآباء التجار تحديداً.

ذات يوم أراد الأستاذ عقيل أن يستظرف معنا، وكان يقضي معنا حصة إشغال لغياب المعلم الأصلي. طلب من أي واحد فينا أن يروي له نكتة، واشترط ألا تكون النكتة باليخة مثل وجوهنا أو وجوه آبائنا. فتصدى للمهمة الزميلان: جهاد باكير وسميح شوقي سماوي. روى جهاد قصة القروي الذي جاء إلى المدينة واشترى البوطة وأخذ يغمسها بالخبز، وحين رأى البائع يقهقه،

رد المشتري عليه: "قبل ما تضحك علي ليش ما بتضحك على طيخك المسقع".



اكتفى الأستاذ عقيل بشبح ابتسامة صفراء، وطلب من سميح أن يقول ما عنده؛ فروى قصة التلميذ الذي لم يجد كرسيًا في الصف يجلس عليه، فاستنجد بمدرسه الأصلع الذي أجابه: "دبر حالك"، وحين ألح التلميذ قال المدرس: "أفعدك على راسي؟"، لكن التلميذ سليط اللسان رد: "بزحلق". ولما كان الأستاذ عقيل ذا صلعة تملأ مساحات شاسعة من رأس فخم وضخم،

ومن الأمام والخلف وربما من الجانبين، ووجد أن بعض الصغار ينظرون بخبث باتجاه هامته؛ اتجه فوراً إلى التلميذ حيث يجلس "فوق الكرسي" وصفعه إحدى صفعاته المدوية، ولم ينطق إلا بجملة واحدة: "أبوكو على أبو أبوكو".

لكن الأستاذ عقيل كان منخرطاً بالسياسة، وكان دائم الحديث عن الانتخابات (١٩٥٦) وأزمة السويس وخلاف ذلك. وكان يتبسط في حديثه "السياسي" مع المعلمين على مسمع من التلاميذ استخفافاً بحضورنا بطبيعة الحال. وكثيراً ما سمعته يدندن وهو ذاهب أو عائد من دورة المياه التي تبعد عن الإدارة بحوالي عشرين متراً الأنشودة الضاربة في تلك الأيام: "الله أكبر فوق كيد المعتدي". ولك أن تتخيل السيناريوهات التي ابتدعها "المؤلفون" الصغار وبطلها الأستاذ عقيل في رواحه ومجيئه من وإلى دورة المياه، وحيماً من كلمات تلك الأنشودة، وتحديداً من مقاطع مثل: "يا هذه الدنيا أظلي واسمعي"، أو: "بالحق سوف أصده وبمدفعي" ... ولك أن تتخيل كذلك حركاتهم المصاحبة لتكرار تلك المقاطع.

وذات يوم استدعاني الأستاذ عقيل وقال لي بلغته التي يغلب عليها التفشي (نطق السين شيناً): "نبيل روح إشأل (اسأل) الأستاذ حشن (الأستاذ حسن) أبو غنيمة وُقْله بِقُلْكَ أبو أمجد (كنية عقيل) بتعرف إشي عن موعد الانتخابات؟" وكان الأستاذ حسن يقطن منزلاً أنيقاً إلى جوار المدرسة التي هي في الأصل إحدى الفلل، وكان آنذاك عجوزاً، (ربما في حدود السبعين) دائم الابتسام بحنان للتلاميذ، يميل إلى القصر، ويضع طربوشاً باستمرار، وفي

يده إما عصا أو شمسية (في الشتاء). يبدو نشيطاً في حركته تراه يمشي وكأنه يقفز قفزاً، وأعتقد أنه الشقيق الأكبر للسفير والأديب الكبير الدكتور صبحي، وللتربوي الكبير الأستاذ محمود صاحب مدرسة العروبة العريقة في إربد ومؤسسها. أجابني الأستاذ حسن رداً على سؤال الأستاذ عقيل: "أكيد ... الشهر الجاي" ..

على أن حكاياتي مع الأستاذ عقيل (وعنه) لم تنته عند هذا الحد، بل كان لي ثمة تجارب معه حين لحقني ذات يوم مديراً لإحدى المدارس التي انتقلت إليها غرب إربد. ولكن هذا يتطلب وقفة أخرى عند تلك التجربة قد لا يتسع المجال لها في هذه الأوراق.

٤-

ينقل غالب هلسا (في حديث صحفي معه) عن وليم فوكنر قوله: "أستطيع أن أتحدث عن قرיתי دون توقف". وربما عنى فوكنر بالقرية أيام حياته الأولى. وهذا حالي وأنا أحاول استعادة ذكريات "الحارة الأولى" بل المرحلة الأولى في حياتي، وهي المرحلة التي أستطيع أن أحدها بالسنين العشر الأولى في حياتي، تنقلنا فيها بين منازل ثلاثة في نفس المنطقة، قبل أن نتملك منزلنا الخاص بنا في حي أبي اللجا/البارحة. هي إذن مرحلة لا أستطيع أن أتوقف فيها عن الكتابة لأن مادتها، وبخاصة بعد سن الخامسة تنهال علي وأستطيع أن اغترف منها اغترافاً.

ربما طغت ذكرياتي حول الأستاذ عقيل على صور عدد من المعلمين الذين تركوا في ذاكرتي أثراً عميقاً عن أيام دراستي في "أبي عبدة". ما زالت صورة الأستاذ أحمد الخضر ارشيدات ماثلة شاخصة بهيئته الربعه ومشيته الواثقة، لا سيما حين كان يميل رأسه نحو اليمين. كان جاداً وصارماً ولا يسمح بأي خروج على قواعد اللياقة. وما زلت أذكر أحاديثه الجانبية مع الأساتذة الآخرين من مثل معارك أبي غيدا ومحمد خليف التل وغازي الشرع ومحمد العباسي وغيرهم حول العدوان الثلاثي على مصر والقناة والتأميم وأنابيب النفط التي جرى تفجيرها وغير ذلك، وهي نفسها الأحاديث التي كانت تجرى بين أشقائي الكبار وزملائهم. وكان اسم جمال عبد الناصر يتردد بوصفه بطلاً ولا كل الأبطال (بخلاف وجهة نظر والدي ومعظم مجاليه من أصدقائه وجيراننا وأقاربنا). وقد أحدث الإنذار الروسي لدول العدوان آنذاك حالة من الثقة بدحر العدوان الثلاثي والحماسة للروس لا حدود لها.

وأذكر أن الأستاذ أحمد ارشيدات صرخ في وجه أحد الأساتذة ممن أبدوا خشيتهم من أن تسقط مدينة بورسعيد بيد العدوان، قائلاً: "يا أخي ... الروس معنا وسيضربونهم بالصواريخ ... خروشوف قال أنه سيدك لندن وباريس...".

وحين أعود بالذاكرة إلى تلك الأيام ... قد أتساءل بسذاجة: هل ذاك الزمان أفضل من أيامنا؟ لا شك في أن الجواب نعم ... نعم لدرجة البدهة... ولا أقول هذا من منطلق النزوع (النوستالجي) الرومانسي المتأصل في

أعماق، وربما في أعماق معظم أبناء جيلي، فحسب؛ بل من منطلق الواقع التاريخي آنذاك... إن الحنين إلى الماضي، على أية حال، سبب كافٍ للانحياز الوجداني للأمس، لكن معطيات الحاضر مقارنة بتجارب الماضي تشهد لصالح تلك الأيام. أقول (بوعي اليوم) إن الكبار والصغار - مع استثناءات قليلة كان معظمها عند الكبار - كانوا يعيشون حالة وجدانية نادرة، بطيف واحد منسجمة مع قناعات لا تتزعزع بأمة عربية واحدة تسعى إلى الوحدة والنصر والمجد.

- ٥ -

خلال تلك المرحلة، أعني خلال الصفوف الأولى من دراستي الابتدائية في "مدرسة أبي عبيدة"، تثبتت ذاكرتي بعدد من النماذج البشرية والمواقف النموذجية ... ظلت تضاريسها منذ تلك الأيام "تعشش" في وجداني وتكاد لا تبرح مخيلتي ... نماذج يصلح الإنسان الواحد فيها على ما أظن مشروع شخصية روائية بأبعاد درامية غنية كان علي التقاطها والبناء عليها منذ زمن ... ولكن هذا لم يحدث؛ فضاعت مني الفرصة الأجدى والأجمل ... ربما كنت سأجني من ورائها العطاء الأكبر، الذي أشعر أنني كنت قادرا عليه ... ربما لتغيرت مسيرة حياتي كلها...

على شارع البارحة، وعلى الزاوية الشمالية الشرقية من بيوت مفلح المنديل، كان ثمة غرفة (حُشة) تقيم بها نبيهة، وهي سيدة عجوز قدمت من فلسطين أدركتها في أواخر أيامها، وكانت تسكن في الغرفة وتتخذ منها في

الوقت نفسه بقلالة صغيرة تقتصر بضاعتها على احتياجات الصغار، من سكريات وبزر وقضامة (القضامي) إضافة إلى البالونات والزمامير والمراوح الورقية الصغيرة التي كانت على شكل الورد المستدير بألوانه الفاقعة، ومستلزمات طائرات الورق من صمغ وخيوط وغير ذلك. (أقول هذا عن تجربة) والصغار لا يرحمون، فكنا نراها منهمكة في صفقة بيع للملبس مع أحد الصغار ونغلق عليها وعلى زبونها الصغير باب المحل، فكانت تشتكي لأهلنا أفعالنا وتصفنا بكلمة لا تنسى "المُرَّين"، ومفردتها "مِرْئ"، أي بارد الوجه (وسمج). وذات يوم تنادى القوم بأن نبهة قدمات، كم ندمت وشعرت بأن السماء غاضبة مني حين رأيت وجهها الطيب وهي مسجاة يصلون عليها في الكنيسة. حتى هذا اليوم ما زلت استعيد كلماتها مشتكية شقيقي الأكبر لوالدي: "دُبي هادا المِرْئ"، أي "أبعدي هذا البارد".

وإلى الغرب قليلاً من مخبز أبي سر كيس تقع بيوت مفلح المنديل وآل خشروم. ما زلت أذكر مفلح المنديل، صورته في ذهني شيخ جاوز الثمانين، ذو لحية بيضاء خفيفة، لم أره إلا وهو في عباءته البنية وكوفيته ناصعة البياض... لا أعرف سيرته ولكنه يبدو واحداً من الأولياء. وكان يمتلك عدداً من البيوت التي يؤجر معظمها، ولعل أحدثها وأفضلها كان البيت الذي سكن فيه راضي العبد الله (أبو رياض)، وقد نشأت -بحكم الجيرة - علاقة صداقة بين أهلي والرجل وأسرته، استمرت. حتى وفاته ووفاة السيدة أم رياض. لا أذكر من طبيعة عمله، سوى أنه ضابط كبير ذو هيبة ومحترمه الجميع.

وكان لمفلح المنديل ولدان شهيران على مستوى الحارات الغربية كلها: عبد الكريم و اكريم. وسمعت - والعهدة على الراوي - أنه رزق بهما بعد طول انتظار، لذلك حملا اسمين يشهدان عن كرم الخالق سبحانه وتعالى.

وكان عبد الكريم ضئيل الجسم قليلاً، ولكنه محدث لبق قادر على سرد الحكايات البسيطة بأسلوب عاطفي مؤثر، ويغلف أحاديثه بالحكمة والخوف من الله، ولكنه كان دائم الشكوى والتذمر من سوء تصرفات أولاد الحارة من مجايلية؛ فهذا سرق صحناً من "زُردم" بائع السحلب الشامي، وذاك اختطف خلسة كيس اللبن من ساحة دار أم رفعت سر كيس، أما فلان فقد اختلس باكيت سبورت (دخان) من دكان أبي ريالة.... وكانت معظم أحاديثه موجهة لربات البيوت أثناء جلستهن المسائية عند عتبة بيت إحداهن، ومن هنا فإن "تشريمة" (كريمة) كما كان يُطلق عليه أولاد الحارة، لا يمكن أن يبلغ الشرطة عن هؤلاء اللصوص لأنهم أصحابه (وكان يزعم أنه يقاطعهم بعد كل فعل سيئ) ولأنهم، أو لأنه ابن فلانة وفلان "وما بدوش يزعل حدا".

أما شقيقه اكريم الشهير بلقب "الخنقة" وكان أكبر مني بعام أو عامين؛ فقد كان عجيبة الحارة مكانا وزمانا، بمعنى الكلمة، والله في خلقه شؤون. كان ذكياً جداً وحريصاً جداً ومدبراً مقترأ، يعرف كيف يكسب عيشه بالتجارة الصغيرة وبالكُدية أيضاً، بل يقال إنه نَمَى أملاكه التي ورثها عن والده. كان مقفى اليدين باطنهما ظاهرهما؛ ومعوج القدمين أمامها خلفهما وبالعكس، مع اعوجاج خفيف في الذقن نحو اليمين. ورغم أن باقي ملامح

وجهه كانت عادية، بل يمكن القول إنها توحى برجولة ورسانة؛ فإن المشكلة تظهر حين يتحدث، إذ كان يعاني من إعاقة خلقية كذلك في جهاز النطق، ومن هنا جاء لقبه "الخنقة" أو "الخنقة والميقان". أما الأولى فلا أعرف لها أصلاً محدداً، وأما الثانية "الميقان" فالمؤكد أنها جاءت عن طريقة نطقه لكلمة ميزان؛ إذ كان يبسط أمامه أحياناً في الصيف، حمل قثاء أو أي سلعة أخرى ويستخدم في بيعها ميزاناً ذا كفتين معلقتين بحبلين مع "عيارات" (أوزان) من الحجارة، وكان دائم الوقوف في حالة نصبه للميزان.

وكنت أحياناً أراه في أواخر أيامه، وكان هذا ربما في أوائل الستينيات، يمشي في شارع البارحة وقد أخذته نشوة الطرب فراح يترنم بأعلى صوته، وبطريقته، بمقاطع من أغنية عبد المطلب الضاربة في تلك الأيام: "حييتق.. وبحبق... وحببق على قوووول" وكان يمد الواو في الكلمة الأخيرة حتى ليكاد ينقطع نفسه.

على أن الجزء الأول من لقبه "الخنقة" كان لموته منه نصيب، فقد مات أكريم للمفارقة، مختنقاً من مدفأة كاز أو حطب، لا أذكر. ووقع هذا بعد تركنا الحارة بسنوات؛ فقد كان لشدة حرصه يغلق باب غرفته بإحكام، وذات ليلة باردة ممطرة أحكم فيها إغلاق الباب والشباك، عثر عليه في اليوم التالي ميتاً. وما زلت أذكر نحيب شقيقه عبد الكريم عليه، وقد اتكأ على جدار الغرفة المسجى شقيقه فيها، وأخذ يردد: "يا خيّي يا أكريم يا خيي". كان ندبه يجرح القلب حقاً.

وكان العم أحمد المنديل شخصيه معروفة في كل إربد، إذ كان وأبناؤه يتولون أحياناً أمر مدفع رمضان، فكنا نرافقهم إلى ظهر التل، حيث يُصوّب المدفع نحو الأفق، بعد أن يتم حشوه بمواد لا أعرفها، ثم يطلق القذيفة الصوتية لنهمل على دويها، وبعدها ينطلق الآذان من مساجد إربد، ليصدق في أسماعنا صوت الشيخ خليل عذباً نقيماً منغمّاً بترجيحاته الساحرة.

وكانت تروى الأساطير عن جرأة أحمد المنديل ويضرب المثل بجسارته، ولا سيما في الإغارة على المستوطنات اليهودية (الكبانيات) وإحضار المغنم منها، أذكر أن والدي أوصاه على محول كهرباء لمطحنة الملح الذي كان يتاجر به، ولم يخيب أبو محمد رجاءه، فأحضر بعد عدة أيام محولاً بقوة خمسين حصاناً بثمان زهيد أقرب إلى مستوى الإهداء، ثم باعه الوالد بفارق سعر كبير لمخرطة ضخمة كان يمتلكها أحد أقاربنا، واستمر المحول في عمله في المخرطة لسنوات طويلة بعد ذلك.

لأحمد المنديل عدد من الأبناء، أكبرهم محمد (أبو نايف) ولده من زوجته الأولى، وكان بارعاً في إصلاح كل شيء تحضره إليه ولا سيما الأقفال و"غالات" البيوت، إضافة إلى أنه كان قوي البنية شهماً عزيز النفس ومحدثاً لبقاً، وقد أطلق عليه لقب "أبو جلده" تشبيهاً بمجاهد شهير من فلسطين اشتهر بالجرأة والشجاعة.

واستقر أبو نايف أخيراً على مهنة واحدة "تصليح الأقفال"، وقد استطاع بحذقه أن يوجد لنفسه موطئ قدم في قلب المدينة، على أحد الجدران

مباشرة في محيط ميدان وصفى التل، وظل حتى وفاته، الأبرع على مستوى المدينة في هذه المهنة، رغم أن "محلّه" لم يجاوز زاوية حائط خالٍ يعلق عليه صندوق معداته، ويحيط به، على الرصيف، عدد من كراسي القش القصيرة، حيث كان يطيب لي، حتى أواخر التسعينيات أن أأخذ مجلسي عنده لأستمع بأحاديثه الطلية وذكرياته الشيقة عن المدينة وأهلها. وكم أحزنتني وفاته المفاجئة حين صدمته سيارة مسرعة وهو يعبر أحد الشوارع الرئيسية، وكان آنذاك على أبواب السبعين.



أبو اللجا

- ١ -

حسناً، لقد أزيلت تلك المنطقة التراثية الواقعة ما بين أول شارع البارحة (شرقاً) وقلب شارع الهاشمي، بشكل شبه كامل، ولم يتبق سوى بعض الأبنية التي لا يُجاوز عددها أصابع اليدين. وكان أهلي، بعد هذا التغير الشامل الذي طرأ على المنطقة بالتنظيم الجديد والنمو العمراني الطبيعي قد استقروا إلى الغرب قليلاً في منزل آخر، في قلب حي أبو اللجا، وهناك كان لي تجارب جديدة وخبرت نماذج بشرية جديدة، وعرفت شللاً وصادقات لم تنقطع أو اصرها سوى بالانتقال لسكن جديد أو الهجرة ... أو الموت.

كان أبو شوكت عسكري فرسان في الأصل، أو هكذا أتذكره، من خلال استعادتي لهيئته في بنطلون "البرشست الضيق" من القدمين إلى ما فوق الركبتين والفضفاض فوقهما. كنا أصدقاء لأولاده، وفجأة رأيناه قائداً للمخفر (في البارحة) وكان في هذا ما يشد أزر جيرانه. وكان الرجل خلوقاً وودوداً وعلى صلة طيبة، بل صداقة، تربطه بمعظمهم، ولكن هذا لا يعني أنه لا يخرج عن طوره أحياناً؛ فذات يوم نشب خلاف بسيط بين ابنه شوكت وخضر "أبو البساس" (وقد اكتسب لقبه مما أشيع عن خنقه للقطط)، وكان هذا أكبر صبيان الحارة، ولعله أقرب إلى مرحلة الشباب، وفجأة جاء أبو شوكت وحاول فض النزاع ولكنه سمع ما يشبه التجديف (سب المقدسات) يصدر

عن خضر تجاهه، فلم يتمالك نفسه، ولا سيما أن من هو أمامه رجل "طويل عريض"، فوجه صفعة لخضر جعلته يتدحرج - بالعرض - واقفاً لأكثر من من ستة أو سبعة أمتار، ثم أمر ابنه بحزم بالعودة إلى المنزل، وأخذ يوبخه (وربما يضربه) وهو يقول له على مسمع من أولاد الحارة: "قلت لك ألف مرة لا تخالط من هم أكبر منك" .. وكررها عدة مرات.

أما خضر فقد انطوى على نفسه بعيداً وأخذ يرمق بقايا المشهد الذي كان أحد أبطاله للحظات بقدر عظيم من الغيظ المكظوم والانكسار؛ فضحكات الصغار على الصفعة المدوية ومنظره وهو يتحرج واقفاً من شدتها لا من الخوف، وصلت عنان السماء. وبعد أن انصرف أبو شوكت وابنه نحو بيته، حاول بعضنا نفاقاً أن يخفف من وقع ما أصابه ... ولكنه فجأة، وبعد ما يزيد على ربع ساعة من الصفعة تركنا باتجاه باب منزل أبي شوكت وأخذ نخطط عليه بيديه ورجليه: "إذا كنت زلة يا ابن ... اطلع .."، وحين التزم أصحاب المنزل الصمت المطبق، ولم يصدر عن أبي شوكت أي رد فعل، ازداد هياج خضر، وأصبح يقذف باب خصمه بأكبر الحجارة التي وقعت يدها عليها... وظل كذلك مدة ... ثم انصرف لا يلوي على شيء. ومن الطبيعي أن يبعث الموقف قدراً من القلق لدى أهل خضر، فحضر أبوه، وفتح له أبو شوكت الباب، وتحادثا بهدوء، ثم انصرف الأب، وعادت الأمور بعد يومين أو ثلاثة إلى مجاريها، ورجع شوكت وخضر صديقين رغم نصيحة الأب بل تحذيره.

أما سيدات الحارة (الجديدة) من ذوات الشخصيات المميزة فما زالت الذاكرة تحتفظ بالكثير من الصور والمواقف لهن، وحوهن.

كان من بينهن ظريفة، أم حامد، وأذكر أنني حين التقيته في الحارة للمرة الأولى، وسألته عن اسمه قال: "حامد ظريفة"، وكان دائماً يتقبل مناداتنا له: "حامد ظريفة". وظريفة هذه قوية الشخصية تذكرني صورتها عند استعادتها بالمشكلة زينات صدقي، وتقيم شبكة علاقات اجتماعية مع معظم نساء الحي من الأمهات أو الصبايا، وكانت مشهورة ببراعتها في خلط الحناء ورسم خطوطها على أيدي العرائس وأرجلهن، ولم تكن تتردد في تخنية العريس إذا كانت عملية الحناء تجري ليلة الدخلة، حيث يتم استقبال العريس في غرفة تجمع النساء دون حرج إلا منه. ولكن الويل كل الويل لمن كان يحاول أن يتشاجر مع حامد، فيعلو صياح ظريفة ويتشر صخبها في كل أرجاء الحارة، ويتمنى المتشاجر في تلك اللحظة لو أن أمه لم تنجبه.

أما كاملة أم حسان، صديقي الأقرب من بين كل صبية الحارة، فقد كانت شبيخة بكل ما في "الشبيخة" من معنى. تتجمع نساء الحارة، كل يوم من أيام الصيف تحت شجرة التوت في "حاكورتها" الواقعة غرب البيت وعلى الشارع الرئيسي مباشرة. وكما الأمر لدى ظريفة؛ الويل كل الويل لمن يحاول أن يمس أحد أبنائها ولو بكلمة. لم تكن تكتفي بلعن الولد وأهله وعشيرته وقومه، بل كانت تمسك بيد ابنها، أو ابنتها السمينة التي كنا نطلق عليها لقب "أم سطوم" ثم تذهب إلى بيت أهل "المعتدي" وتطلب إليهم أن يخرجوا هم

إليها ولا ترضى أن تدخل إليهم؛ فإذا خرجت الأم كانت تقول: "لأه، بدي أبوه"، أما إذا خرج الأب فقد كانت تطالب بخروج الأم، ويبدأ الدرس الصارم في الأخلاق وأصول الجيرة، والتهديد بقدوم أبي حسان أو حتى بالذهاب إلى الحكومة.

وذات يوم وقفت مع حسان على ظهر مطبخهم المسقوف بألواح الصفيح، ورأينا عن بعد جارنا العتيد فالح المطلق بكوفيته البيضاء وعقاله المائل وعباءته السوداء المقصبة، وكان هذا حدادا مشهورا في سوق الحدادة في شارع حكما (شارع الحب) وقد تقاعد منذ زمن واتخذ هيئة شيخ الحارة رغم أن إحدى عينيه كانت كريمة. فأخذنا نصرخ عليه: فالح المطلق... فالح المطلق... ورغم وضع عينه، فقد استطاع أن يضبطنا فجأة، وأن يحدد المنزل الذي تصدر عنه النداءات الصبيانية. ولم يمض سوى دقائق إلا وكان العم فالح في فناء منزل كاملة (الحاكورة) ويطلب أهل الدار، فخرجت إليه، أم حسان، وما أن فهمت منه سبب مجيئه، حتى استفزت، وبدا الأمر كأنه اعتدى على اختصاصها في "الصولة" على البيوت في هكذا حالة، بل قل أصابتها لوثة من جنون وقالت: "مش عيب عليك يا فالح لِعور تيجي تصول على النسوان عشان الولاد ندهولك... ما تظب أولادك إنت وتظب شيتك، روح يلعن أبو عورتك يا أبو عين بيضا" (وكانت تقصد المعنين المادي والمجازي)، وكان الرجل في الستين أو الخامسة والستين، وما زلت أذكر ملامح وجهه من وقع

هذا الكلام، ولم يتأخر في طلب الغنيمة بالإياب، فلملم أطراف عباءته السوداء المقصبة ولملم معها أشلاء كرامته، وغادر وهو يتمتم بكلام غير مفهوم.

لكن رشدية "الدندي"، نموذج مختلف؛ كانت عانساً عجوزاً، وقد أطلق عليها الصبيان من زمن بعيد لم يدركه أبناء جيلي، هذا اللقب لأنها حين كانت تنادي شقيقها رشدي (وهو سياسي مرموق آنذاك)، تنطق الاسم بما يشبه "دندي". كان صوتها ضئيلاً (أو رفيعاً) مثل شكلها، ودائماً تبدو متجهمة وتتمتم بكلمات السخط على كل من في الكون ومافيه، من مقدس ومدنس. كنا نثقل عليها بالنداء كلما مررنا من أمام بيتها العتيق المتوارث: دندي ... دندي... فأصبحت هذه عادة ملازمة لأي صبي في الحارة.

وذات يوم مررت بالقرب من المنزل، وكانت رشدية واقفة قرب "السنسلة" تستظل بشجرتها من هجير ذلك اليوم، وهي بكامل هيئتها: الشرش الملبس، والطرحة السوداء (لا أذكر أنني رأيته قط بالحطة المقصبة إلا خلال مشوارها نحو الكنيسة). زعقت كالعادة: دندي... دندي...، لم يكن الرد تتممة أو شتيمة واضحة هذه المرة، كما اعتدنا. ولم أتنبه إلى أن السنسلة كانت مستودع ذخيرة رابضاً أمام يدي الدندي ... قلت "مسخري" مطمئناً دون أن ألتفت كالعادة إلى وقعها أو ربما اتقاء للشمس التي اشتد طغيانها ذلك النهار المشؤوم، ولكن ليس كل مرة تسلم الجرة، فما أن جاوزت السيدة (أو الأنسة ذات الستين عاماً على الأقل) حتى شعرت كأن قذيفة مدفع ارتطمت في وسط ظهري... كان حجراً ضخماً مشفوعاً بأقسي (ولا أقول أقذع) أنواع

الشتائم عليّ وعلى تربيّتي وأهلي. لم أقدر جيداً -لحظتها- موقف "الدّندي" أمام إغراء الذخيرة التي أمامها، وبعدها -ولكن بأيام- اكتفيت بأن حمدت الله على أن الحجر / القذيفة لم يرتفع قليلاً ليحط على موضع قاتل.

-٢-

في تلك الحارة، أبو اللجا، تعرفت إلى صنوف لا تعد ولا تحصى من الباعة الجائلين. كل السلع كان يباع ويشترى في هذه السوق الموازية، كما يقول الاقتصاديون اليوم.

لم يكن الأمر يخلو من شقاوة تصل إلى درجة القسوة بل الخسة من جانبنا، نحن الصغار، كنا نستغل حمل البائع الثقيل الذي يجعل مطاردته لنا أمراً مخوفاً بالمجازفة ببضاعته، فنروح نردد وراءه، أوركسترياً، نداءاته. من هؤلاء بائع الزيت، الذي كان يقتصر نداؤه على كلمة واحدة فقط: "زيبييت...."، يقولها ممدودة أو ممطوطة بصوت حريري ناعم ولكن الجميع كانوا يسمعون. لم يكن يستعمل عربة أو ما شابه، بل يجول الحارات يحمل بيمنه تنكة الزيت، ويسراه المحقان والمكيال. ولكن نعومة صوته كانت وراءها على ما يبدو نية مبيتة بالغش والعبث بالمكيال. ذات يوم رأيت تجمعاً صغيراً عند دار أبي حافظ، وكان هذا عريفاً بالجيش أو بالشرطة، لست متأكداً، وقد ساد هرج ومرج في هذا التجمع الذي كان يضم رجالاً ونساء وأطفالاً ويتوسطهم بائع الزيت وهو يقسم بأغلظ الأيمان بأن مكياله صحيح وفوقه "طبشة كمان"...

انضممت للجمع، وشاهدت أول تحقيق للشرطة أمامي في حياتي، لا أذكر إذا كان أبو حافظ هو مشتري الزيت أم أحد جيرانه، ولكنني لاحظت أمارات المرارة والرعب على وجه البائع. وأخيراً نطق بالجوهرية: "هذول ناقصات نص أوقيه ... وأنا بعرضك يا بو حافظ". هنا تتوقف الذاكرة، ولا تنشط إلا باستعادة نداء البائع بكلمته اليتيمة: "زيببيت ... زيببيت..." ونحن نردها وراءه.

أما أشهر الباعة فقد كان "كاسات الماي، كاسات الشاي". من الطبيعي أنني لم أعد أتذكر أسماء أو كُنَى الكثيرين من هؤلاء الباعة، ما أتذكره أن هذا الرجل كان يميل إلى القصر، ووجهه دائماً متعرق تغلب عليه الحمرة... يمشى بثقة وقد جر عربة أمامه أشبه بدكان عامر بشتى أصناف الأدوات المنزلية ... هل أقول: (دون دعاية لأحد) "هوم سيتي" متحركاً؟. كان يضع فوق رأسه حطة بيضاء وعقالاً (هكذا صورته المنطبعة في ذاكرتي) ويرتدي قنبراً أسود.

صوته قوي متعدد الطبقات متنوع النغمات، وكان مشهوراً بشطارته وبيعه البضاعة الرديئة بأعلى ما يستطيع أن يحصل عليه من سعر أو "بدل". وكان الموال اليومي يبدأ بلازمته: معانا... يقولها بصوت منخفض قليلاً، ثم يصمت برهة... ولا يلبث أن يجأر: "كاسات الماي (يعني الماء) كاسات الشاي". ثم يتوقف لحمس أو ست ثوان، ليستأنف النداء بإيقاع جديد: "الصحون ... الزبادي"... فوقفه الثالثة يليها الجزء الأخير أو اللازمة من

أنشودته: "فناجين القهوة الحلوة"... كان ينطق شبه الجملة الأخير بنبرة رجراجة وصوت ترجيعي ذي جرس نحاسي. ولم تكن شطارته تقتصر على المفاصلة فحسب؛ فيطلب بالكاس شلناً، ليقبل بقرشين في نهاية المطاف؛ بل كانت هذه الشطارة تتجلى بالمقايضة، ملابس قديمة، أو أحذية مستعملة، أو ساعة حائط معطلة، أو غرامفون لم يعد أحد يستعمله أصحابه لشيوع "البك أب"، أو أي "روبابيكيا" حسب التعبير المصري... يقايض تلك الأشياء بما يبيعه، وكان جوف العربة مستودعا جاهزا لاستقبال مثل هذا المتاع. وكانت السيدات، ولسنّ دونه شطارة، مضطرات للتعامل معه لأنه يأتي إلى البيوت. أذكر أن والدي قدمت له كتلة (أو بالة كاملة) من الملابس القديمة التي لم يعد أحد منا في حاجة إليها، وقلّبها... وفلّاها، ثم قال للوالدة: "توخذيلتش فيهن فنجان" وحين صُعقت من هذا العرض بادرها بالقول بصوته الرجراج: "شو بتفكري.... كلهن والله بجيينش شلن (يعني حق الفنجان) ... إنت بتفكري في حد بيقبل يلبسهن؟" وحين حاججته الوالدة: "طيب وين بتروح بيهن؟"، أجاب: "والله العظيم أنا بؤخذهن لموتور الكهرباء عند يغمور، ويشتروهم علشان يمسخوا بيهم الأوايل" (يقصد الماكينات). وكان دائماً يخرج ظافراً، فلا أحد غيره يملك أكثر من خيار، ولم يكن يسترد منه الحساب سوى الصغار من الذين كانوا يرددون خلفه بل يزفّونه بصوت يمدونه بما يذكر بأنكر الأصوات: "كاسات الماي ... كاسات الشاي..".

أما بائع "الملبن" وهو نوع من الحلوى الحمراء اللدنة كالمعجون، كان يصنعها في بيته، فإنه شخصية لا تنسى، بطاولته المستطيلة المحمولة، وبضاعته الأنيقة. كان يتغنى ببضاعته حين يقول بصوت منبعث من أعماقه: "آه يا ملبن... تعمة (طعمة) وريحة". كان يتحمل مضايقاتنا وتكرارنا لنداءاته بابتسامة ساخرة، دون أن يصدر عنه أي رد فعل، ولكننا نعوض هذه القسوة - من جانبنا - بشراء قطعة ملبن بتعريفه، يقدمها لنا وقد مغطها وجعلها مستقيمه كالمسطرة بحيث نقرطها كالكعكة اللدنة ... طبعاً. وغالباً ما يكون النداء، في حارتنا تحديداً، مصحوباً بكورس الصغار، مجتمعاً أحياناً، ومنفرداً أحياناً أخرى، وكم كنا نظرب لللفة طعمة إذ تخرج من فمه شبه الخالي من الأسنان: تعمة (مكسورة الميم).

أما الرجل عريض القنباذ الأزرق باهت اللون، بائع التين، فقد كان أسوأ الجميع حظاً. وهو نسخة عن زكي رستم، ولكن بأدواره الطيبة، وكان على الدوام معتمراً طاقية بيضاء، وقد حمل سلة مستديرة قطر قاعدتها أكثر من نصف متر. وكان البعض يتناول؛ فيأتي من خلفه ليخطف حبة تين أو ملء يده من سلته ليلتفت ويحاول تدارك أمر اللص الصغير ولكن بعد فوات الأوان. وظل نداؤه منحصرأ في مقطعين لا أكثر: "يا الله عالتين ... هاي التين".

ولكن بائع البوظة كان سلطان الطرب دون منازع (مع الاعتذار ممن اكتسبوا اللقب في زمن الكتابة) ... وكان يعزز من تطريه لنا كونه يظهر في الوقت الذي يشتهى الناس فيه البوظة؛ بداية العصر في أيام القيظ، والحق أن بضاعة الرجل كانت جيدة ولم يكن يجد عناء في تصريفها كلها. ومع أنه كان أقرب إلى الخمسين فإنه كان يبدو في قمة النشاط والعرق يتصبب منه، وهو يملأ كرات البوظة؛ لهذا كوز بسكويت، ويملاً لتلك إناءً مقعراً. وكانت أصناف البوظة تنحصر في ثلاثة: حليب وليمون وشيكولاته، وقد حول هذه الأصناف إلى مقاطع غنائية يشدو بها، دون أن يفكر أحد منا بصب مسخرته عليه، ولكن تقليده كان يحصل بعد انصرافه:

أنا بيع الكولجيتا حاليب ولامون وشوكليتة

وكان يردد مقطعاً آخر لا أذكر سوى مطلعته:

أنا بيع الدندرمة...؟

كانت بضاعته داخل عربة من ذوات العجلات الثلاثة، وقد وضعها بها يشبه البراميل الصغيرة النحاسية. ومما يميز ندائه الملحنة أنه كان يخاطب بها بضاعته، إذ يمسك بالسكوية ويثبتها أمام عينيه ويترنم متغزلاً بها بمقاطع غنائية لم أعد أذكرها، أو يرفع الصحن فوق رؤوس الصغار وينشد: "إيما يا مشوين والبيعة بملين".

هل ننسى أشهر بائعي الترمس؟ (غير حمدان أبي الذبان بطبيعة

الحال). لا أذكر له اسماً، ولكن هيئته المدججة وبنيته القوية، وهو بالحطة والعقال

والملابس الداكنة والقميص الخارج نصفه من البنطلون ويحيطه بالحزام...مازالت ماثلة في ذاكرتي. ورغم بنيته القادرة وشكله العابس دائماً وقوته الظاهرة التي يستطيع بها أن يصرع ثوراً وقت اللزوم؛ فإنه كان مسالماً يتقبل تقليدنا وسخریتنا (بل رذالتنا) بالتجاهل الكامل، حتى لو امتدت يد إلى الصدر وخطفت بضع حبات من الترمس، كان يكتفي بهش اليد (أو كشها) برقة وكأن يد اللص ذبابة ليس إلا.

بضاعته كانت مميزة، وكان دائماً يرش الماء على الترمس من أناء يضعه تحت المنضدة التي يبيع عليها. حاولت أن أقلد صوته الشبيه بخوار الثور (وليسا محني الله)، وأخفقت، ولم ينجح في استحضار صوته، سوى صديق العمر زهير الملكاوي الذي قال مرة فجأة: انتبهوا يا شباب، ثم أردف: "لوزي يأمّلع"، نفس صوت البائع، بنغماته وغلاظته وإيقاعاته، والأهم من هذا أمامه وبمسمع منه.

- ٣ -

جاء حمدان أبو الذبان من الضفة الغربية. لم يكن بائعاً مشهوراً في أوساط طلبة مدارس غرب البلدة فحسب؛ بل كان شخصية يعرفها القاصي والداني في إربد، وظلت شهرته ماثلة حتى بعد أن اختار الرمثا مقراً جديداً لسكنه وعمله في وقت ما من الستينيات أو السبعينيات.

اشتهر حمدان ببيعه أصنافاً كثيرة مما يفضلها الصغار، الفول النابت المغطى بطبقة بيضاء من الملح والطحين (ربما) إضافة إلى تشكيلات جميلة يخططها بالبقدونس، وربما كانت بضاعته في يوم تال الترمس أو البليلة، ولكن أشهر بضاعته ما كان هو يطلق عليها: "الحلاوي": بآل التعريف (خارج النداء)... كان نداؤه الدائم: يا حلاوي يا حلاوي ... شامية يا حلاوي.



وهذه (الحلاوي) لم تكن صنفاً واحداً فحسب؛ فيوماً نراها "ملبنا لدناً" ويوماً آخر نراها تكون على شكل المهلبية بألوان حمراء وصفراء وبيضاء، أو قد يبيع (في الشتاء) السحلب، وأحياناً يبيع الكعك الطري أو ساندويشات الفلافل، كل هذا فوق سدر يتعدى قطره المتر، يحمله بيد واحدة بطريقة لا تسقط معها "البضاعة" وفي يده الأخرى يحمل "الحامل" مربع الأرجل برأس دائري، يضع عليه السدر، فيأخذ وضعه بثبات يتحمل تناوشات اللصوص الصغار.

كان حمدان كريم النفس سخيّاً مترفعاً على الاختلاسات العابرة من زبائنه الملازمين لمجلسه -وقوفاً- حول السدر، ولكن شرط أن يتم "التناول" أمام عينيه، فكنا نتحلق حول السدر نتجاذب معه أطراف الحديث، وغالباً ما يكون الحديث حول الباعة الآخرين وغشهم وقذارتهم وفساد بضاعتهم. كان عدوه اللدود "أبا الرب"، بائع سندويشات الفلافل الصغيرة (بربع رغيف تنوري)، الذي كان يضع سدره (أو بسطته) على مبعدة مترين أو ثلاثة منه.

وكنا أثناء الحديث واغتياب الباعة الآخرين ضيوفاً مرحباً بنا عند حمدان حول السدر، ولا سيما إذا كان يحمل مادة تقبل "النقرشة" مثل الفول أو الترمس، نتناول الحبة أو الاثنتين ما بين الفينة والأخرى دون اعتراض من حمدان، وكنت ألاحظ أن كميات القشر الكبيرة التي نلقيها بين أقدامنا تغطي مساحة واسعة من الأرض أثناء حلقة المؤانسة مع حمدان؛ فأتعجب من سخائه الأخرق والأحمق ... لماذا أقول الأحمق؟

ذات يوم مر أحد الطلبة إلى جانب السدر ونحن وقوف، وخطف كمشة فول أو ترمس؟ دون استئذان، والأهم أنه لم يكن عضواً في الحلقة، فجن جنون حمدان؛ فاندفع نحو الصبي الذي لم يجد سبيلاً سوى الفرار من هذه الهجمة بنية الفتك به؛ فركض مبتعداً، وحمدان وراءه، ولم نكن ندري أنه يمتلك هذه الطاقة على الجري، المهم حين عاد حمدان يلهث كان قشر الترمس قد غطى مساحة إضافية من الأرض التي تحيط بالسدر، أما الطالب، فقد غاب عن الحصّة الرابعة التي تلي فرصة منتصف الدوام بسبب المسافة التي باتت تفصله عن المدرسة. كان حمدان قد احمر وجهه من الركض ويسب بأقذع الألفاظ هذا "الخطّاف" الذي فاز بالكمشة رغم أن حمدان أوسع به بالشتائم.

ولم تكن أحاديثنا مع حمدان تقتصر على الحلقة اليومية بفرصة الربع ساعة، بل إن "حُشته" في أطراف البارحة الشرقية، كانت تشهد سهرة ليلية مفتوحة للجميع في ليالي الشتاء، لم يكن الحديث يدور حول أبي الرب أو بائعي الكعك والذرة فحسب، بل كان عن أحمد عياش كذلك.

كان أحمد صبيّاً يتيماً ضئيلاً الحجم وفقيراً من أبناء قرية مجاورة، وكان ذا عين كريمة، ولكن حمدان لم يكن يذكره إلا مقترناً بلقب الأعور. وقد عمل أحمد فترة طويلة في خدمة حمدان أثناء إعداد بضاعته، وغالبا ما كان يرافقه إلى موقعه في ساحة المدرسة، وقد حمل معه مستلزمات حمدان، ثم ينصرف دون أن يختلط بأحد.

وقعت الواقعة، على ذمة حمدان، حين طلب أحمد عياش زيادة أجرته، ويبدو أن نقاشاً حامياً قد جرى بين الاثنين تخلله شكوى حمدان من خالة أحمد، خضرة، وكانت السيدة غسالة، تطوف كل بيوت الحارة، ويعرفها كل نساء الحي، وكانت دائماً تشنع بحمدان واستغلاله لابن شقيقتها المظلوم والمسكين... فوجدها حمدان فرصة للانتقام بالزجل من الصبي وخالته ذات اللسان الطويل والبذيع أيضاً، وقد حضرت مرة مجلساً جمعها بوالدي وبعض من نساء الحي، فكانت تشنع بكل سيدة غائبة دخلت بيتها ذات يوم أو اشتغلت عندها وتفضح أسرار أسرتها. ولما كان حمدان زجلاً ماهراً، فقد أطلق زجله حول أحمد عياش:

أحمد عياش طلب زيادة معاش لكن حمدان طرده كله إبلاش

وأشاع حمدان، ربما اختلاقاً للرد على التشهير، أن أحمد عياش سرق بعض النقود مما كان يكومه حمدان بعد غلة كل يوم، فنظم:

أحمد عياش يا شيخ العُوران تسرق حمدان ومن قللك تيجي لهان

والمفارقة أن حمدان كان أكثر من "أعور"؛ بل أكثر من نصف أعمى... كان دائماً "معمصاً" يملأ القذى عينيه، لذلك كانت منشة حمدان التي يطرد بها الذباب تصيب أجيره أحياناً في أي موضع من النصف العلوي، وكأن الذباب كان يهوى هذا الرجل، فكانت أسرابه لا تتوقف صيفاً أو شتاءً ومن هنا اقترن اسمه به؛ فلا يذكر حمدان إلا مقترناً بأبي الذبان، ومن الممكن أن السجع -أو الإتياع- قد تواطأ في شيوع هذا اللقب.

أما أبو الرب، فقد عرف على الدوام بأنه غريم حمدان والمنافس الدائم له، بل قل خصمه اللدود. وكان هذا بائعاً جوالاً ينوع في بضاعته أكثر مما ينوع حمدان. وكانا يلتقيان كل يوم من أيام الدراسة في الساحة نفسها (مدرسة سعد بن أبي وقاص أو ثانوية البارحة سابقاً) وفي معظم الأحيان كان الاثنان يبرمان اتفاق جنتلمان صامتاً؛ فإذا اعتاد حمدان أن يحضر "الحلاوي" أحضر أبو الرب الترمس أو الفول، وإذا أحضر أبو الرب أحد هذين الصنفين، يأتي حمدان بلفائف سندويشات الفلافل (الربع) حيث تباع السندويشة بتعريفه، وهناك سندويش (نص) يباع بقرش.

ولكن كان يصدف أن يحضر حمدان الحلاوي، ويكون أبو الرب قد أحضر سدر هرايس، هنا يقع التضارب؛ فالهرايس تمثل تحدياً قوياً للحلاوي، ويتبرم حمدان دون أن يمتلك بطبيعة الحال حق الاعتراض الصريح. ولكنه كان يغمز من قناة بضاعة أبي الرب حين كان ينادي هذا على بضاعته: "بالسمن البلدي يا هرايس ... بالسمن البلدي يا ولدي"؛ فيتمتم حمدان ولا ننسى أنه زجال: "بالسم الهاري يا جاري" ... إلى أن طفح الكيل مرة بأبي الرب وقال له ربما بعد أن فهم مهمته: مش "تكش الذبان عن بضاعتك". وكان الذبان نقطة الضعف في الحاجز الذي يصد انفجار براكين غضب حمدان، فلطالما سمع بأذنيه في طرقات أبي اللجا من يدعوه بحمدان أبي الذبان. فصرخ بأبي الرب: "ولك يا قليل الدين أنت بتحط سمن بلدي ولا دهن جمال؟ ... ها؟ قول..." ولم تكن التهمة التي سمعها "الزبائن" بالقليلة؛ فأنا

شخصياً، والمجموعة التي أنتمي إليها "كششنا" من يومها عن شراء هرايس أبي الرب، لا سيما بعد أن استمر حمدان بالغمز والتلقيح كلما أحضر أبو الرب سدر هرايس: "والله يا جماعة دهن الجمال رخيص اليوم"، أو: "اليوم ذبحوا عشر جمال في سوك (سوق) اللحامين". ولم يمض وقت طويل حتى استسلم أبو الرب أمام إشاعة حمدان، وعاد إلى بضاعته الأولى؛ سندويشات الفلافل. ربع الرغيف التنوري بتعريفة، والنصف بقرش. ولكن حمدان منكف عنيد؛ فأصبح يتاجر بسندويشات الفلافل، ولعل "تنكشنا" له ونفاقنا في "التعليلة" شبه اليومية التي تجمعنا به في "خشته" على حافة وادي أبي اللجا كان السبب الأول في تحريضه؛ فأصبح متحدياً جديداً لأبي الرب الذي أحس بأن السبل تضيق أمامه. إلى أن جاء يوم رد فيه أبو الرب بأسلوب انتحاري: عليّ وعلى أعدائي ...

أحضر أبو الرب كمي هائل من السندويشات الصغيرة بالسحاحير الخشبية، وما أن دق الجرس معلناً فرصة منتصف الدوام حتى أصبح ينادي عليّ بضاعته: "لفتين بتعريفه ... لفتين بتعريفه .." ثم أخذ يوجه كلامه نحو حمدان وإلى مساعده أحمد عياش؛ فيغمز من قناة المساعد: "والله وحياة عينك إلا لفتين ... أيوه لفتين". لم يكن حمدان من النوع الذي يقبل بالتضحية بالربح، أو بالخسارة التي لا نهاية لها، وحتى لا يستسلم علناً أو يهدر كرامته (حين تيقن أن أبا الرب ماض حتى النهاية في نهجه الانتحاري) ... خفف تدريجياً من لهجته وتوقف عن تعريضه العلني بأبي الرب؛ فعاد التنسيق السابق

والصامت إلى سابق عهده. إنه بلغة الجيوش "التنسيق السلبي المانع للصدام" دون أن يصل الأمر إلى درجة التعاون، وذلك رغم محاولات الخبثاء منا تحريض حمدان على مقابلة التحدي بمثله أي سياسة "الانتحار في الأسعار"... لكن عبودة، يظل أشهر من باع السندويشات في معظم مدارس إربد. لم يأت عبودة إلى مدرسة سعد، ومن ثم لم أتعامل معه إلا أيام الزوغان عن الدوام بعد الفرصة والذهاب إلى مدرسة العروبة أو ثانوية إربد، أو مدرسة الصباح. وأمام مدرسة العروبة تذوقت سندويشات عبودة التي لا مثيل لها مما يقدم في المدارس الأخرى (طبعاً حديثنا لا يشمل أحمد الفلافل مد الله في عمره). كان عبودة أشبه شكلاً وتعاملاً بجنتلمان بريطاني. شهم وسخي في حشو السندويشة بكل ما لذ وطاب من الفلافل والسلطات وعصير الليمون والمقالي وأحياناً الحمص المطحون، وكان سندويش واحد برغيف تنوري كامل يعادل وجبة دسمه للصغير والكبير. ما أذكره جيداً عن حمودة أن بعض الطلاب، وكانوا في أول سني الشباب يستغلون طيبته والرحام من حوله ويأخذون السندويشة دون أن يدفعوا ثمنها، وشجعهم على هذا أن عبودة لم يكن يتناول النقود بيده حرصاً على النظافة، بل كان يطلب من المشتري أن يلقي الفكة بنفسه (ويتناول الباقي)، في إناء مستدير من الألمنيوم على طرف البسطة التي تقلها عربته العامرة بمستلزمات الصنعة، وكانت هذه تتكون من طابقتين: علوي زجاجي، وسفلي سطحه يحمل المعدات، وجوفه مستودع للخبز وخلاف ذلك.

٤-

لم يستمر عبودة طويلاً في هذه المهنة، بل سرعان ما أصبح "عضواً" فاعلاً في شركة معروفة وسط البلد اسمها "شركة العشرة". وقد كونها عشرة من ملتزمي بطاقات الإعاشة" أو "الكروت" التي وزعتها الأونروا على اللاجئين الفلسطينيين مع بداية تهجيرهم خلال نكبة ١٩٤٨، وكانوا يتلقون بموجبها إعانات شهرية عينية غذائية مثل الطحين والسكر والسمن وأحياناً صفار البيض المجمد وعدد من قطع الصابون، وثمة معونة إضافية غير غذائية ولكنها تقدم في أوقات متباعدة، مثل الملابس المستعملة والأحذية القديمة وبعض البطانيات..... إلخ. وحين تقلصت هذه المعونات وأصبحت لا تستحق معاناة الوقوف ساعات من أجل صرفها، أو أصبح كثيرون من أصحاب البطاقات في غنى عنها، راج بيع الحصص الشهرية لهؤلاء الملتزمين العشرة لقاء بدل نقدي زهيد. فكان العشرة يأخذون المؤن التي دفعوا ثمنها نقداً، ويبيعونها بالمفرق في مخزن مزدوج في شارع الهاشمي، وكان أبرز هؤلاء العشرة: عبودة، والجرس، وجمعة، الذي كان يمازحه بعض الزبائن بلقب "جمعة زمان".

في شارع الهاشمي، ومقابل شركة العشرة، وعلى الزاوية الشرقية لدخل سوق الفروانية حيث يقع خان أبي صياح، المؤدي مباشرة إلى سوق الفحم ثم سوق "الصاغة"، هناك في هذه الزاوية نموذج إنساني لا يمكن لجيلي أن ينساه: الشيخ سليمان، مصلح الساعات، المشهور بأمانته ودمائه وحققه، ولكن

بوعوده العرقوبية أيضاً، ربما لشدة الإقبال عليه. لم يكن شيخاً بعمامة بل بملبس عادي، ولعل مناداته بالشيخ جاءت لما عرف عنه من ورع وتقوى؛ كان في الخمسينيات من عمره، ضئيل الجسم ودقيق الملامح لا يفارق هامته العقل أو السلك الأزرق (أي الحطة المنقطة بالأسود والأبيض) وكان منتظماً كالساعة في قدومه صباحاً ومغادرته عصراً أو مساءً، ولكن المواعيد التي كان يضربها للزبائن لاستلام ساعاتهم بعد تصليحها لم تكن بهذه الدقة، دائماً بكرة (أي غداً). وقد تتكرر هذه البكرة عشرات المرات. وقد عشت بنفسني تجربة مريرة معه في الماطلة والانتظار.



ذات يوم أورثني شقيقي الكبير أديب ساعة جوفياال قديمة بعد أن اشترى لنفسه (إثر زيادة راتبه) ساعة أخرى من موديل أحدث: أنيكار.

ويبدو أن زيادة الراتب لم تكن السبب الوحيد الذي حدا بشقيقي للتخلص من ساعته القديمة؛ إذ بعد يومين أو ثلاثة توقفت الجوفياال، ولم أكن في حاجة لأن أسأل أحدا عن سبيل إصلاحها، فقد كنت أمر من أمام محل الشيخ سليمان كل يوم، بل كنت أتوقف أحيانا على بابه الشمالي (ومساحة المحل على أية حال قد لا تُجاوز المتر ونصف المتر طولاً وعرضاً وعمقا) وأراقب الشيخ وقد وضع منظاره العجيب على إحدى عينيه وراح يحاور الساعة التي بين يديه بمفك رفيع، وقد فتح بطنها بحركة حرفيه سريعة، وأخذ يتأمله بمنظاره، ثم يقول للزبون: "بدها تنظيف، تعال بعد بكرة". ولم أكن بدوري استثناء من هذا الطقس. وحين رجعت إليه في الموعد المحدد، قال: "خليها لبكرة"... تكرر هذا عدة مرات، وأنا أتحرق لوضع الساعة في يدي، فهي المرة الأولى في حياتي التي أحظى فيها بساعة، شأني في هذا شأن أبناء الأكابر... تكررت "بكرة" كثيرا، ومما زاد الطين بله أن المحل - على ضيقة - كان دائم الازدحام بالقادمين من القرى المحيطة ممن لا يملكون ترف القدم "بكرة"؛ فكان الواحد "يلط" عند الشيخ حين إنجاز حاجته. كنت انتظر أحيانا ساعة أو أكثر لأحظى بالنهاية: "خلص بكرة أكيد"...

ولكن "بكرة أكيد" هذه حملت حين صدقت نبأ مكلفاً في الوقت والمال: "هاي الساعة بدها قطعة... إستنالك تشمن يوم حتى أدور لك عليها

بهالقديم". لم تمض بضعة أيام، حتى أبر الشيخ سليمان بوعدده وسلمني الساعة في صورة أخرى أدق وأجمل، بعد أن تم تغيير "الكستك" المعدني. وظلت تلك الساعة معي حتى حصولي على درجة الماجستير، دون أن تمسها يد "مصلح" بعد يد الشيخ سليمان البارعة والمباركة، والقانعة كذلك. وورثت بعدها ساعة الأنيكار؛ فلازمتني طيلة المرحلة التي تبقت من دراستي.

٥-

وأثناء "وقفاتي" الكثيرة أمام محل الشيخ سليمان، كان أول شارع الهاشمي يشهد قدوم موكب أشهر وأهم مجنون في تاريخ إربد. إنه "أبو الترك" الذي كان يأتي راجلاً من أعماق البارحة حيث يقيم في كنف إحدى العائلات المشهورة فيها؛ فقد كان وأسرته - كما سمعت - من مخلفات العهد التركي بعد الحرب الأولى. كان دائماً يرتدي زياً عسكرياً قديماً عليه علامات "الشاويش" ويضع على رأسه "فيصلية" تذكر بما كان يعتمره المهيب الركن عبد الكريم قاسم في تلك الأيام. يمر واثق الخطى يمشي جنراً، ولا يلقي التحية إلا باتجاه محل "أسعد شرار" وهو مناضل قديم، امتهن بيع الأسلحة النارية وتصليحها، ويقع محله في الجزء الذي يصل شارع البارحة بالهاشمي، ولعل أبا الترك حين يوجه التحية لمن كان في محل الأسلحة إنما كان يؤكد التزامه بأسس الانضباط العسكري. كان دائماً يحدث نفسه بأعلى صوته دون أن يأبه بتعليقات الموجودين في الشارع أو ضحكاتهم. بل يقابل كل من يحاول أن يتحدث معه بابتسامة ناعمة، ثم يمضي في طريقه مهدداً ومتوعداً كل من كانوا السبب في

إبعاده عن الجيش (كما يزعم). كان يقول بأعلى صوته: "والله العظيم...والله العظيم والي ما أعظم منه عظيم لأورّجهم اولاد الحرام... أنا هاظا الحتشي قلتة ... حتشيتو لكلوب باشا بذات نفسه (وكان قد رحل عن البلاد منذ سنوات) ... قتللو: ولك...هيه ولك..." وأحيانا يتوعد حابس باشا، وقد يصل وعيده إلى من هو فوقه... إذا كان أبو الترك مهتاجاً ساعة الظهر والعرق يتصبب من وجهه الأشقر الموشح بالحمرة. وحين يصل إلى منتصف شارع الهاشمي كان ينعطف يمينا باتجاه شارع فلسطين عن طريق شارع الملك عبد الله ... طبعاً أقول هذا عن مراقبة مباشرة... ثم يتجه غرباً حتى يصل العبارة الشهيرة تحت الجسر الصغير (تمت إزالته الآن) المواجه جنوباً لمستشفى الأميرة بسمة، فيقضي حاجته مقرصاً داخل العبارة الواسعة مفتوحة من الجهتين، وحين ينتهي يأخذ بعد ذلك بتقليب الحيوانات النافقة التي يلقيها أصحابها في العبارة. وذات يوم، وقد كمنّا له في مكان قريب وراء أحد الأحجار الضخمة سمعناه يردد وهو يمسك برجل كلب نافق ويرفعه قليلاً عن الأرض: "بعده طيب (يقصد ما زال حياً)... يا جماعة طيب ... يا ناس بعده طيب" ...

لم نكن صغاراً بل كنا مراقبين على أعتاب مرحلة الشباب، ورغم ذلك كنا نتسم أحياناً بالقسوة أو تصدر عنا أفعال لا إنسانية فقط لتتدر بها قليلاً أو نقهقه بسببها. كان صديقنا سامح "أبو الجاج" يمتلك "نقافة" برع بإصابة الهدف بها منذ صباه المبكر؛ فكان يسقط بها الكثير من العصافير التي تقف على أسلاك التليفون والكهرباء. وذات يوم كنا في منطقته العبارة وأبو

الجاج يسقط بنقافته العصافير عن السلك الممتد واحدا إثر الآخر. وفجأة جاء أبو الترك إلى العبارة لأداء واجبه اليومي. لم يستشر أبو اللجا أحداً منا، بل انبطح على بطنه فوق "الحماري" - أي التراب - و صوب سلاحه نحو الرجل، وأطلق مقذوفه، متوخياً - كما زعم لنا - تفجير أئمن ما لديه... ولا أريد أن أستدرج خيلة القارئ إلى أكثر من هذا، سواء مما وقع أو مما تبعه؛ فللقصة بقيتها ولكن في... ذمة التاريخ.

ويبدو أن لأبي اللجا بعض الميول السادية، ومن هنا اكتسب لقبه؛ إذ لم تكن تكفيه مجازره مع العصافير وكل ما حلق بجناحيه فوق رأسه؛ بل راح يُعمل سلاحه الرهيب في دجاج الحارة، فكان يصوب طلقاته على رأس الدجاجة أو الديك إن - وجد - ثم يترك الطير لمصيره، دون أن يجني فائدة. وأذكر ذات يوم أنه أصاب دجاجة لجارتنا أم يحيى، ويبدو أن الإصابة لم تقع في موضع قاتل من الرأس؛ فأخذت الدجاجة ترفرف "فوق وتحت" وفي الجهات الأربع، وصدف أن كنت حاضرا حين خرجت صاحبتهما من عتبة المنزل لتراها على هذه الحالة؛ فأخذت تنادي على جاريتها وتردد: "شايفة يا ام حفيظة... والله تشنها (كأنها) الجاجة انجنت"!!..

وحين كنت أصادف "سامح" قبل سنوات قليلة، وقد رحل عن دنيانا مؤخراً، كنت أدعوه مازحاً بأبي "الدجاج"، فيرد: "ناقصنا فصاحتك كمان... خيلنا بأبو اللجا بكفي، فأرد عليه "وأبو الترك كمان".

ولذلك الوادي في شارع فلسطين، حيث العبّارة، حكاياته. كان علامة مميزة للموسم المطري، ولم يكن ثمة موسم جيد دون أن "يسيل" هذا الوادي الذي كان يشق إربد إلى نصفين؛ شمالي وجنوبي، وذلك قبل أن يتم سقفه ويصبح جزءاً من أرضية الشارع، وأما ما كان أسفل الأرضية فتحول مجرى للصرف الصحي لا أكثر. وكان جانباه (قبل السقف) ملاذاً بل متنزهاً قريباً للعديد من أبناء الحارة خلال أيام العطل في الشتاء والربيع. وقد تبقى المياه جارية فيه إلى ما بعد آذار، ثم يتحول الجريان إلى مجموعة من البرك الصغيرة تستمر حتى أواسط الربيع. ثم تبدأ سمفونية الضفادع بعزف ألحانها ليلاً بإيقاعات منتظمة، ويكاد نقيق الضفادع يصل إلى المنازل الواقعة على مبعدة عشرات الأمتار، في حين يخترق هدير الماء في الليالي التي يتدفق فيها الوادي مسامع معظم أهالي الحارة.

لكن ما يدهشني إلى اليوم استضافة هذا الوادي لأسماك "البلاييط" كبيرة الحجم نسبياً. لم أتساءل عن مصدرها إلا بعد أن كبرتُ، وأخذت أسمع الفرضيات؛ فمن قائل إنها ربما انجرفت من أماكن بعيدة (مثل سيل الزرقاء)، وتعثّر حظها وجاءت إلى من كان ينتظرها، وآخر رأى إنها ربما كانت بيضاً كامناً تحت تراب قاع الوادي، ولكن حجم تلك البلاييط ينفي الفرضية الثانية. وإلى الشرق من موضع العبارة بحوالي خمسمئة متر، وعلى جانب الوادي تقع البركة الرومانية، أو البركة التحتا تمييزاً لها عن البركة الفوقا الواقعة في ظهر التل (وهي في الأصل مدرج تاريخي). وثمة بركة ثالثة تقع على

الكتف الجنوبي للتل مقابل مبنى البلدية. ولكن ما تهمني الإشارة إليه أن مصدر مياه البركة التحتا قد يكون الوادي الذي يشطر البلدة. بل إنني رأيت بنفسني عدداً من الأنابيب الكبيرة تصب في البركة من جهتها الشرقية، ويبدو أن جزءاً من ماء الوادي، غرباً، كان الفائض عن سعتها، وبقي الوضع هكذا لسنوات، وظلت البركة تمتلئ بالماء في كل موسم إلى أن وقعت مأساة ردمها وأقيم فوقها مجمع سيارات الأغوار القديم ... طبعاً لشح الأراضي وضيق سهول حوران في إربد، جوهره هذه السهول وعروس الشمال!

ولعل الاستطراد قد قادني بالضرورة إلى شارع فلسطين؛ لأن الحديث عن شارع الهاشمي غير قابل للتوقف، أما الذكريات فلا سبيل هيئاً إلى لجم تدفقها.

تتارغان.... البارحة والهاتنمي

-١-

إن مشهد مخبز أبي سركيس (أو "فران الشهرة" في شارع البارحة حسب اللوحة الحجرية فوق الباب، التي تشير كذلك إلى سنة تأسيسه ١٩٤٦، وما زالت في موضعها) وبخاصة وقت الذروة، قبل الظهر بقليل، مشهد درامي مشتعل حقاً، سواء في بيت النار، أو بالأحاديث بين الحضور، زبائن وعاملين. في ذلك الوقت كان خبز معظم الناس مما يعجن في المنازل، ويرسل من ثم إلى الفرن، مع أحد أفراد العائلة من الصغار أو الكبار، أو مع "أجير الفرن" (وأسف للتعبير) والمفروض أن يعيد "الخبزة" في وقت محدد، قبل الظهر غالباً، ولكن قد تلحق به ربة البيت ومعها أحد الصغار للإشراف بنفسها على عملية الخبز، لتضمن جودة الأرغفة من حيث تقميرها بطريقة متناسبة، وقد تصطحب صبي الفرن، أو يحمل "الخبزة" صغيرها أو هي نفسها. كان أجير الفرن الأشهر آنذاك هو "الحبوبة"، وكان آنذاك شاباً يافعا في حدود الخامسة عشرة، وهو الشقيق الأصغر لموسى جلق. وثمة وقفة مطولة عند الحبوبة، من كان له من لقبه نصيب، وأي نصيب، في سياق آخر لاحق.



وكان صاحب الفرن وخبازه الأول "أبو سركيس" ملكاً شبه متوج
أمام بيت النار يدخل الأرغفة بأداة خشبية أنيقة مربعة في مقدمتها، ثم يخرج
الأرغفة بأداة أخرى مستطيلة المقدمة دقيقة الحواف. أما البشكار (المساعد)
فقد كان على الأغلب ابنه سليم، في حين كان الابن الأكبر والأشهر سركيس
يشرف ويرعي الأمور الأخرى، من عجن للخبز المباع، أو شي الصواني، أو
تلقيم البيض فوق الأرغفة، واشتهر فرن سركيس -وما زال- بإعداد خبز
القداديس الذي يوزع قطعاً صغيرة عن روح الميت أمام عتبات الكنائس أو في
بيوت العزاء.

ولكن المشرف الحقيقي والأمر الناهي في الفرن كان السيدة ملكة أم
سركيس، فهي تقوم بالدور الأهم. تنظم الدور بين السيدات الواقفات،
وقبض النقود مقابل شَيِّ الصواني، والخبز المباع، أو مقابل عملية الخبز نفسها

لغير المشتركين بالمقابل الشهري المقطوع، وأحياناً كان هؤلاء يدفعون نسبة من الخبز رغيفا واحداً مثلاً مقابل خبز كل عشرة. إن خبز سر كيس، بكل أشكاله وأنواعه ما زال إلى اليوم الصنف المميز والأول على مستوى المدينة، ومن شاء أن يعد هذا من قبيل الدعاية، أقول له: إن فرن سر كيس لا يحتاجها، وما زال الأخ جورج حاملاً عبء المسؤولية التي ورثها، يدير الأمور بجودة تتقدم يوماً بعد يوم، ولا سيما في دنيا "المناقيش".

وأبو سر كيس شخصية لا تنسى، عرفته وكان في منتصف العمر تقريباً، لم يكن طويلاً، وكان ظهره يميل قليلاً إلى الاحدوداب، ويرتدي على الدوام الشروال الشامي الأسود الذي يطلق عليه (شروال أبولية). وعلى الرغم من طيبته وعفة نفسه فقد كان مقطباً على الدوام، وهو لا يعرف سوى العمل المتواصل، ولم أره خارج منطقة بيت النار إلا في مناسبات قليلة. وذات يوم عن لي أن أناكفه؛ فقلت له: "عمي أبو سر كيس أنت عمرك ما ضحكت؟" لم يلتفت إلي، وكأنني غير موجود، وحين أعدت السؤال، وألححت رد علي، ابنه سليم البشكار (آنذاك، ثم غداً "معلماً" مستقلاً له فرنه الخاص فيما بعد)، وكان خفيف الظل ويحب المزاح: "الضحكة عند عمك بتكلفك شلن"، وكنت يومها أحمل شلناً لغرض ما، فمددت يدي بالشلن نحو أبي سر كيس قائلاً: "هاي شلن عمي أبو سر كيس بس منشان الله .. اضحك". بادئ الأمر نظر إليّ شزراً وقال بصوته الأجش العميق: "روح أولاه"، ولكنه لم يلبث،

ودون شلن أو أي مبلغ آخر، أن زم شفتيفه؛ فأذن لطيف ابتسامة خفيفة بالارتسام حول فمه.

وطالما راق لي أن أراقب أبا سركيس وهو يتعامل مع قطعة العجين المستديرة التي يقذفها إليه سليم فيفردها ويكسبها شكل (المشروح)، أو حين يكتفي، في طور آخر وهو يصف ما يأتيه من البشكار على الطرحة مستطيلة المقدمة أمامه، ويقذفها في الفرن ليخرجها بعد قليل مقمرة ومحمرة أرغفة "كهاج" أو "معروك" أو "مشروح"، وأثناء ذلك قد يعاكسه عمل أداة من أدواته، أو تهب شعلة الفرن فجأة أو تنطفئ فجأة؛ فيوسع الطرحة أو الرغيف أو شعلة الفرن شتائم ما أنزل الله فيها من سلطان. لم أسمع له يوجه كلمة نابية لأي زبون أو عامل لديه، كان أكثر تعبيراته قسوة، حين يسخط، هو قوله: أولاه... (أي ويلك).

يروى عن أبي سركيس أن عالمه كان يقتصر على البيت والفرن فحسب، مع العلم بأن منزله - آنذاك - كان واسعاً على الطريقة الشامية القديمة، ولكن سقفه كان من الطين والقُصيب، وعدد من الغرف أمامها ساحة سماوية. ويقع خلف الفرن. وإلى جواره كان منزل عديله سركيس ثابت (أبي رفعت) وكان أيضاً صاحب مخبز شهير في قلب إربد، لعله كان الأهم في منطقته.

وقد أخذ الجميع يتداولون الحكايات (ولعلمهم يتندرون مبالغاً) حول عدم مغادرة أبي سركيس الحارة. وذات يوم سمعت حواراً بين شقيقي الأكبر

فؤاد ومحمد المنديل (أبي نايف) فهمت منه أن بعضهم خدع أبا سر كيس وأوهمه أنه سيزور معه عمان، ثم طاف معه بالسيارة شوارع إربد من مثل شارع السينما، وحين عاد الرجل كان يجيب كل من سأله أين كانت الغيبة؟ فيرد بصوته الأجش مقطباً كعادته، بكلمة واحدة: "عمان"، لعلها كانا يتندران ليس إلا.

-٢-

أما فرن أبي رفعت (سر كيس ثابت) القديم، فقد كان يقع في أول شارع الهاشمي، في الموضع الذي يقع فيه أول مخبز في إربد، حمل اسم مخبز آلي (على ذمة الياطرة آنذك). وأذكره جيداً في بنائه الطيني البسيط، الممتد لأكثر من عشرين متراً عمقاً حيث يقع في الصدر بيت النار المهيّب. ويطل باب الفرن على الشارع الرئيسي (أول الهاشمي)، تقابله عمارة مسلم الزوربا، ومكتبة رضا غنام. وإلى الغرب منها محل أسعد شرار، وهو أشهر من أن نتوقف عنده.

وكان أبو رفعت رجلاً طويلاً عريضاً، ناصع بياض الوجه أشيب الشعر والشارب، يضع بشكل دائم على جزء من رأسه طاقية تشبه "اللفة"، وكان مشهوداً له بكرم النفس وحلاوة الحديث في المجالس إذا تجلّى، وقد سمعت أنه كان من ندماء شاعر الأردن مصطفى وهبي التل، وأنه كان يذهب لزيارة الضريح في أي وقت بصحبة عبد الله الجودة، أشهر منادي محكمة في تاريخ القضاء في إربد، وكان أبو رفعت فناناً في صناعة أنواع عديدة من الفطائر، بل لعلها في مذاقها الشهوي تقارب ما يعرف بأيامنا بـ "الدونات".

ولكن أكثر ما اشتهر فيه كان الفطائر بالتمر. وراقبت مرة بنفسي مطاردته خارج المحل لأحد الصبية الأشقياء ممن اعتادوا على اقتحام بوابة الفرن الشمالية وخطف ما تسنى له من أنواع الفطائر الشهية المعروضة، وهو يصرخ بأعلى صوته بلهجته الشامية: أولاه... أولاه...

وهل أستطيع وأنا أذكر هذا الرجل الطيب أن أتجاوز مأساة أسرته وأسرته قريبه التي تكررت مع الموت مرتين.

كانت المأساة الأولى حين اشتدت الأمطار بشكل غير معهود ذات ليلة، فكان أن سقط سقف الغرفة المشيد بالطين والقصب فوق من كان نائماً تحته من نساء وأطفال (لا أذكر العدد) ولكنني أتذكر ما أشاعته المأساة من حزن شمل كل بيوت الحارة، بل كل إنسان في إربد.

أما المأساة الثانية فقد أصابت بيت أبي رفعت تحديداً، وتتطلب الإشارة إليها أن أقفز بضع سنين إلى أمام، إلى أواخر الستينيات. كان طلعت الابن الأوسط لأبي رفعت زينة شباب الحارة دون مبالغة، ويكاد في شكله يحاكي الممثل الأمريكي صاحب أشهر مأساة في تاريخ هوليوود، جيمس دين. وحتى لا أبعد كثيراً فقد كان قريب الشكل من الممثل المصري الشهير آنذاك، يوسف فخر الدين.

وظل طلعت يعد نفسه ليصبح ممثلاً مهماً كلفه الأمر، ويتشبه في لباسه وتسريحة شعره بالممثلين المشهورين. وما أن أنهى دراسته الثانوية في إربد، حتى اتجه إلى مصر ليقبل على الفور في معهد التمثيل هناك، بعد أن اجتاز العديد من

الامتحانات والاختبارات النظرية والعملية. وهناك التقى وتجددت علاقته بشقيقي إميل الذي سبقه إلى القاهرة بعام أو عامين لدراسة الموسيقى، وكان الاثنان موضع اهتمام كبير في الأوساط الشبابية في المدينة، والجميع يعتقد أن طلعت سيظل في مصر بعد تخرجه وسيذهب الناس في إربد لمشاهدته على الشاشة في دور السينما التي بلغ عددها آنذاك أربعاً في مدينة لم يكن عدد سكانها يجاوز الأربعين ألفاً. ومما شجع على هذا الاعتقاد، أو الأمل المعقود بطلعت، شخصيته الأسرة وتعامله العفوي الراقي مع الناس، إضافة إلى روعة ملامحه. وقد وقعت المأساة بحادث عرضي غير مقصود، حين كان يسهر مع بعض أصدقائه بوجود سلاح مع أحدهم، انطلقت منه رصاصة لتصيب غير هدفها. كانت جنازته حدثاً فريداً في إربد؛ إذ تحولت إلى جمع هستيري من الشبان، يندبون نجمهم الساطع الذي انطفأت شعلته فجأة، فهذا يصرخ، وذاك يطلق النار في الهواء، وثمة فتيات يزغردن ... وكبار وصغار يتحسرون...

-٣-

إلى الغرب قليلاً من فرن سركيس بضعة بيوت ربما ما زالت قائمة إلى اليوم في قسمها الداخلي على الأقل، إذ تحولت كل واجهات البيوت في الشارع إلى مخازن تجارية، ويعود عدد منها إلى آل خشروم، وكان معظمهم يعمل في مهنة البناء وطورها بعضهم إلى مجال المقاوله في الحقل نفسه.

وخشروم الأب شخصية ظريفة، ضئيل الجسم، وملاحه دوماً جادة، وكان يخلو له أن يجلس أمام بيته إما على الأحجار التي كانت تملأ جوانب عتبات معظم البيوت المحاذية لشارع البارحة، أو على كرسي قش صغير وقد تجمع حول بعض جيرانه. لم يتسن لي، وأنا الطفل آنذاك، أن أجالسه أو أن أستمع عن قرب إلى أحاديثه التي كانت تتسم بالظرف والمبالغة المقصودة، وكأنه يريد أن يستبق سخرية الآخرين بسخريته منهم أو بالسخرية من نفسه من خلال المبالغة المكشوفة. اشتهر - على مستوى البلدة - ببراعته في حيك القصص حول نفسه، لا عن كذب أو "عرط" كما يزعم البسطاء، بل عن تطرف وخفة روح ورغبة في "أكل الجو" في المجالس. كان خشروم - كما فهمت - يشجع الناس على ترديد مبالغاته مما جعله شهيراً وناجحاً في عمله. وحين كان يسأله شخص ما عن صحة هذه الواقعة أو تلك يؤكد له - ساخراً بطبيعة الحال - أن الحكاية صحيحة ويرتجل له بعض الإضافات بما يحسن الحكاية ويجعلها أكثر اكتمالاً وإثارة. وكنت أراقبه وهو يصفق بيديه لمرة واحدة حين يسمع أمراً مهماً، أو يتذكر أمراً ما أو حين تبلغ حكايته منعطفاً درامياً. ولقد شاع الكثير من الطرائف المنسوبة إليه، وسأكتفي بإيراد واحدة منها أختارها لأنها تناسب مهنته بناءً، ولم ترو - حسب علمي - إلا عنه. أما الطرفة التي سمعتها عنه، ولا أقول منه شخصياً، فتحكي أنه كان ذات يوم يبني عمارة من أربعة طوابق، وحدث أن سقط منه الشاكوش باتجاه الأرض حين كان

يفرد خشب السقف الأخير، فما كان منه إلا أن ركض نحو الدرج ونزل عليه بسرعة البرق وتلقف الشاكوش بيده قبل أن يلامس الأرض.

وأذكر لحشروم أربعة أو خمسة أبناء، وأذكر جيداً الابن الأوسط العليل نواف، وكان - على ما سمعت في ذلك الحين - مصاباً بذات الرئة، وهو المرض الذي كان منتشرًا في تلك الأيام. كان نواف طويلاً نحيلًا أصفر اللون عميق الصوت ولعله أشبه إخوانه بأبيهم. وقبل أن يتوفى كان يجيد تركيب عربات الخشب التي تسير بعجلات الخردق (رولمان بلي السيارات)، وكنت أستاذجـر "العربية" بنصف قرش على أساس ربع ساعة، لكن أبناء خشروم وبخاصة نواف، كانوا كرماء مع الصبية من أمثالنا، فنظـل نـتـدحرج "بالعربية" ساعات طويلة، حتى نمل ونعيدها من تلقاء أنفسنا.

٥-

ذاك عن غرب شارع البارحة، فماذا عن شرقه؟... بابور المكنتست.

لطالما شغلتنـي - طفلاً - كلمة مكنتست mechanist حتى تعلمت قليلاً من الإنجليزية لأكتشف أنها تعني "الميكانيكي" أو مشغل الآلات. كانت صفة متأتية عن مهنة وتحولت إلى اسم للرجل وذريته. وبعد عهد الحارة توثقت علاقة شقيقي إميل بحفيده الدمث محمد خير (الذي توفي في أمريكا بالمرض الخبيث وهو في شرح الشباب). وكنت قد سألت محمد خير ذات يوم عن أصل اللقب الذي حمله جده، فأخبرني أنه لصق به من الإنجليز الذين عمل معهم لفترة.

لم أرَ طيلة عمري "بابور" طحين يُبرز آليات العمل فيه بالسحر الذي كان يعرضه لزبائنه بابور المكنست. لا أذكر الرجل إلا عجوزاً. ربما تجاوز- في حينه- السبعين أو الخامسة والسبعين. كان أنيقاً على الدوام، حتى وهو منهمك في لجة العمل، طويلاً، نحيلًا، قليل الكلام مهيب الطلعة رصينًا، معتمراً "البيرية" في أغلب الأحيان، وأحياناً قليلة قد تراه في الشارع وقد وضع فوق رأسه القلبق المهيب. لكتته تركية أو كردية، لا أدري، ولكن بلهجة مدنية (فلسطينية أو شامية، لا أذكر) وكان يتابع عمل البابور بنفسه مشرفاً على كل التفاصيل "الفنية" في آلية الطحن والتشغيل، أما الجانب التجاري فيتركه لأحد العاملين لديه من ذوي الشراويل المغبرة بالطحين والأقرب إلى لونه، ولم أره يوماً- حسب ذاكرتي - يتبادل الحديث مع أحد من الزبائن، كما أنني لم أره يوماً في الشارع برفقة أحد، على الرغم من أن جميع من عرفتهم يجزم أن الرجل كان تقياً ومثالياً في خلقه وتعامله مع المقربين إليه.

كان جل وقته واقفاً في مكان ما وراء وحدة الطحن المؤلفة من حجرين مستديرين فوق منصة ترتفع عن الأرضية بما لا يقل عن متر، ومن برميل من الزنكو مخروطي الشكل لإدخال الحبوب، وجراب في أسفل الحجرين يدفع بالطحين داخل الجوال، وثمة رجل أو أكثر يعتلي المنصة ويصب الحب في المخروط، وكانت الأمور تجري بدقة متناهية فيما يتعلق بترتيب الدور بين الزبائن.

وكنت أراقب المكنست يتابع السيور الجلدية الطويلة العجيبة وهي تدير أتراساً كثيرة ضخمة، لا تظهر للعيان في الواجهة الأمامية للبابور، ولكن تمكن مشاهدتها بهديرها وانتظامها إذا ما اقترب فضولي مثلي من موقع الرجل في الجزء الجنوبي من البابور. وقد أخبرني الصديق محمد خير قبيل سفره إلى أمريكا في مطلع الثمانينيات أن "مكائن" البابور ما زالت - في حينه - على حالها الجيد التي تركها جده، وتجري صيانتها وتشغيلها بين وقت وآخر دون أن تدار تجارياً لانقضاء زمن مؤسسها وتبدل الأحوال.

وكان للبابور يوم عطلة لا أذكر إن كان أسبوعياً أو موسمياً، وفي هذا اليوم بالذات كنت أراقب الشيخ المكنست وهو منهمك بعمله الدقيق العجيب في تنظيف حجري الطاحونة اللذين يجاوز قطر الواحد منهما المتر ونصف المتر، بعد أن يتم قلب الحجر العلوي وفرده فوق المنصة إلى جوار الحجر السفلي. كانت الأدوات تتألف من شاكوش صغير وإزميل دقيق يميله الرجل على حرفه أثناء عملية التنظيف ثم من فرشاة صغيرة. وتبدو لي صورة المكنست هذه - اليوم - وكأنه طبيب يعالج رضيعاً بكل حرص وعناية وربما بحنان. وكم كان الإيقاع جميلاً وناعماً حين تهوى ضربات الشاكوش على الإزميل على مكامن الطحين التي تسد مسامات وجه الحجر المستدير الضخم لاستعادة خشونته، والمكنست العجوز منكب على عمله، وقد جلس فوق كرسي صغير يعاين ويعالج ويدقق بنظارتها العجيبة، والبيرييه - دائماً - فوق رأسه.

وكان يجلو لي ساعة الغروب، وقد أغلق البابور أبوابه أن أجلس داخل جرن خشبي طولي مليء بالثقوب ومغلف من الداخل بطبقة قصديرية لامعة، وقد دقت مسامير "الطبعة" فوق غلاف القصدير بشكل هندسي لافت. وكان هذا الإناء يستعمل لغسل البرغل والعدس وخلاف ذلك للتخلص من الحبيبات الطينية التي قد تكون مختلطة مع حب المحصول. ولسبب ما يظل هذا الجرن الثمين قابلاً في مكانه على قارعة الطريق ليلاً نهاراً. كنت أجلس فيه مسنداً ظهري إلى جانب الجرن ووجهي باتجاه منزل علي نيازي التل، متأملاً ما يحيط به من شجر الزينة أو شجر اللوز والزيتون. وما أسعدها لحظة في رمضان إذ يقبل العم أحمد المنديل ومعه ابنه خالد (الإزّي) وهو يحمل مدفعه الصغير المكون - في الأساس - من ماسورة غليظة بطول الذراع ومعدات أخرى لا بد أنها من مستلزمات تلقيم البارود. وأحياناً كنت أرافق الركب، ولكن في معظم الأحيان أظل جالساً في مكاني، بانتظار دوي المدفع الذي كان يصل معظم أرجاء المدينة على ما أظن، وقدم المنديل وركبه مهرولين لتناول الإفطار.

لم ينته الحديث بعد عن البابور، فهناك الجزء الشرقي المطل على حلبة (سوق الخضار) الجملة القديمة. وقد خصصه المكنست خاناً، أو اصطبلًا للحمير التي كانت تحمل "الطحنات" من وإلى البابور. كان هذا الخان بمساحة مخزين كبيرين، ويتسع للعشرات من الدواب، التي يجري تأجيرها لمن يريد جلب طحنة من مكان ناءٍ، وكان المار يراها وهي تحاول إخراج رؤوسها

من بين ألواح الخشب، متباعدة المسافات، ربما بقصد الفضول للإطلاع على هذا العالم الذي يسجنها بعد يوم حافل بالجُلْد والشقاء، أو لاستنشاق النسيم العليل. ولكن هذا لا يعني أن الحان يضم جميع الحمير التي كانت تنضوي تحت الخدمة.

فهناك حمار العم رويق الأشهب الشهير. ورويق هو الشخصية التي تلي المكنت شهرة ومكانة وأهمية في دنيا البابور. كان يتخذ من حماره - إضافة إلى مهام الحمار "الرسمية" - وسيلة مواصلات من وإلى البيت أي من مطلع الفجر وحتى أوبته إلى بيته مع الغروب. وأثناء النهار كان رويق يجوب بحماره حواري إربد من الجهات الثلاث الشمال والجنوب والغرب، أما الجهة الشرقية فكانت مخصصة لشخص أذكر شكله ولا أذكر شيئاً عنه، وربما تداخلت منطقة هذا الأخير مع منطقة صنوه العامل في بابور الملقى الواقع على السفح الشمالي الغربي من تل إربد، وقد ظلت أطلال هذا البابور بحجارتها السوداء وأشلاء معداته المتوارثة عن العهد التركي شاخصة حتى وقت قريب، ويقع بابور "الملقي" هذا في أول شرع فوعرا - جنوباً - وكان يخدم في الأساس قرى شمال إربد.

وكان العم رويق ذو الشروال البلدي الكاكي كريم النفس عطوفاً على الصغار، ولا سيما أولئك الذين كانوا يصادقون ابنه أحمد، وكنت أحدهم بحكم زمالتنا في حجرة الصف. فكان يسمح للصغار باعتلاء الطحنة المحمولة على ظهر الحمار في حين يكتفي هو بالإمساك بالرسن راجلاً أمام

الدابة بخطوة أو أكثر، وأحيانا حين يكون الحمار بلا حمل، يسمح للصغار بامتطاء الدابة خلفه، وكان قدوم العم رويزق إلى أي بيت من بيوت الحي حدثاً سعيداً، ولكنه لم يكن كذلك في جميع الأحوال، بالنسبة لرويزق.

ذات يوم شاهدت العم أمام بيت أحد الجيران وقد أصعد حماره الأشهب الشهير فوق العتبة العريضة؛ فطلب مني الإمساك بالرسن، وكانت الطحنة ضخمة، فراح رويزق يعالجها بفنية محكمة كي تأخذ وضعها على ظهر الدابة، كان قد ثبت وضع الحمار بطريقة تجعل مؤخرته موجهة لوسط العم رويزق، وبلمح البصر تحولت رجل الحمار الخلفية إلى هراوة ضخمة وجدت طريقها إلى الموضع الحساس تحديداً. انبطح الرجل على الأرض يتلوى واضعاً كلتا يديه على موضع الضربه، كان يتلوى وهو يطلق آهات الآي آي (لغة الألم الإنساني حسب تعبير يوسف إدريس). ولم يلبث أن ملم أطرافه وراح يجلد الحمار بهراوة حقيقية هذه المرة، بهستيريا ما بعدها هستيريا، وكانت اللعنات تخلط الجلادات. لا تحتفظ الذاكرة إلا بصورة حمار واحد لرويزق هو هذا الجاني الأشهب والأشهر، ولعله الوحيد الذي استخدمه خلال تلك المرحلة. وقد عُمر رويزق، وأظنه قد جاوز التسعين حين سمعت عن وفاته من ابنه أحمد، الذي لم يعمر -بدوره- طويلاً بعد أبيه.

٥-

عند الزاوية الشرقية الجنوبية لشارع البارحة، حيث الانطلاق إلى شارع الهاشمي. كان يقع بيت السيدة بربارة سنجر، أم نجيب. وكان ابنها

نجيب وفؤاد قد حصلا منذ زمن لا أعيه على وكالة ماكينات "سنجر" العالمية لمنطقة إربد، وقد اتخذوا موقعاً في بناية يارد في قلب المدينة، وهي نفسها البناية التي احتل النادي العربي طابقها العلوي منذ تأسيسه في الثلاثينات وحتى انتقاله إلى شارع الجامعة (شفيق ارشيدات). ولا شك في أن وكالة سنجر كانت مقصد الخياطين والخياطات من ربات البيوت بخاصة سواء لامتلاك ماكينات الخياطة ذات الشهرة العالمية أو لصيانة الماكينات وشراء مستلزمات الخياطة من "كشتبانات" تحمي من وخز الإبر أثناء الخياطة اليدوية ومواسير الخيوط بكل ألوانها والإبر بشتى أشكالها وأطوالها وغير ذلك.

ولكن جزءاً من مهام الوكالة التجارية انتقل إلى بيت السيدة أم نجيب والدة صاحبي الوكالة؛ فكانت الأمهات يرسلن الصغار، وأنا واحد منهم، لشراء تلك المستلزمات من السيدة بربارة في منزلها ومنزل العائلة اختصاراً لمشقة الطريق للمحل الأساسي، كانت أم نجيب تخرج إلينا بعد طرق متواصل قد يستمر لدقائق على بابها ذي المطرقة النحاسية التي تتخذ شكل يد بشرية مضمومة الأصابع، وتسألنا عن غرضنا ثم تغلق الباب وتعود بعد قليل بالمطلوب.

كان يبدو في تعاملها للصغار الحذب والجدية، وترفض أن تتقاضى ثمن أي سلعة إلا إذا كانت النقود مطابقة تماماً للسعر المحدد، بمعنى أنها لا تقبل مثلاً عشرة قروش لعبة إبر ثمنها أربعة قروش ونصف ثم تعيد الباقي، بل ينبغي أن يكون مفهوماً: أحضر معك أربعة قروش ونصف فراطة، ولعلها

كانت معذورة في هذا. ما زلت أذكرها بفستانها الأبيض المورّد حسب ما كان سائداً في الخمسينيات، وحينما تكون في خارج البيت كنت ألاحظ أنها تضع منديلاً مخرماً أنيقاً يغطي جزءاً صغيراً من شعرها الخلفي.

ولا يفصل بين بيت بربرة سنجر وأشهر محل لبيع الهرايس على مستوى البلدة سوى بضعة دكاكين صغيرة، غرباً، وكانت هرايس خيرو تتربع فعلاً على عرش الحلويات البلدية في إربد، ولا أذكر أن كان له منافس في حياته. وكان الرجل، وقد أدركته وهو عجوز، ينكب بكل إخلاص على تصنيع تحفته أمام زبائنه المنتظرين، فيصب السمن البلدي برائحته الفواحة أمامهم، لم تكن المتعة بالشراء فقط، بل بطقوس إعداد "السدر"، وإرساله إلى الفرن المقابل مباشرة للمحل، وبعد نحو من ربع ساعة يعود السدر أو السدور من الفرن ليبدأ تشريب القطر، ثم يبدأ العم أبو محمد بتقطيع الهريسة المرصعة بحبات الفستق السوداني إلى أجزاء هندسية رائعة تعلو وجه الهريسة بعد أن اتخذ شكله الوردي موشحاً كذلك بجوز الهند المبشور. ثم يبدأ البيع. كانت وحدة الرطل ١٢ أوقية، هي المعمول بها، فهذا يشتري رطلا كاملاً، ويكون قد أحضر معه الإناء الملائم، وذلك نصف رطل، وآخر ثلاث أواق ورابع أوقية أو أقل، ليختفي محتوى السدور في أقل من ساعة، وكان الرجل سخياً وقنوعاً فيكتفي ببيع بضعة سدور، ثم يجلس على باب المحل يمازح الرائحين والجائين لشراء الهرايس وقد نفذت، وكم كنا نشعر بخيبة الأمل حين نكون ننتظر دورنا فيصيح أحد أبناء خيرو، ولعله علي (أبو تاج): نفقنا...

ولم يكن خيرو الوحيد في الشارع ممن يمتهن إعداد الهرايس وبيعها، بل إلى الغرب من محله، وبجوار بيت أبي راشد الحاملة ذي الطابقين الأنيق الجميل في تلك الأيام كان يقع محل "أبو رسول"، وربما كان هذا شقيقاً لخيرو، وعلى العموم فهذا ما كان شائعاً بيننا تلك الأيام.

وما زلت أذكر واقعة مع أبي رسول لعل دلالتها تحمل بعداً نموذجياً عن شقاوة صبيان الحارة إذ يقودهم من يكبرهم قليلاً؛ فذات ليلة استقر رأي الخبثاء من كبار فتية الحارة وزعمائهم، بعد طول نقاش في حلقة مستديرة فوق أرض خلاء، على أن يختتموا سهرتهم تلك الليلة "بتحلاية" هرايس. لم يفكر أحد بهرايس خيرو، لأن المحل يغلق ساعة "التنفيق" مع وقت الغروب، وبعد ذلك تكون الحركة النشطة من نصيب محل أبي رسول الرجل الطيب ضعيف البصر. لم أكن عضواً فاعلاً في العصابة تلك الليلة لصغر سني، ولكنني كنت أنخرط مع هؤلاء، ببساطة لأن شقيقي فريد، ويكبرني بما لا يقل عن خمس أو ست سنين كان أحد "القادة". وفجأة صاح أحدهم: "مين معاه قرش"، وتصادف أنني كنت الوحيد الذي يملك القرش المنشود، من هنا جاءت أهميتي في تلك اللحظة وبقي احتفاظي في ذاكرتي لتلك الواقعة. وكان حجم القرش الأحمر القديم يقل قليلاً عن حجم العشرة قروش (البريزة).

سحب الكبار القرش من جيبي قبل موافقتي، طبعاً بالتواطؤ مع شقيقي. وكان دينامو العملية في تلك الأيام شقيقي فريد وعبد الكريم المنديل وابن عمه محمود. وأحضر عبد الكريم ورقة قصدير كانت في الأصل غلافاً

داخلياً لعلبة سجائر، ثم ألبسها للقرش الأحمر، وفركه على رأسه، شبه الأقرع، فأصبح القرش بغلافه القصديري مطابقاً للبريزة شكلاً وربما حجماً. وُضعت "البريزة المزورة" أمام الجمع، وسجد جميع الكبار والصغار - دون استثناء - أمامها، وردد عبد الكريم بعض الأوردة والأدعية (وهذا كله قبل أن يتوب ويتحدث عن سرقات الآخرين أمام أمهاتهم من سيدات الحارة) ثم أوكلت مهمة التنفيذ إلى القادة من الجيل الأوسط، شقيقي إميل وخالد المنديل، وانطلقت الحيلة اللئيمة على الرجل الطيب أبي رسول. ووزن لهم على ما أذكر نصف رطل من الهريسة اللذيذة من النوع السميكة الطري المشبع بالسمن البلدي والقطر المعطر، والمغطاة بأنصاف حبات الفستق، مع "أهرامات" صغيرة من جوز الهند الأبيض المبشور. ولكن الرجل كان كريماً ومعتزاً مع الصغار خاصة، دون أن يضطروا لممارسة أساليبهم في الاحتيال.

فقد كان محل أبي رسول مقصداً لمن رام اللبن الرائب الأصيل الذي يحاكي زبدة الغنم بلونه وكثافته، وذات يوم أرسلت الوالدة شقيقتي فادية لشراء ربع رطل (أو ثلاث أواق) من سلعة أبي رسول النفيسة، هذه، وكانت أرضية محله تعلو مستوى الشارع ببضع درجات تسببت في تعثر شقيقتي واندلاق معظم ما اشترته على الدرجة، وحين التفت إليه الزبونة الصغيرة وقد اغرورقت عيناها بالدموع، سارع الرجل الشهم وأعاد ملء الإناء بما يساوي مادفعته. مازالت شقيقتي إلى اليوم تعيد سرد هذه الحكاية كلما استعادت ذكرياتها الحميمة في مدينتها الأثيرة.

واستمر محل أبي رسول في تقديم الألبان والهرايس حتى بعد عودتي إلى إربد وعملي في اليرموك، واعتدنا أنا والصدّيق محمد موسى الملكاوي أن نشترى منه كمية نأخذها معنا للبيت كلما مررنا من أمام المحل. وذات يوم أشرت على الصدّيق محمد أن نخرج إلى محل أبي رسول، فإذا به يقول: "مات أمس، وقد قرأت نعيه مكتوباً على ورقة علقت على باب المحل."

-٦-

ربما كان جيلي آخر جيل في إربد أدرك في طفولته المبكرة ساحة الأفراح. ما زالت مشاهد الأفراح الليلية، حيث الساحة تعج بعشرات اللوكسات، ماثلة في ذاكرتي، ولكن دون تفصيلات واضحة أو مترابطة. ولكن الأفراح التي أذكرها جيداً هي الأفراح التي كانت تقام في أقرب أرض خلاء من بيت العريس، أو في الساحات الواسعة لبيوت أصحاب الفرح. كان مجرد انطلاق صوت "الدربكة" أو المزمار وانعقاد حلقة الدبكة ينطوي على دعوة مباشرة للجيران ولعابري السبيل للمشاركة ولو بالوقوف حول الحلقة والتصفيق، على الأقل، هذا إذا شُغلت كل الكراسي. وثمة عازف "مَجُوز" أسمر اللون كان معروفاً على مستوى إربد باسم آله التي يُحيي بها معظم أفراح النواحي الغربية من البلدة هو "اليرغول".

وكان "اليرغول" (الرجل) يشكل عصب الحفل الليلي بنفخه في آله أحياناً بطريقة لم أسمع في حياتي ما يضاهيها براعة أو يماثلها روعة في التنغيم والانتقال من لحن لآخر. لكن الأجل من هذا كان هيئته وهو يعزف؛ إذ كان

يملاً شدقيه بالهواء فيتحول وجهه الأسمر المتعرق إلى ما يشبه الكرة المنفوخة بعينين جاحظتين يتعاضم جحوظهما مع نفخه الهواء بالمزمار، ويتساقق النفخ مع حركات الطرب التي يوحى بها تحريك رأسه يميناً وشمالاً وحركات أصابعه الرشيقة على ثقبوب "المجوز" إضافة إلى تمايله، بقامته القصيرة، على الجانبين وخلفاً وقداماً، وأحياناً ركوعه على ركبتيه من شدة "الاندماج" أمام العريس "المصمود" في عز ليالي الصيف ببذلة الصوف الإنجليزي (الهلد)؛ إذ لم يكن "الترجال" قد ظهر بعد. وقد نسيت اسم اليرغول الحقيقي وسألت كثيرين عنه، فلم أظفر سوى (بأبي زهدي) مع تأكيد معظم من سألت للقبه بوصفه اسماً شائعاً ووحيداً له، وقد سمعت أنه جاء من غور فلسطين منذ زمن النكبة وأنه يعود لأصول مصرية.

ومع أن اللوكسات كانت وسيلة الإنارة الرئيسية في البيوت والمناسبات، فقد بدأنا نشهد، بعد قدوم "كهرباء الألمان" في الستينيات، حبال المصابيح الكهربائية بطول عشرات الأمتار، ويضم الحبل الواحد عشرات اللمبات تحيط بحلقات الدبكة وترفرف فوق رؤوس المحتفلين. وما زال عالماً في الذاكرة بعض مشاهد عرس (ابن أمطانس) (هكذا كانت الناس تردد) الذي انعقد في الساحة الواقعة شمال مستشفى الأميرة بسمة، وأقيم فيها - بعد ذلك - بناء العيادات الخارجية. لقد استمر العرس ما يقرب من عشر ليالٍ، ثلاث قبل العرس وسبع بعد عقد القران. كان يشارك في العرس، وأمثاله بطبيعة الحال، حشد كبير من سكان منطقتي أبي اللجا وأطراف البارحة

الشرقية رجالاً ونساءً، كباراً وصغاراً، وتبدأ حلقات الدبكة والغناء بعد الغروب وحتى منتصف الليل ليس قبل، ولا بد من أن يتخلل الحفل ضيافة من نوع ما، أقلها تقديم المرطبات والشاي والقهوة. أما نجم الليالي في حينها فقد كان يوسف سليمان حداد (أبا باسم)، وهو من يطلق إشارة البدء بأغنية: "يا ليالي ملاح يا ليالي ملاح" لكارم محمود. كم كان رائعاً ذلك الرجل، تراه دائماً ودوداً دائماً الابتسام، مديد القامة وسيم الملامح تذكر ملامح وجهه وشاربه بكمال الشناوي (هذه هي صورته في ذهني) ثم يأتي أحد مطربي الحارة ليشدو بأغنية أخرى لكارم محمود: "سمرا يا سمرا". وثمة ركن غير بعيد للسيدات قد تسمع فيه على شكل كورال نسائي يشدو به: "على بلد المحبوب وديني ...". أو بإحدى الأغاني الشعبية المتوارثة... حسب الطبيعة الاجتماعية لأصحاب الفرع.

أما ساحة الأفراح فقد كانت تشهد حلقات الدبكة ليلاً، لا أذكر أيام زخمها، ولكن الومضات المنطبعة في الذاكرة تعود إلى الاحتفالات التي كانت الساحة تشهدها أيام الأعياد.

الأعياد ... كانت "المراجيح" هي التجلي الأوضح، ولعلها الأجل في الشوارع للأعياد. وكانت تنصب في كل الأعياد: الفطر، والأضحى، وفي الحي الغربي أي منطقة كرم علي نيازي وامتداداتها (وما اقتطع في الأصل من الكرم) كانت تنصب في عيدي الميلاد والقيامة. وأشهر أصحاب المراجيح (غرب إربد) كان علي الحداد المعروف بعلي "الطرمة". كان علي يترك مهنته

الحداثة أيام الأعياد ليتفرغ للمراجيح، ربما لأن العائد أكبر، أو لأنه بطبيعته يميل إلى الفرح والاحتفال، ومع أنه يبدو جاداً صارماً حين تلقاه في الأيام العادية، فإنه كان يتخلى عن وقاره، وهو يشرف ويشارك في إدارة ما ينصبه من المراجيح، وكان يردد مع الصغار وهو يدفع بهم الأرجوحة في الاتجاهين:

علي ما مات لولا.. خلف بنات لولا.. بناتو سود لولا .. مثل القروود لولا

وكانت سمرة علي تشجعنا على الاعتقاد بأن الأنشودة قيلت فيه، وأن علي في الأنشودة هو نفسه علي الذي يطوح بنا الأرجوحة. هل كان علي الطرمة هو نفسه أبو البنات في الأنشودة؟ لعل هذا أقرب إلى الوهم؛ فعلي لم يتزوج إلا بعد أن انقضت تلك الأيام، ربما بأكثر من عشر سنين.

-٧-

ذات يوم أوائل الخمسينيات فتحنا أعيننا على عملية درّس الجزء الشمالي من المقبرة الغربية (القديمة) التي كانت تقع في الطرف الغربي لإربد القديمة، في حين ظل الجزء الجنوبي من المقبرة شاخصاً بشواهد القبور حتى عهد قريب، وأقيمت مكان المقبرة حلبة الجملة. وفي أحد الأيام عاد شقيقي إميل إلى منزلنا (وكان مستأجراً من آل منديل في شارع البارحة، إلى الغرب قليلاً من فرن أبي سر كيس) يحمل جمجمة سليمة، وكان الأمر المهم أنها كانت بسن ذهبية. أثار منظر الجمجمة الفزع في البيت، وعلا الصراخ ... وغاب عن الذاكرة - اليوم - مصير الجمجمة والسن الذهبية.

ومن الصور الباقية في الذاكرة عن تلك المرحلة، منزل أبي وحيد الحلبي وصاحبه. كان يقع إلى الغرب قليلاً من حسبة الجملة التي أقيمت محل المقبرة (وقد هدمت بدورها وأقيم مكانها مجمع اليرموك التجاري، وتملكه الأوقاف) ... كان أبو وحيد من تجار إربد الشوام ممن قدموا إلى البلدة مع ازدهار الحركة التجارية فيها مطلع القرن العشرين. اشتهر الرجل بورعه وترفعه ... وكان صديقاً للجميع، وجسمه يميل إلى البدانة ويرتدي، دوماً، الملابس الدمشقية القديمة ولا سيما "الدماية" السوداء أو البنية، وقد ظل يعمل بكل نشاط حتى الثمانينيات، ربما، يبيع القماش في دكانه المنفردة الكبيرة - نسبياً - والمقامة في أرض شبه خلاء من الجهات الأربع في أول شارع الهاشمي من الجهة الغربية.

أما بيته، فقد كان مرتفعاً عن الشارع - الذي يحمل اسم خالد بن الوليد اليوم - بخمس أو ست درجات، على الطراز الدمشقي بطبيعة الحال، وكنا كل صباح تقريباً نراقب ابنه الشاب وحيد الضابط في الجيش، وهو يخرج إلى عمله، إلى أين؟ لا أدري. وكم تمنى شباب إربد أن يتخذوا - حين يكبرون - مظهر الضابط وحيد الحلبي وهو يسير في الشارع، بكل تواضع ببزته المهيبة، وقد سمعت الناس يتهامسون بأن وحيداً أصبح عقيداً بشريط أحمر يحيط بالكسكيت.

في المنطقة نفسها كان يقع الدرج الكبير، ويربط بين شارعي خالد بن الوليد (وهو الشارع الذي يصل مستشفى الأميرة بسمة بقلب البلدة، شرقاً)

وشارع فلسطين جنوباً، وإلى الجنوب قليلاً كانت تقع واحدة من أشهر البقالات لدى أبناء جيلي: "دكانة" إبراهيم اللمع. أدركته كبيراً، وكان يتناوب العمل مع السيدة زوجته، وكانت من جيله ووجهها موشى بالوشم الأخضر الجميل. أما زوجها فكان دائماً حاسر الرأس كبيره، بدماية (مزنوك) كحلية أو بنية. بقالته كانت تباع كل شيء للصغار مع توفير احتياجات المنازل المجاورة من أرز وسكر وطحين، وبعض المأكولات. ولكنني لا أنسى منظر "المرتبانات" الزجاجية (البرطمانات بلغة أهل مصر) التي تصدر "كاونتر" المحل، وكانت تحوي أنواعاً من الملابس والمخشم والفيصيلية إضافة إلى مرتبان هنا للقضامة، وآخر هناك لبزر البطيخ وثالث لبزر القرع (الأبيض) وأمام البائع وعاء كرتوني للكعكبان. وإلى شمال العم إبراهيم أو الجالس في مكان البائع، لوحة معلقة في حدود المتر طويلاً وعرضاً، وقد ألصقت عليها صور الممثلين، العرب والعالمين. وكانت هذه الصور توضع مع نوع من اللبان طريقة ناجعة لتسويقه، وأحياناً نشري العبوة فقط لأجل الصورة ونتخلص من اللبان. ظلت هذه اللوحة قائمة إلى أن أغلقت دكان العم إبراهيم بعد وفاته، وكان شائعاً أن الزوجين لم يرزقا بذرية.



وإلى الغرب قليلاً من دكان إبراهيم اللمع تقع بيوت بيوت قديمة تقطنها أسر من عشائر إربد المعروفة. على أن الأشهر من بين قاطني تلك المنطقة بالنسبة لي، كان أبا موسى جلق وأبناءه. كان هذا مزارعاً عتيقاً على ما

يبدو قبل أن يتحول إلى مهنة الطراشة بالجير الأبيض (الشيد). قصير القامة ضئيل الجسم غليظ الصوت، يروح ويجيء "في حاله" كما يقولون، وكان يظهر في كثير من الأحيان حاسر الرأس وقد تلطخت يداه وثيابه بالجير، وأحياناً تراه "آخر ألصطة" مرتدياً عباءته وواضعاً على رأسه كوفية ناصعة البياض وعقلاً غليظاً شأنه شأن أكبر وجهاء المدينة. وأذكر من أبنائه نجله الأكبر موسى، والأصغر ولم يكن معروفاً إلا بلقبه: "الحبوبة". وكان أشهر من نار على علم في الأحياء الغربية للبلدة.

أتذكر موسى وهو يعمل نادلاً في مقهى المنشية، وكان من أنشط العاملين فيها، يعرفه كبار القوم من الزبائن وصغارهم، ولم يجد الجميع أي حرج في مناداته بـ "جلق" دون أن يكثرث؛ فيحضر لهذا شيشة (أرجيلة) ويحضر هؤلاء طلباتهم الأخرى من شاي وقهوة وكاكاو ويانسون وكازوز وقينر (تنطق عادة إينر)، وغير ذلك مما عرف به هذا المقهى الراقى جداً بمقاييس تلك الأيام. وكان هذا المشروب الساخن (القينر) مكوناً من الماء المغلي بالقرفة ثم يوضع في الكأس مع مِلء ملعقة كبيرة من الجوز المبروش، ويقدم في الشتاء فقط، و كان الزبائن يتندرون بطريقة نطق موسى للقينر، بصوته الأَجَش.

ذات أمسية - وهذا في أواسط الستينات على ما أذكر - لاحظت مع بعض الجالسين أن موسى جلق يتخذ مكانه زبوناً بين الجالسين، وقد استأثر بطاولة، وحده، وكان في كامل الهيئة، من بدلة كحلية (طبعاً كالحلة اللون)

وربطة عنق حمراء تحاكي ربطة "ترامب" في أيامنا هذه، وحطة (كوفية) بيضاء، على طريقة الوجهاء، وعقال مائل بهيئة رصينة، ونظارات سوداء كبيرة تغطي العينين والحاجبين وأجزاء أخرى من الوجه، وفوق كل هذا تقطية حادة على بقية ما ظهر من وجهه لا يرسمها إلا كبار المسؤولين، ثم صفق يديه وأشار لأحد العاملين من زملائه "القدامى" بلهجة أمرة أن أحضر شيشه، وتابعنا طلباته من قهوة وشاي وخلاف ذلك. وسألنا أحد الندلاء عن القصة، فذكر أن موسى ترك العمل بالأمس لحناقة مع زميل آخر انحاز فيها صاحب المقهى للزميل، وها هو الآن يمارس دور الزبون الأمر الناهي، وقال لنا النادل إنه يشفط أنفاس الأرجيلة منذ ساعات وقد طلب تجديد النفس عدة مرات ... وفجأة سمعنا صوته يجأر متجها إلى أحد الندلاء: "وين الإينر ولّه؟".

أما شقيقه الآخر الحبوبة، وكان له - بين الناس - من لقبه نصيب كبير، فقد ظل يعمل لسنوات طويلة في أفران الحارة يحضر الأرغفة عجينا من البيوت إلى المخبز. وكان يصيح بأعلى صوته في الصباح أمام عتبة البيت: "العجنة"، ويزعق بأعلى صوته قبيل الظهر: "الحبزة" ... وكان ظريفا دائما التبسط مع الصغار وربات البيوت ممن يأخذن منهن كتل العجين في الصباح ليعيدها أرغفة شهية قبل الظهر. وحينما أسأله عن أحد أصدقائه من شلة الحارة يقول: "عند بيت خالته"، أي في السجن، وذات يوم سمعته يردد، بصوته الأجش هو الآخر: "شحنوه ... شحنوه ... ودوه ع بيت خالته"،

وفهمت أنه يعني أحد بلطجية الحارة (من أبناء جادو) قبضت عليه الشرطة وأرسلته إلى السجن على ظهر التل.

-٩-

كان امتداد شارع البارحة (شرقاً) من زاوية بربرة سنجر، وهي الزاوية التي يجاورها غرباً محل خيرو أبي رسول للهريسة، سوقاً متكاملًا بمعنى الكلمة، ولا سيما عطفة الزاوية يميناً ثم شرقاً مع بدء الشارع الهاشمي، حيث فرن أبي رفعت سركيس ويقابله محل أسعد شرار لشراء وبيع السلاح الناري وتصليحه وصيانتة، ويجاوره مكتبة المدارس لصاحبها الحاج رضا غنام، وفي الجهة المقابلة وقليلًا إلى الشرق كان يقع صالون أبي حامد الحلاق.

أما زاوية بربرة سنجر فغرباً، فقد كان هناك العديد من أفران الخبز (سركيس وشيخو وطخشون وغيرهم)، كان هناك محلات للسمانة مثل محل أنيس أيوب ولعله ما زال قائماً إلى يومنا هذا في نفس المنطقة، ومحال أخرى لبيع الخضار، وأشهرها محل أبي زهير، وكان هذا ضخم الجثة يرتدي على الدوام قنبازا ويلف رأسه بسلك أزرق (حطة أو شورة أو كوفية مع وجود بعض الفوارق بين هذه المفردات) أقول سلك أزرق مع أن لونه أسود مع أبيض، ولكن هكذا اصطلاح القوم، ربما تميزاً له عن السلك الأسود الذي كان يضعه سكان جبل العرب وما جاوره من قرى حوران. وكان محل أبي زهير مرتباً بعناية ويحرص صاحبه على أن يعرض فيه أجود أنواع الخضار والفواكه، لذا، تجد المحل دائماً، وفي وقت الضحى تحديداً غاصاً بالسيدات بلباسهن المدني

الأنيق الذي يكشف أجزاء مهمة من الأذرع والسيقان. وقد كان من أسعد اللحظات أن "نتلطع"، نحن الصبية الخبثاء "المتلطعين" كذلك على أعتاب المراهقة، أمام المحل ونسترق النظر إلى سيقان السيدات وهن ينحن قليلاً لانتقاء الخضار والفواكه.

كانت تلك المنطقة تضم عدداً من البيوت المهمة، بل كانت بيوتاً معروفة لكل أهالي البلدة، وظلت علامات تساعد في الوصول إلى العناوين، فيقال مثلاً قرب بيت أبي حسن النابلسي أو بيوت آل الجوده.

ومن جملة هذه البيوت، إلى الشرق قليلاً، كان بيت صالح المصطفى (والد عرار) الذي أصبح الآن متحفاً. وبيت علي خلقي باشا، والمنزل الذي كان يقطن فيه الشاعر الرقيق جميل دياب الذي عمل مدرساً للعربية في ثانوية إربد، وقد ظل تلاميذه من أساتذتنا وغيرهم يروون الأساطير عن عبقرية هذا الرجل في اللغة العربية والخطابة وطلاقة اللسان وقرض الشعر في شتى المحافل والمناسبات التي كانت تشهدها إربد، وللأسف يذكر الباحثون وعلى رأسهم عيسى الناعوري أن أغلب شعره ضاع بسبب الإهمال. وثمة بيت إلى جنوب زاوية بربرة، ما زال إلى اليوم تحفة معمارية تحتاج فقط للصيانة والتجديد، كان يقطن فيه، الأستاذ حنا الربضي مدرس اللغة العربية الشهير، ويجاوره المعلم الأهم بالنسبة لأهل المنطقة وهو بابور الملقى، وقد أدركته في المرحلة الأخيرة من المرحلة الأخيرة من تشغيله، وبقي سنوات طويلة أطلالاً تشهد بمرحلة غابرة من مجد المجتمع الزراعي، إلى أن اختفت معالمه الآن.

أما بيوت آل الصباغ ذات الطابع الدمشقي الشهير (النافورة في وسط الحوش) في أول شارع الهاشمي فما زالت قائمة إلى اليوم، ولا أعرف ما مصير الحوش والنافورة، ولكن بوابة المنزل تحفة فنية حقاً جارت عليها السنون، وقد ظلت المطرقة على شكل اليد البشرية في مكانها على الباب حتى عهد قريب جداً، قبل أن يتم استبدال باب من الحديد بالباب الخشبي الأصلي ذي النقوش الفنية.

وما زال العديد من معالم تلك البيوت في تلك المنطقة، قائماً إلى اليوم، ونحمد لله أن طاش معول الهدم عن بيوت ذات طراز معماري شرقي رفيع؛ ومما نجا منها نذكر منزل أبي حسن النابلسي المكون من فناء على الطريقة الشامية وطابقين ودرج ينفتح على الفناء الداخلي، وهو الآن مركز ثقافي تابع لبلدية إربد.

وكذلك بيت آل الجودة وهو من الطراز نفسه، وإن جارت عليه عاديّات الزمان. وإذا خرجنا من المنطقة قليلاً نحو الشرق؛ فنحن في الجزء الأوسط (والأهم) من الشارع الهاشمي حيث فندق غازي بطوابقه الثلاثة وطرازه المعماري الفريد، والأهم بالحكايات المرتبطة به عن مبيت بعض الملوك والزعماء فيه أثناء انتقالهم من عمان أو الشام إلى القدس أو مصر. وقد تناهى إلى سمعي أن البلدية أنقذته مشكورة من الهدم في اللحظة الأخيرة، ناهيك عن مبنى المحكمة القديم ودائرة الإجراء حيث شهد هذا المبنى - كما يقال - بعض معامع عرار مع المراءين، وحين تقف في هذه المنطقة تشعر حقاً بأنك في جزء

من مدينة كانت تسعى حقا لأن تلتحق بركب المدن العربية بالنمط الذي كانت عليه في الثلاثينيات والأربعينيات.

- ١٠ -

يظل الجزء الأوسط من شارع الهاشمي الممتد من بداية "نزلة" (أو طلوع) التل ثم غرباً حتى فرن سر كيس ليلاً ونهاراً يمور بالحياة. وتشتد الحركة ليلاً حين تضاء اللوكسات في المحلات وقد راح الناس يتسوقون أو يتنزهون في حين كان الصغار من أمثالي إما برفقة آبائهم أو مع الكبار من إخوانهم أو يُسلون أنفسهم بالتسكع أمام المحلات فرادى أو جماعات. لقد جار "التنظيم" على هذه المنطقة، وشط معول الهدم فيها حتى ضاعت ملامح منطقة تجارية ترجع بتاريخها إلى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، أما شوارعها المرصوفة بالحجارة السوداء الملساء فالله أعلم إلى أي عهد تعود وكم هو حجم المأساة التراثية من جراء اقتلاعها ومحابة "الزفت" على حسابها.

أما ساحة الجامع الكبير (الشرقي) فقد كانت تشهد أكبر المهرجانات نهاراً وليلاً للبيع والشراء. وذات يوم في الخميسيات المبكرة شاهدت بنفسني عشرات الغزلان النافقة بفعل الصيد الجائر تجري المنادة على بيعها في الساحة وقد كدست في "بكم" من نوع بدفورد، وراح نفر ينادي على الذبيحة الغزلانية بستين قرشاً فحسب.

وفي الأماسي؛ فإن المنظر يكاد يقترب من أحد مشاهد السينما الهوليودية عن المدن الشرقية إذ تصور سوقاً من أسواق الشرق. العربات المحملة بشتى أنواع الخضار والفاكهة وقد وضع لوكس (أبوكيس) فوق كل عربة، وراح الباعة المتزاحمون ينادون على سلعهم بأصوات متداخلة، ولكنها ترن في أذني اليوم متناغمة وموزعة توزيعاً أوركسترياً.

نعم لقد اختفت منطقة السوق كما عهدتها في إربد، وحلت محلها مبانٍ حديثة، وأزيل العديد من الأدراج التي كانت تختصر المسافات بين مناطق البلدة؛ فمن كان مثلاً في شارع الهاشمي، يجد نفسه بمجهود قليل، مستعينا بسلوك الدرج القائم حالياً، في ساحة قيادة المنطقة (أو مديرية الشرطة حالياً). ولكن للدرج الغربي، الذي يصل بين شارعي خالد بن الوليد وفلسطين ذكرى وأي ذكرى... لقد أزيل الدرج الآن، وطمرت صفوفه الصاعدة أو النازلة، المشادة من الحجر الأسود... طمرت بالإسفلت، وتحول الدرج التاريخي إلى نزلة أو شارع، لا أظن أنه حل أي مشكلة مرورية، كان هذا أوسع أدراج البلدة - على ما أظن - وكنت صيفاً أراقب في الصباح الباكر أفواج الباعة القادمين من القرى على ظهور الحمير، وقد حملوا بضاعتهم من التين والعنب والصبر والرمان والفقوس والشمام وزقط البطيخ وغير ذلك بالجولات أو بصفائح التنك وخلافها متجهين إلى حسبة الجملة الواقعة شرق الدرج بخطوات، وكانت الحمير تصعد الدرج بحرفية مذهلة وقد اعتلاها "الفارس"، وتنزل عنه بحرفية أشد وأحرص.

وفي الجهة العلوية من الدرج كان بيت "أبو الشباب" وخلفته- للمفارقة- كلها في ذلك الحين، وعلى ما أذكر، من البنات. كان ميكانيكي سيارات، يذهب إلى ورشته الصغيرة في الصباح الباكر ولا يعود منها إلا مع غروب الشمس، وكان نزقاً دائم التدمير والشكوى من الحارة وأهلها لسبب أو دون سبب. في نحو الأربعين من عمره، وقد يسرت له مهنته على ما يبدو سيارة قديمة لعلها من الفوج الأول الذي قدمه فورد في منتصف العشرينيات للطبقة الوسطى من الأمريكيين بسعر مئة دولار، ولكن هذا الطراز أصبح عندنا من موروثات الطبقة الكادحة التي يتزعمها في حارتنا-بلا منازع- أبو الشباب (أقول هذا بوعي اليوم بطبيعة الحال) وكان هذا يشغل محركها بالمانويل الأمامي كل صباح، فتعمل بعد لأي ليهلل الصبية الحاضرون على الواقعة بعد أن يقطعوا-بوقفهم شبه اليومية- رحلتهم نحو المدرسة، أما يوم الجمعة فقد كان الرجل يمضيه مشتبكاً مع أجزاء السيارة وأمعائها قطعة قطعة وهو يحدث هذه الأجزاء فيشتت بأقذع الألفاظ هذه القطعة، ويحيي تلك التي تطاوعه بقوله "يا عيني عليكى.. والله بتستاهلي بوسة". وقد اعتاد أبو الشباب أن يوقف سيارته كالعادة أمام بيته الملاصق لبيت جاره وهو من آل أبي السميد، ولم يكن بالسيارة بطبيعة الحال "هاندبريك" أو كابح خلفي يعمل، فكان يعتمد في ركنها على الغيار وعلى إسناد الحجارة أمام العجلات.

وفي يوم من الأيام جاء خالد المنديل برفقة شقيقي إميل وانتزعا أحد الأحجار من تحت أحد العجلات ... وكنت شاهداً مباشراً على الواقعة إذ

بدأت السيارة تمشي الهوينى منحدرة ببطء في بداية الأمر ثم أخذت تندفع بقوة نحو الدرج، وكان مسارها الأول يوحى بأنها اتخذت من منتصف الدرج العلوي مسرباً نحو شارع فلسطين لتقع كارثة محققة، ولكن شيئاً ما حدث، عناية الله على الأرجح، جعلت السيارة تميل يميناً نحو الغرب ويرتطم جزء من مقدمتها بجدار المنزل الواقع مباشرة على الشارع أعلى الدرج، وكان جدار هذا البيت موزعاً بين حافة الدرج العلوية وبدايته... مرت الواقعة بسلام مع عدم حصول أي أذى لأي طرف: البشر والحجر والسيارة، واندفع أبو الشباب بهستريا بشيابه الداخلية (الفانيلا والشورت الملطخين بالشحم) وهو يصرخ الله أكبر.. مين ابن ... الي شال الحجر". ولم تسلم يومها أم أو أخت في الحارة من شتائم أبي الشباب التي أخذ يطلقها بصوت فاجر أخذ يخفت شيئاً فشيئاً، ولا سيما بعد أن عاين السيارة وتيقن من لطف من تطاول على عليائه.

- ١١ -

وأشهر الأدراج القائمة إلى اليوم، فهو الذي يربط بين شارع الهاشمي وسراي إربد، وكان طريقاً مختصراً للقادمين من غرب إربد، شارع البارحة بشكل خاص، والمتجهين إلى بعض الأسواق والمواضع المهمة في البلدة، اختصاراً للمرور من شارع حكما من مدخله الجنوبي المطل على الميدان.

كان هذا الدرج يقود إلى بقايا القلعة العثمانية القديمة التي أزيلت وحل محلها المباني الرسمية الحديثة القائمة إلى اليوم، وهي مباني ذات صبغة أمنية. وتقع في الجزء الغربي المعمور من التل، في حين احتل مبنى البلدية

(القديم والمجدد) الجزء الجنوبي الشرقي المحاذي للدرج، ثم ثانوية الصباح، وكذلك مبنى السراي-المتحف- الذي ما زال قائماً إلى اليوم بصورته التي كان عليها منذ ما يزيد على قرن ونصف، وخلفه مباشرة تقع مباني مدرسة الصناعة (وصفي التل).

هذه المباني ما زالت ماثلة إلى اليوم، لن أضيف للقارئ ما يمكن أن يكون جديداً. ولكن الألم يحز في النفس من ضياع المدرج التاريخي المقام على ظهر التل القديم، وكان يعرف في أيام الصبا في الخمسينيات بالبركة الفوقا. والعديد من صفوف المدرج بحجارتها السوداء يظهر أيام الصيف، بل كنا ننزل بوساطة هذا المدرج حتى قاع البركة، ولعل حظ هذا المدرج قد جعله يفلت من مقالع الجرافات، وعسى أن يكون رابضاً تحت المنشآت التي أقيمت فوقه انتظاراً لليوم الذي تتكشف فيه الكنوز الرابضة في جوف هذا التل.

والإشارة "للبركة الفوقا" من شأنه أن يقود للحديث عن "البركة التحتا" الرومانية المكتملة، وأعتقد أن هذا البركة الكبيرة، التي طالما سبحنا فيها أيام الربيع وجزءاً كبيراً من أيام الصيف رابضة تحت إسفلت ساحة موقف السيارات في مجمع الأغوار القديم. ولعله يأتي يوم يتم الكشف فيها عن حجارتها الوردية وتشكيلها الهندسي البديع... إنها كنز أثري مدفون لا أقل.

ونحن بصدد الحديث عن المعالم التاريخية والمتزايدة الضائعة في إربد... أسوق هذه الذكرى. كنت في القاهرة في أوائل السبعينيات حين

سمعت ذات يوم راديو لندن يتحدث عن اكتشاف أثري مهم في مدينة إربد شمال الأردن. وحين عدت في الإجازة كان أول استفساراتي عن هذا الاكتشاف الذي جعل محطة راديو عالمية تتحدث عنه؛ فهمت أنه تحت محلات غرير وأبي حامد الحلاق في الجزء المحاذي لمبنى البلدية (القديم) ذهبت وتفرجت بنفسي على مقبرة الأميرة الصغيرة، وعلى بوابتها الحجرية (باب حَلَس) كما كنا ندعو هذا النوع من الأبواب، ورأيت التابوت الحجري الصغير، ولحسن الحظ فإن هذا التابوت ما زال من معروضات متحف إربد في السراي، ثم أعيد طمر الأثر لعشر سنوات أو أكثر حتى جرى اقتلاعه بالجرافات، وأقيمت المنشآت الجديدة فوقه، وأذكر أنني سألت أحد المسؤولين في إربد، وكنت قد بدأت عملي منذ مدة، في جامعة اليرموك، عن مصير هذا الموقع الأثري، فرد ضاحكاً، ولعله مستهزئاً: "عن أية آثار تتحدث هنا يا دكتور؟".

هذا عن المواقع التاريخية، أما عن المواقع التراثية فحدث ولا حرج عن المجازر التراثية التي شهدتها إربد في هذا الشأن، أسواقها التجارية السبعة، شوارعها بدكاكينها الضيقة التي تستطيع أن تصور فيها ألف مسلسل ومسلسل من مثل "باب الحارة". الخانات؛ مثل خان حدو في شارع الهاشمي وخان أبي صياح في سوق النحاسين (الفروانية)، وإلى الشرق قليلاً سوق الفحم. منزل الملك عبد الله، بل مَرَبَعه، حيث كان يمضي فيه فصل الربيع، وظلت الملكة مصباح تقيم فيه حتى الأيام الأخيرة من حياتها، ثم تحول في يوم

من الأيام إلى دائرة المياه (وكانت تتبع البلدية) إلى أن أصبح مقراً لمكتبة إربد، قبل أن يطيح به معول الهدم طمعاً في قطعة الأرض التي أضحت الآن مجموعة من الدكاكين على شكل علب كبريت واقفة، ونحمد الله أن القائمين على بناء الدكاكين استعملوا الحجر الأحمر، وهو نفس اللون الذي كانت عليه بناء هذا المنزل الأنيق (ولا نقول القصر) ولعل هذا الاستعمال جاء اختصاراً للنفقات بإعادة تدوير بعض حجارة المبنى القديم.

وما دمنّا في المباني القديمة فليت الاهتمام يمتد لإنقاذ بعض المباني التي قد تختفي في طرفة عين ما دام الاهتمام الرسمي غائباً عنها؛ منزل الشبار العجيب شرق مدينة إربد. إنه تحفة معمارية حقاً لا ينقصها سوى الصيانة والتجديد، ومبنى بابور مطر العبيد في قلب إربد، وكم تمنيت أن يتحول هذا المبنى ذو السقف المعقود من القُصيب إلى مقهى تراثي ما أحوج مثقفي المدينة إلى أمثاله، وكذلك المنزل التراثي الذي سكنه ذات يوم الأستاذ حنا الربضي ويقع في شمال السفح الغربي للتل. طبعاً هناك عشرات، وربما مئات البيوت التي يمكن بعثها عمرانياً من جديد، والحديث عنها له أصحابه، وليس لحالم رومانسي مثلي لا يحمل في جعبته أكثر من انطباعات عابرة، وذكريات غابرة.

وسط البلد

-١-

بالقرب من الباب الغربي لمحل الشيخ سليمان (الساعاتي)، كان يجلس الشيخ خليل مؤذن الجامع الكبير، وعرف عنه عزة النفس، لا يقبل من أحد إحساناً فوق ما يستحق من عمله؛ لكنه يقوم بمهمة أخرى خمس مرات في اليوم: رفع الأذان. كان إسكافياً يضع أدواته البسيطة أمامه على الزاوية، وفي كثير من الأحيان كنت ألجأ إليه لإصلاح حذاء، أو لوضع "نص نعل" أو قطب فتق في الحذاء ... إلخ. وكان زاهداً يتقاضى أقل الأتعاب. كم كنا نتأثر بصوته، ولا سيما قبل تركيب السماعات حين نسمعه مباشرة، وهو يرفع الأذان، أو يرتل بعض الآيات، قبل رفعه. ولقد عمر هذا الشيخ، وظل مواظباً على مهمته الجليلة، وكنت أسمع آثار الزمن في نبرات صوته، حتى وقت متأخر.

أما سعيد مؤذن الجامع الغربي فهو شخصية مختلفة. مرح كثير التعليقات على كل من حوله وما حوله، اشتهر ببيع الليمون الحلو، وهو سلعة لم نعد نراها في أيامنا هذه، تجمع بين شكل الليمون وطعم الليمونادة. كان موقعه الدائم في المساحة الفاصلة بين محل أبي وحيد أبي الحلبي وأسعد شرار. وهناك يتجمع عدد من المتسولين، وكان أشهرهم سيدة متسولة عجوز ربما كانت في الثمانين، وكان نداؤها الدائم للمحسنين: "يا قاضي الحاجات يا سامع

الدعوات على جبل عرفات... يا الله" وتنطق لفظ الجلالة بترقيق اللام، ولم تكن تسلم من تعليقات سعيد الذي كان يخاطبها بلهجته الشامية على مسمع من الجميع: "مش نائص (ناقص) غير تقول يا شاوي الحاجات."

أشد صور المتسولين انطباعاً في ذاكرتي ووجداني كانت لمن كنا ندعوه: "يا كريم". كان هذا يطوف الحارة ليلاً، بعد العشاء ويردد ندائه الشهير (بالنسبة إلينا): "يا كريم وأنت أكرم من كل كريم... يا رب". وكان يحمل دائماً إناء متوسط الحجم، يضع فيه ما تجود به ربات البيوت من طعام على وشك أن يبيت، في حارة ربما لا توجد فيها ثلاجه واحدة، ومن خلال هذا الإناء تبينت فيما بعد قولهم: "كلام فلان (أو كتابته) مثل طيخ الشحاذين"، بمعنى أن يجتمع (حسب التعبير المصري) السمك على اللبن مع التمر هندي، وربما، فوق ذلك، عند "ياكريم" الأرز بالحليب.

ما جعل صورة "ياكريم" منطبعة في وجداني، هو مكان إقامته ومبنيته وصورة هذه الإقامة في ليالي الشتاء تحديداً. أمام بوابة الجامع الغربي الرئيسية ثمة طريق -ما زال إلى اليوم- يوصل إلى ساحة عمارة مسلم الزوربا المطلة على الشارع الهاشمي (وقد هدمت فيما بعد وحل محلها ملجأ ضد الغارات الصهيونية) ومحلات بيرس، وعلى مسافة حوالي عشرين أو ثلاثين متراً شرق بوابة الجامع، وعلى حافة أحد البيوت وفوق حفرة على شكل قبر (لم يكن ثمة رصيف) أقام "ياكريم" منشأته المكونة من حفرة بطول مترين وعرض متر... أقامها من الخيش وبقايا الخيام القديمة والممزقة، ولم تكن المنشأة ترتفع عن

الأرض لأكثر من نصف متر. كان طريق الجامع الغربي الطريق المفضلة لديّ في ذهابي وإيابي بين البيت والسوق. وصادف ليلة أن مررت بالقرب من الخيمة، كان الجو مائطراً وعاصفاً فأطيح بالخيمة أثناء مروري، وخرج الرجل يحاول جاهداً إعادة نصب خيمته (إن جاز وصف خيمة هنا) فكان كلما أسند سقف الخيش على وتد وقع الودد، ووقع السقف من ثم فوق رأس المسكين، وتكرر الأمر مرات، حاولت مساعدته فلم يبد قبولاً ولا اعتراضاً... وأذكر أنني غادرته عديم الحيلة وكان ما زال في ورطته.

ساحة الجامع الشرقي ... مهرجان حافل بالبشر والخضار والفاكهة... نهراً وليلاً حيث اللوكسات المشعة ومصابيح "البنانير" (جمع بنورة) المضاءة فوق البسطات والعربات.

وكم كنت مأخوذاً بمنظر الحمالين (الصغار والكبار) وقد وضع الواحد منهم سلة على ظهره، وأخذ ينادي المشتريين مترنماً: "حملة بالسلة يا معلم... حملة بالسلة يا معلم."

وكانت حركة البيع والشراء تنشط مع المساء، حيث اللوكسات تجعل المكان ساحة احتفال حقيقية وأصوات الباعة تتعالى ومن بينها صوت "أبو العجول" أو زوج سكيينة.

كانت سكيينة جارة لنا تقطن في بيوت أم سليمان، وهي مجموعة من الغرف المتجاورة، يفصل بين الواحدة والأخرى حاجز صغير. ما زلت أذكر سكيينة بملامحها الجميلة ووجهها البض الممتلئ وجسمها المائل إلى سمنة

خفيفة. وكانت دمثة عطوفاً على أبناء الحارة ، ربما لأنها لم ترزق بذرية، وكانت مقصداً يومياً للنسوة زائرات، وفي حقيقة الأمر لغرض قراءة الفنجان، وكان يضرب بها المثل بصدق توقعاتها عن سمك الرزق وطاقات الفرج وقدم الغائبين وشفاء المرضى والتقاء الأحبة... إلخ، وبدقة قراءتها لتضاريس الفنجان. أما زوجها "أبو العجول" فهو الحكاية الكاملة. كان سميناً جداً بوزن لا يقل عن مئة وخمسين كيلوغراماً عظيم البطن، كبير الهامة ضخمة اللغد (أو اللغلوغ) يضع على الدوام فوق رأسه الأقرع ما يشبه الطاقة مخروطية الشكل. وذات يوم كنت ووالدي نشترى الخضار والفواكه من ساحة الجامع ليلاً، وكان المكان كرنفلاً كالعادة في ليالي الصيف وأبو العجول أمام عربته وقد أخذ يلمع بقطعة قماش من المخمل الأحمر حبات التفاح الأحمر والأصفر واحدة واحدة ويصنع منها ما يشبه الهرمين الكبيرين، وعلى الرغم من علاقة الجيرة الوثيقة التي تربطنا، وتبادل الزيارات العائلية بمناسبة وغير مناسبة، فقد تلبسني شيطان السخرية يومها محتمياً بظهر والدي الذي أخذ يتتقي بعض المعروض من عربة لا تبعد عن عربة أبي العجول سوى مترين أو ثلاثة، كنت أضع يدي على شكل قوسٍ أمامي وأحرك وسطي مقلداً مشية الرجل بكرشه... أفعل ذلك وأنا أنظر إليه بكل صلافة متوقعا أن يأخذ الأمر، لروابط الجيرة، بالتجاهل والتسامح، لكنه فجأة انقض علي وأمسكني من غرة شعري وهو يهدير بصوته المجوف العميق: "وبعدين معاك؟" ... خلصني والدي وهو يوسعه توبينخاً، لم يبادلنا الرجل التوبينخ بمثله؛ بل قفل عائداً إلى عربته.

حين سمعت والدتي بالقصة أخذتني في اليوم التالي صباحاً إلى سكينه، واعتذرت منها على ما حصل، ولكن السيدة الطيبة هي من اعتذر عن تصرف زوجها، بل استرضتني بموزة "ريحاوية" سمينه، هل أقول إنني ما زلت أذكر طعمها وطعم القبله التي طبعتها السيدة على خدي؟ لم أكن صغيراً جداً آنذاك... ربما كنت في العاشرة، وكان الوقت صيفاً حيث تتيح العطلة للغرة أن تظهر وتنطلق... ليشدها أبو العجول.

- ٢ -

نماذج بشرية عرفتها في تلك المنطقة، أعني وسط المدينة في الخمسينيات والستينيات. خبرتها بالمعاينة عن قرب بطبيعة الحال... نماذج بشرية ظلت منذ ذلك الحين، ولأكثر من ستين عاماً، تقوم وتقعّد معي كما يقولون.

إلى الغرب قليلاً من محل أبي وحيد الحلبي الكائن في الطرف الغربي لشارع الهاشمي، وفي حارة "العبنات" تحديداً، كان "كُلْك" أشهر وأبرع الكوائن، ربما في المنطقة الغربية خلال تلك الفترة. وكان هذا من أصول سودانية، غليظ الصوت والشفقتين، وملاحه تنم دوماً عن طيبة وبساطة، وكان مرحاً يحب المزاح، ويتبسط مع الصغار والمراهقين.

وذاًت يوم أحضرت له عدداً من القمصان وطلبت كيها على الفور لمناسبة عندنا تحل في نفس اليوم، فطلب إلي الجلوس على كرسي منخفض، ورحت أراقب حركاته الفنية في فرد القميص على لوح الكواء وبسط الشاشة

المبللة فوق قبة القميص بعد أن يغطسها قليلاً بإناء النشاء، وحين لا يستعمل الشاش كان يبخ الماء بفمه الضخم فيطالني من الرشاش ما يطالني، ثم انضم إلى مجلسنا اثنان أو ثلاثة من معارفي، وكانوا من أصدقاء الصبا وزملاء المدرسة كان من بينهم محمد وليد الحمصي (ابن أبي ياسين النحاس)، وكان -بالمعنى المحبب- شيطانياً رجياً بكل ما في الكلمة من المعنى، وأخذ وليد يغمز ويلمز من قناة الكواء، ولم يكن هذا قد اكتسب لقبه "كلك" بيننا بعد، أخذ يسأله عن نوع ما يبخه هل هو ماء أم كاز، وحين يجيب: ماء، يقول له: "معقول؟ ليش ما بتخلطه بشوية اسبورتو؟ ... بالشام هيك بيعملوا"، ثم يسأله: "إيمتى كويت قيمصك؟" وأخيراً، وكما يقولون، قُبعت مع الكواء فزَعق في وجهه: "لا يكون وَلَهْ جاي تتخوْث عليّ ... كلك قد رجلي (في الحقيقة نطق بكلمة أخرى) وجاي تتخوْث عليّ؟". قال كلمة "كلك" بالفم الملائن وبصوت صادرٍ من أعماق جوفه وهو يفخم حرفي الكاف واللام... ولم يكن ينقصنا سوى هذا القول لتتوقف عنده أياماً وسنين، خرجنا نردد بطريقته: كلك ... كلك... وأصبح الواحد منا يلقي عليه التحية قائلاً: "مرحبا كلك"، وانتشر الاسم الجديد كالنار في الهشيم بين أصحابنا وإخواننا، لا سيما أنه اقترن بلفظة بذئنة (غير ما ذكرت)، وتمادينا كثيراً معه، إلى أن كان يوم، مررنا به، وليد وأنا وألقينا عليه التحية المعتادة (باللقب إياه مصحوباً بحركة بذئنة) ومضينا سادرين دون اكتراث بردة فعله، وفجأة التفت قليلاً إلى الخلف فإذا بكلك

يرفع بكلتا يديه قضيباً حديدياً بالهواء وهو يهيم بإنزاله فوق رأس واحد منا... صحت بأعلى صوتي: "وليد"، ولم ينجنا سوى عناية الله، وسرعة الركض.

وصديقي القديم وليد، الذي لم أسمع عنه شيئاً منذ أكثر من خمسين عاماً مضى، كان الابن الأصغر لأبي ياسين الحمصي، أو أبي ياسين النحاس، وهو أمهر من طرق الأواني النحاسية وجلسها ويبيضها وأعادها كما كانت عليه لحظة تصنيعها.. في تاريخ إريد (حسب علمي على الأقل)، ويقع محل الرجل في دخلة الفروانية بالضبط إلى جانب خان أبي صياح. كان يبدو متقدماً قليلاً في السن، ربما لضخامة جسمه، وكان إذا جلس ويده المطرقة الصغيرة مشتبكاً مع الآنية النحاس استمر على حالة ساعات وساعات. أقول - بوعي اليوم - ماذا لو كان هذا الرجل ضابط إيقاع في أوركسترا؟... لضبط مئات العازفين آلتهم على إيقاعه الناعم المنتظم الذي يخاطب القلب قبل الأذن. ما زالت شخصيته الطيبة ماثلة في ذاكرتي بشرواله الأسود (أبي له) الذي أضاف ضخامة إلى ضخامته الأصلية، كم كان حنوناً هذا الرجل علينا جميعاً، حين كنا نحل على محله (وليد وجهاد باكير وأنا) بعد "رجعة" العصر من المدرسة، ويكون الرجل أوشك على الانتهاء من عمله، فيصر على أن يطلب من ابنه وليد أن يحضر لنا صحن حمص كبيراً من عند أبي حسني البلعاوي القريب آنذاك من محل البستوني، ويكلفني مع جهاد بإحضار الفلافل من عند "الفلكي"، المحشوة بالبصل المخلوط بأشهى أنواع التوابل، بعد أن ينقدنا

ثمناها شلنا كاملاً، وكان يقشر لنا البصل الأخضر بيديه، ويسألنا بلهجته الشامية: "إيمتى بدكو تبطلوا الزعرة؟".

ربما كان الفلكي بائع الفلافل في الثمانين من عمره، خلال النصف الأول من الستينيات. وكان محله ملاصقاً لمحل أسعد شرار من جهة الغرب. وربما كانت فلافل الفلكي آنذاك، أرقى وأشهى أصناف هذا النوع، كانت من الحمص الحر غير المخلوط بأي مادة أخرى كالطحين أو الخبز المجفف أو بقايا الكعك أو خلاف ذلك. كما كان تفعل بعض محلات الفلافل في الحارات، وكنت أراه أحياناً، في الصباح الباكر، وقبل دوام المدارس، منكباً على عملية فرم الحمص في الداخل بالماكينة اليدوية، أو جالساً أمام المحل يقلي الأقراص الشهية بالأحجام المختلفة، لم يكن يستعمل القوالب ذات المقابض لإفراغ حشوتها في صاج القلي، بل كان يحرص على صنع الأقراص بيديه النظيفتين، بحيث يستغرق إعداد القرص الواحد منه أضعاف إعدادة بالقالب، لا سيما إذا كان القرص من النوع المحشو بالبصل المتبل بخلطة سحرية لا يعرف إلا الله والشيخ الفلكي أسرار إعدادها. لعلني لا أبالغ إذا ما زعمت أنه حتى هذه اللحظة ما زال طعم فلافل الفلكي في فمي. ويظل الشيخ يعمل إلى ما بعد صلاة المغرب، وكان بعض ضعاف النفوس من الصبية يستغلون أداءه لصلاة المغرب لتمتد أيديهم على بعض الأقراص من "الصينية" الموضوعة على بسطة مرتفعة أمام المحل. ولا أشك في أن الشيخ، رغم وضع بصره، وهو ابن الثمانين، كان يحس بهم ولكنه غير مستعد ليقطع فرضه.

وبعد صلاة المغرب يأخذ الشيخ بالنداء على بضاعته بجملة فريدة لم أسمع منه غيرها: "الفلافل يا شباب ... الفلافل يا شباب" .. يقولها بصوت يحاول جاهداً أن يجعله قوياً ومسموعاً، ولكن هيهات؛ فيخرج منه النداء بضعف مشبع بنغم حزين.

- ٣ -

نماذج أخرى في تلك المنطقة ظلت في بعض جوانبها غامضة بالنسبة لي.

أمام محل الفلكي كان "الشيخ علي" يكثر من الجلوس، بل يكاد يتخذ ذلك الرصيف موضعاً شبه دائم. كان هذا معمماً في حلة الدراويش الأغراب عن البلدة، و ويتمتم كلاماً بلكنة غريبة. يحمل على ظهره باستمرار كيساً ضخماً من قماش الشادر المقوى، لونه كإبي ويلتقط أي ورقة ملقاة على قارعة الطريق تقع عيناه عليها؛ فنراه ينكب على قراءتها بسرعة ثم يضعها في كيسه بعد أن يتمتم بكلام غير مترابط ولا مفهوم.

يعرفه الكثيرون من أهل البلدة، وبعض أصدقائي ما زال يذكره إلى اليوم، بهيئته الخضراء أحياناً وغطاء رأسه العجيب؛ فلا هو طاقية ولا هو كوفية، بل أقرب إلى شكل العمة. يحصل على قوت يومه من صدقات كثيرة يتبارى الناس بتقديمها له أنى حل لاعتقاد كثيرين أنه أقرب إلى الأولياء. وكان ينفق معظم ما يأتيه على شراء الكتب أو المجلات أو حتى الأوراق لا سيما إذ لاحظ الشيخ أنها قديمة أو حتى ممزقة الغلاف. وذات يوم كنا شبه

"طفارى" وعن لنا أن نشاهد فيلم "سجين أبو زعل" في عرض الجمعة الصباحي في سينما الزهراء، وهو العرض الذي يشرف عليه ويضبط أموره ذيب سريان (أبو كامل، وسأحدث عنه في فصل لاحق) فاقترح أحد أفراد المجموعة، وما زلت أذكر اسمه ولقبه: "محمود القنبلة" أن أحضر له كتابا قديما من بيتنا، جئته بالمطلوب، وكان تالفاً شبه ممزق فقد نصف حجمه من الإهمال، واتجهنا، وكنا ثلاثة أنفار، يقودنا "القنبلة" إلى الشيخ علي، قلب هذا الكتاب، ثم قال: تلت كروش (أي ثلاثة قروش) فاحتج محمود، ولكن الشيخ علي رد بحزم: "تلت كروش ولا بارة"، وقد نطق "بارة" بترقيق الراء، كان هذا المبلغ كافيا بالإضافة إلى ما كان بحوزتنا، حتى يرضى العم ذيب بالمبلغ ويأذن لنا بالدخول، بعد أن وضع قروشنا في الإناء النحاسي إلى جانبه.



و ذات يوم، وكنت عائداً إلى بيتنا في أبي اللجا عن طريق شارع البارحة، لاحظت مجموعة من الشبان، ممن يكبرونني في السن، بزعامة سميح اخنين، وهو شاب أخنف يخرج كلامه من أنفه وينطق الحروف كلها ممزوجة بحرف النون، ولعله من هنا اكتسب لقبه "اخنين". كانوا مقرفين وراء بيت أنطوانيت اللولو، وهو منزل من الحجر الأسود دون سور، ويقع على شارع البارحة مباشرة مقابل دير اللاتين إلى الشرق قليلاً، وأخذوا يفرغون محتويات كيس شادر ضخيم. أليس هذا كيس الشيخ علي؟

التفت اخنين نحوي زاجراً: "يا الله ولّه... نوح من هون" أي اذهب من هنا. تسمرت في مكاني للحظات، وإذ بالمجموعة تغادر المكان وقد تركوا الأوراق كلها وحملوا معهم الكيس فارغاً. أخذت أقلب الأوراق والدفاتر والكتب الممزقة، وأذكر جيداً أنني لم أعثر على شيء يثير الانتباه، كانت محتويات الكيس المفرغة أقرب إلى الكتاب الذي تقاضينا ثمنه ثلاثة قروش.

وثمة نموذجان آخران ظلا غير مفهومين لي ولكثيرين في قلب البلدة النابض، كان هناك "البايز" مثلاً (أي البايظ، بمعنى التالف) ومكانه الدائم في ميدان الملك عبد الله، ويتوقف كثيراً أمام محلات جوزيف النصراوي أو الجهة المقابلة حيث تقع سينما دنيا ومطعم سوسان. لم أر كائناً تجمعت على ملابسه ووجهه ويديه طبقات القذارة كتلك التي كانت تتراكم فوق جلد البايز وثيابه، لا سيما أنه يحرص على ارتداء ثوب أقرب إلى الشوال منه إلى أي شكل آخر ويكشف أجزاء كبيرة من يديه ورجليه، كان ثوبه الذي لا أذكر أنني رأيته

بغيره بنيا في لون وجهه. لا أستطيع أن أحدد أو أتذكر من أين جاء أو أين انتهى به المطاف بل ما اسمه الحقيقي؟ ولكن من طريقة كلام البايز أستطيع أن أجزم أنه - على الرغم من قذارته - جاء من بيئة مدنية متقدمة. استمعت إلى حديثه مع الآخرين، وكنت ألاحظ أنهم يأخذون حديثه مأخذ الجد. لم يكن يعمل عملاً منتظماً، ولم يكن متسولاً بالمعنى المتعارف عليه، بل كان يسترزق من خدمات صغيرة يؤديها لأصحاب المحال، ولعل أهمها أن ينصرف عنهم وقت لا يريدون التبسط معه.

كنت يوماً اتفرج على الصور الخارجية لأحد الأفلام الأمريكية أمام سينما دنيا، وهي صور كانت توضع في براويز زجاجية معلقة على الجدار أمام دار السينما، فإذا بضابطين أجنيين (فهمت أنهما من ضباط الهدنة، وكان مقرهم خلف عيادة الدكتور الحناوي على ظهر التل) يبادرانني بإنجليزية مكسرة، ويسألانني فيما إذا كانت الصور المعلقة تعود لفيلم أمريكي؟ هزرت رأسي موافقاً دون اكتراث، وإذا بأحدهم، لعله بواب السينما، يصرخ: "يا بايز، تعال إتفاهم معاهم". ركض البايز نحوهم بسرعة الريح، وأخذ يتحدث بالإنجليزية دون تلعث، وكان واضحاً أنه يتقنها أفضل بكثير من جميع الواقفين، ويهز رأسه ويقول Yes American ... American، ثم مديده إليهم وتلفتوا فيما بينهم وفهموا المطلوب، ويبدو أنه ظفر بقطعة معدنية فضية أو أكثر.

أما "حكحك" فإن أمره مختلف قليلاً عن البايز، ربما يختلفان في المكان الذي يتخذه كل منهما مقراً؛ فقد كان هذا يلزم رصيف زاوية محلات ملك مارديني أول شارع الملك عبد الله شمالاً، ولو أنه لم يكن يختلف عن البايز كثيراً في ملبسه وقذارته وطريقة الكُدية التي يسترزق بها. لم تأت تسميته بهذا اللقب عبثاً، فقد كان دائم الهرش على ذراعيه ورجليه العاريتين، إضافة إلى خديه وصدره. كان يبالغ في هذه الحركات مبالغة لم يدرك أحد أبعادها في حينه، هل كانت للتمويه وادعاء البلاء؟ ولم يكن له اسم أو صفة يعرف بهما سوى هذه الصفة "الحكحكة". وذات يوم، وقد استعرت الخلافات بين الأردن ومصر، واشتد وطيس الحملات الإذاعية المتبادلة. أصبحت إريد كلها تتحدث عن حكحك. وكان كثيرون يقولون: "مش طلع حكحك ضابط مخابرات مصري؟" ... وتسمع آخر يقول: إمبراح حكى بصوت العرب وقال: "يا أهل إريد أنا حكحك ... وَلَا انسيتوني". لم أسمع هذا بنفسى من الإذاعة، ولكن كثيرين أكدوا أنهم سمعوه، ويبدو أن الرواية كانت صحيحة. كان ذلك في منتصف الستينيات، قبل ذلك أو بعده بقليل.

٤-

واشتهرت منطقة "السوق" الموازية جنوباً لشارع الهاشمي بأفران "التنوري" حيث يقوم "المعلم" بفرد عجينة الرغيف وترقيقها ثم تطيرها في الهواء قبل أن يضعها على مائدة مستديرة دون أن يستند إلى "البلاطة" ويدخلها بيده إلى "التنور" بعد أن يلصقها بجداره، كل هذا دون أن يستعمل أية أدوات

باستثناء المخدة. بل إن انتزاع الرغيف الأقرب إلى البسكويت - بقطر نصف متر على الأقل - من بيت النار بعد أن يحمر و "يقحمش" ... يتم بيديه غالباً. والتنور أتون على شكل برميل ضخمة مشاد من طينة من نوع خاص.

وفي وقت ما أوائل الستينيات، أدمنت ومجموعة من الأصقاء تناول وجبة الإفطار يومياً عند "ياسين" أشهر وأبرع فوال في تاريخ إربد. وكان في بداية عهده يتخذ من الجدار الغربي لمحلة القائم الآن (داخل كازية/ مستودع الغرام على ما أذكر) بسطة حولها العديد من "الطبلبات" التي تحيط بالواحدة منها مجموعة من كراسي القش الواطئة. كان الواحد منا يحمل رغيف التنوري "المقحمش" بيده ونتخذ مجلسنا عند العم ياسين ليقدم لنا صحنه الغاطس بزيت الزيتون الأخضر البلدي، وتكون الوجبة لا أزكى ولا أشهى. كل هذا بقرشين ونصف. إضافة لقرش آخر ثمن الرغيف التنوري.

وأكثر اللحامين توهجاً في الذاكرة هو العم "أبو عراج"، أما الآخرون فقد كان التعامل معهم يتم من خلال الآباء أو الإخوة الكبار نتيجة لحساسية السلعة. قبض لي أن أتعرف إلى أبي عراج بعد منتصف الستينيات لفترة قصيرة في فترة أخذ الأهل يعتمدون علي في شراء سلعة كهذه.

كان محل أبي عراج أولاً في سوق اللحامين في "ساحة الجامع" ثم اتخذ لنفسه محلاً في منتصف شارع فلسطين (عند التقاطع مع شارع الرشيد). لم يكن ثمة حرج في أن يخاطبه الناس بأبي عراج، وما أعرفه عن أسرته كان ابنته الصبية الحرساء التي إذا ما استفزها أحد بتعليق (تقرأه بطريقتها الخاصة) أو

بنظرة أكثر من أن تكون عابرة، لا تتردد حينها بخلع حذائها ومهاجمته بشراسة، وقد يخرج المستفز الوقح بخرائط دامية على وجهه بفعل مخالبتها التي لا رادع لها ولا رحمة فيها. هذا على العكس من أبيها الطيب الذي يقابلنا بكل ترحاب إذ نبادره: "مرحبا عمي أبو عراج ... بدي ثلث أواق لحمة مجرومة". وكنت أراقبه وهو منهمك بعمله بكل براعة مترنما بأغنية أم كلثوم حديث الناس في ذلك الحين "إنت عمري" حيث يجرد الهبر من العظم ويقطعه "رأس عصفور" على وقع أنغامها، لا كما تؤديها "الست" بل كما يؤديها هو بطريقته ولكن بكلمات شكوكو التي تقول:

يا أغلى من أيامي يا ليلي ساكن قدامي

إنزل بحياتك إنزل بلاش غرام بالمنزل

لم أر في تلك الأيام شخصاً بخفة دم أبي عراج ومرحه ومزاحه الودود وأيضاً بسلطة لسانه. ومن مزاحه الذي كنت شاهداً عليه، أنه إذ ألقى عليه أحدهم السلام أو بادره بالكلام، يرد عليه بضحكة مجلجلة، وقد يهمس للزبون الواقف أمامه بصوت خافت جداً: معاك قوزلين؟ (وكان ينطقها أوزلين) لم أكن أفهم التورية في بداية الأمر. إلى أن كان يوم كنت أقف فيه في محله وانتظر دوري، وكان ثمة زبون آخر ينشغل أبو عراج في إعداد طلبه ويأدله الحديث بتبسط شديد. وفجأة حضر إلى المحل أبو عاطف ارشيدات، وهو واحد من الشخصيات الظريفة التي لا تنسى، وكان شهماً ولا أريد أن استطرذ بذكر الأمثلة على شهامته وأريحيته، ولكن عن سخريته وظرفه أتابع

سرد المشهد. ما أن أهل أبو عاطف حتى انحلت الصواميل التي تربط الميل أحياناً للاستهتار... عند أبي عراج؛ فهمس بلهجته المدنية، موجهاً كلامه للزبون: "ما قلتليش ... معاك قوزلين؟" لم يفهم الزبون من الأمر شيئاً... وحين لاحظ أبو عاطف خمول فهمه، قال له دون سابق معرفة: "أي قرب اذنك أقولك لويش القوزلين" وجعل أبو عاطف كفه على شكل بوق ثم أصدر صوتاً عبر البوق خرج كالنفير، مما تسبب في صعق أسماعنا وجفولنا. وغادر أبو عاطف المحل دون أن يلوي على شيء... أما الزبون فقد نسي -على ما يبدو- سؤال أبي عراج الخبيث بعد النفير... وبلغ الموضوع بابتسامة باهتة. حسناً، ثمة، في الناس من هو دائم التكشير، وثمة من تظل مرتسمة على وجهه علامات الدهشة، أو الابتسام؛ أما أبو عراج، ذو العاهة الفادحة، والجسم الضئيل، ووالد الصبية الخرساء، فإن وجهه لم تكن تفارقه الضحكة المجلجلة التي تخاطب ما هو أبعد من حاسة البصر.

٥-

وعلى ذكر "القوافي" ترد إلى الخاطر، شخصية الحلاق أسعد، وقوافيه الغبية. جاء أسعد إلى الحارة حلاقاً مبتدئاً وكان أكبر منا بقليل. بدأ يخلق للناس على كرسي حلاقة قديم في دكان لعل أجرته -آنذاك- لم تكن تُجاوز الدينار أو الدينار والنصف شهرياً. وكان المحل عارياً في بداية الأمر إلا من مرآة وكرسي آخر. و بسرعة البرق نجح في مهنته أيما نجاح، وعلى الرغم من صغر سنة النسبي فقد استحوذ لبراعته على عشرات الزبائن من الكبار قبل الصغار،

وكان يطور من محله شيئاً فشيئاً حتى انتقل إلى محل مجاور أوسع منه فملأه بالمرايا من كل الجوانب، وبالكراسي الوثيرة وطاولات الوسط الحافلة بالصحف والمجلات. ولكنه ظل على عاداته السيئة؛ فما أن ما يدير الزبون ظهره حتى يهمس في أذن الزبون الذي اتخذ وضع الحلاقة إذا ما أنس إليه، بكل ما من شأنه أن يشين الزبون المنصرف أو ينال من سمعة المنصرف بقضايا الشرف بخاصة. أما إذا لم يطمئن للانفلاش أمام الزبون، فإنه يحدثه حديثاً عاماً معظمه كذب في كذب. وقد عرف عنه هذا الميل "للخرط والعرط" والنميمة والاعتياب؛ فمن "عرطاته" مثلاً أنه كان يزعم أنه قادم للتو من منزل المتصرف أو قائد المنطقة بعد "حلاقته" لأحدهما وأن سيارة بسائقها الشرطي قد أفلته في الذهاب والإياب. ولكن كثيرين احتملوا أكاذيبه وثقل ظله نظراً لبراعته وحفاوته المبالغ فيها وأيضاً لنفاقه لهم في وجوههم، وكذلك لقرب المحل من بيوت زبائنه، أو لأن بعضهم سبق أن لقنه درساً قاسياً بطريقة أو بأخرى، مما جعله يطمئن إلى صون سيرته - إن جاءت في غيابه - على لسانه. وقد بلغني أنه عرض بي ذات يوم أمام الزبائن بقوله إنني يجب أن أدفع له ضعف التعرفة المقررة نظراً لكبر رأسي؛ فقاطعته ولم أعد ألقى عليه السلام، وبدأت أحلق عند زكريا، وهو حلاق مجاور لأسعد كان مساعداً عنده "لقط الصنعة" وفتح محلاً مجاوراً له ينافسه فتحول؛ إلى غريم ما من مجاورته ومنافسته له بد، لاسيما أن والد هذا الغريم كان شرطياً متقاعداً معروفاً بشراسته، وقيل إنه اشتبك مع سليم ذات يوم و"مسح به الأرض" وتركه وهو

يتوعده: "مش كل الطير بتتاكل لحمه يا ع..". ولكن حرفية زكريا كانت دون ما لدئ سليم بكثير وبخاصة خفة يده بالمقص ومعرفته بالموضات الحديثة و"حَلَقَات" الممثلين المشهورين. وما أن رأي أسعد ذات يوم في محل لبيع الخضار حتى استحلفني بالله: "هل تركتني وصرت تخلق عند زكريا؟" ورجاني أن أعود إليه، وكنت فعلاً في سن لا تسمح بالمغامرة بتغيير التسريحة أو العبث بشكل الغرة التي طالما انتشيت بها .

وكان من جملة ما يدفعه أسعد للاحتفاظ بزبائنه تملقهم والمبالغة في الترحيب بهم في المجلس اليومي المنعقد في صالونه. ويضم عادة ثلاثة أو أربعة دائمين إضافة إلى عابرين... سبب آخر كان يجعل الآخرين ينفرون منه، وربما لا يعودون إليه؛ فقد كان أبخر ورائحة فمه لا تطاق.

بيد أن سماجته ومحاولاته الاستظراف على حساب كرامة الآخرين، لم تكن عيبه الأكبر فحسب؛ بل - أحياناً - فتحت له باباً من أبواب الجحيم. ذات يوم، وأثناء "المجلس" سأل أسعد زبونه الذي رأسه بين يديه (وكان معلم مدرسة مشهوداً له بالصرامة وقوة الشخصية) فيما إذا كان يريد استعمال الخيط لاقتلاع الشعيرات التي تنبت على الحواف الأمامية للخدين، ولكن الزبون رفض بإصرار وعلق بأن العملية مؤلمة "على الفاضي"؛ فاستعمال المقص يغني، وهنا أخذت أسعد نشوة الغلو بالاستظراف البذيء: "بس مع الزيت الخيط أحسن"، وفهم الأستاذ النمروود المعنى المسيء على الفور، فانتثر واقفاً غير مبال بانهاك أسعد بوضع اللمسات النهائية "للتزييط" تسريحته، ودوت صفعة في

المكان، لا بد أن رأس الحلاق قد طاشت بها، والمؤكد أن عينيه قد قدحت أمامهما نجوم الظهر الحمراء. وضع أسعد كفه على خده مشدوهاً مصدوماً... وسرعان ما عاد الزبون إلى الكرسي وقال: "كَمَلْ وَلَه" وران صمت القبور على مجلسنا أما الحلاق فقد كانت يدها تتراقص فوق رأس الزبون بحركات منها وغادر المحل دون أن ينبس - لا هو، ولا الموجودون - ببنت شفة.

أما أشهر حلاقي المنطقة، ولسبب لا أعلمه، فقد كان "برهان".

يقع محل برهان - آنذاك - في عمارة النصراوي. لكنني لم أعرف من كان مالك العمارة الحقيقي. وكان موقع العمارة عند ملتقى شارعي البارحة وخالد بن الوليد والمفضيين معاً إلى شارع واحد عريض: الهاشمي. وإلى يسار المتجه غرباً، يقع محل "برهان" المرتفع عن أرضية الشارع ببضع درجات، وإلى جواره كانت عيادة لطب الأسنان، ويقال إنه في هذا المكان تحديداً افتتح الدكتور صبحي أبو غنيمة عيادته في إربد قبل ذلك بزمان طويل.

كان معظم زبائن برهان من الطبقة المسحوقة، بل كان بعضهم من العتالين والمتسولين. وأدواته بدائية، أما كرسي الحلاقة فقد كان من الخشب القديم، وليس من النوع الحديث المتحرك. أشهر ما لدى برهان كان حجمه، قصير يميل إلى السمنة، أصلع الرأس، بحيث أطلق عليه الظرفاء في أواخر أيامه في إربد لقب "كوجاك" (بطل أحد المسلسلات البوليسية الأمريكية) وكانت البسطة المعتلية أمام دكانه مجلساً صغيراً ولكنه دائم حين يكون برهان غير منشغل برأس زبون أو ذقنه، وظل برهان حتى وقت متأخر يحرص على

استعمال الموسيقى التقليدية للذقن وطالما كنت أراقبه منهمكاً في سَنِّها على شريط من الجلد الأسود المشبع بالزيت. وحين ينعقد المجلس ترى الرجل على كرسي القش الصغير، وقد فاض وركاه على الجانبين ملتزماً الصمت على الدوام، ومكتفياً بابتسامة عابرة بين الفينة والأخرى أثناء متابعته الحديث. وقد تسنى لي تكوين هذه الصورة من خلال ملازمتي لصديقي وليد عيد في محل النجارة الصغير الذي يتبع والده العجوز والكائن -آنذاك- بالقرب من "براكية" السومي على مدخل "دخلة" بيت علي خلقي. ويقال إن برهان ظل أعزب طيلة حياته. وفي يوم ما اختفى برهان دون أن يظهر له أثر، وترددت إشاعات كثيرة حول اختفائه، لعل أقربها إلى الحقيقة والمنطق أن أخاً كبيراً له، قد اصطحبه للعيش معه في قصره في عمان معزراً مكرماً في شيخوخته، وهذا الأخ يحتل موقعاً مهماً في تاريخ الأردن الاقتصادي. وقيل بل إن المطاف انتهى به في أمريكا.

غير أن صالونات الحلاقة المهمة كانت في وسط البلد، وكانت تتنافس في الأناقة والظهور بأرقى مستوى للديكور في تلك الأيام. ويمكن أن يشار هنا إلى صالون فلسطين (لأبي حسن) في موقعه الأول في شارع الملك طلال (حالياً شارع عرار) وكان ملتقى لكبار الشخصيات والحكام الإداريين في المنطقة. ويمكن أن نستذكر هنا صالون "أبو غزالة" في شارع الهاشمي عند ملتقاه مع شارع حكما، ولا ننسى صالون "أبو رياض" في شارع السينما (وصفي التل حالياً) وقد كان ملتقى حافلاً بالحركة والنشاط لشباب المنطقة

المثقفين (والأقرب: "المتعلمين") في منطقة وسط البلد، والعشرات من الصالونات الأخرى، التي إن دلت كثرتها وأناقتهما على أمر، فهو عناية شباب المدينة بإبراز "عصريتهم" ومكنونات أناقتهم. بيد أن ذكرياتي تتكثف في صالونين آخرين وهما صالون أبي حامد الحلاق في شارع الهاشمي، وصالون فتحي الطشلي في المخازن ذات الواجهة الشرقية من عمارة النصراوي. وثمة وقفتان عندهما ولكن ضمن سياقين آخرين.

٦-

لم يكن استعمال الدراجات الهوائية (البسكليتات) يقتصر على كونها أداة لعب للأطفال أو ترويح للكبار فحسب، بل كانت وسيلة ناجعة، للكبار، للتنقل وبخاصة لأصحاب المهن، فثمة دراجة مكتوب عليها "خدمة الكُّحل" يستعملها كحَّيل حجر مرموق في إربد، وأذكر دراجة أخرى تحمل آرمة لمطهر أولاد، وثالثة لكهربائي، ورابعة لموسرجي (سباك)، وخامسة لأحد المدرسين، وسادسة لمعلم بناء... إلخ، كانت الدراجة هي سيارة الطبقة الوسطى، بفئتيها: الموظفين والمهنيين، في أيامنا تلك.

وتأجير الدراجات كانت مهنة رائجة في الخمسينيات والستينيات خاصة، وما زلت أذكر أشهر نوعين: الفيليبس والهيركوليس، وكثيراً ما احتدم بيننا النقاش حول الدراجة الأفضل بينها.

كان أبو السعيد الزعبلأوي هو الملك غير المتوج لعالم

الدرجات في إربد، وكان ابنه عدنان وفاروق أميرين بارزين في هذه المملكة.

وعلى الرغم من أن محل أبي السعيد كان نائياً، بالنسبة إلينا... شرقاً، في آخر شارع الهاشمي، أي في طرف المدينة، فقد ظل لفترة طويلة المقصد الأول لمستأجري الدرجات، أو قاصدي تصليحها أو صيانتها أو نفخ إحدى عجلاتها أو رقعتها... أو بطبيعة الحال، شرائها، ولا سيما المستعمل منها. ولم يقتصر نشاط أبي السعيد وأولاده على النوع الهوائي فحسب، بل كان للدراجات النارية حضور وأي حضور. إن ذكرى مهنة أبي السعيد تمتد حتى أيامنا هذه؛ فحين يريد أحد أن يسخر من شارب فلان يقول: "شنبه مثل غيدون (مقود الدراجة) أبي السعيد".

أفضل ما في شخصية أبي السعيد أبوته الحانية والشاملة لكل صغار إربد ويافعيها ممن يقصدونه، كان هو الوحيد في إربد الذي يؤجر للصغار الدراجات ذات العجلات الثلاث، وكانت عيناه لا تزوغ عنهم، وقد ساعده في هذا كون المحل بمنأى - نسبياً - عن زحمة وسط الشارع، وكذلك اتساع الشارع، والأهم - بالنسبة للأطفال - الرصيف الذي لم يكن أبو السعيد على استعداد للسماح لأي زبون صغير أن ينزل عنه نحو الشارع إلا إذا وقع هذا بغفلة عنه. أما من هم في سن اليافع أو المراهقة - مثل حالتي - فقد كانوا أحراراً في التجوال في الشوارع المحيطة أو حتى الذهاب إلى البيت أياً كان الحي الذي يقع فيه.

كانت أجرة "الساعة" تختلف اختلافاً بسيطاً ما بين صاحب محل وآخر، على العموم كانت تتراوح بين العشرة والعشرين قرشاً في أقصى

حالاتها. كنا في معظم الأحيان ندفع مقدماً، وهذا أفضل لنا؛ نقول: "ربع ساعة أبو السعيد"، وندفع القروش المطلوبة، ثم نأخذ في الدوران في نفس البقعة الخالية، وحين يؤشر لنا أبو السعيد أو أحد أبنائه، نتباطأ قليلاً حتى يصبح الأمر جدياً، إذا كشر ونخر فاروق الابن الأصغر لأبي السعيد، وكان في مثل سن شقيقي الأكبر مني، إميل، وصديقه الحميم؛ فسرعان-حينئذ- ما نسارع لتسليم الدراجة.

عرفت أبا السعيد وكان متقدماً في العمر، في الخمسين أو الخامسة والخمسين، وكان ذا ملامح بروليتارية- إن جاز التعبير- بجده وحيويته ونشاطه وعرقه المتصبب على وجهه على الدوام. أما أبنائه فهم الكبير السعيد، الذي أظن أنه ورث المهنة بعد وفاة أبيه أوائل الثمانينيات. أما ابنه الأوسط، عدنان، فكان أشهر من نار على علم في أرجاء إربد كافة، ولدلى أهلها من مختلف الفئات والأعمار.

ربما لم تعرف إربد، وأكاد أجزم بهذا، قائد دراجة نارية (ترافيك) أبرع من عدنان الزعبلاني. كان يتولى "القسم الخاص" بشؤون "الموتوسيكل" في محل أبيه الواسع. وكان أشقائي الكبار زبائن دائمين له، أذكر أن "الساعة" كانت بـ نصف دينار، ثم ارتفعت إلى ٧٥ قرشاً، وانتهت الأمور بدينار مع نهاية الفترة التي تتحدث عنها هذه الذكريات.

إن ملامح عدنان تشبه إلى حد كبير ملامح نجوم السينما بعينه البراقتين ولون وجهه الموشح بسمرة لعل الشمس سببها، وكانت ملامحه دائماً

ناطقة بحال تقول: "قل ما عندك بسرعة فلدي عمل". لكن أبرز علامات شخصيته كان رجله المقطوعة حتى الورك. وكان يمزج بدراجته النارية شوارع إربد بحرفية وكبرياء يجلبان احترام الآخرين والإعجاب ببراعته، ولا سيما حين يهيم بالانطلاق بها وبعده حركات يدوية (عوضاً عن رجله المقطوعة) بما يجعل صوت المحرك مدوياً، وأحياناً بطلقات تحاكي ما يصدر عن الأسلحة النارية. كل هذا في كفة وحركاته البارة في تبديل الغيارات في كفة أخرى. كان ينحني باتجاه المبدل الكائن أسفل المحرك إلى جانب "الموتوسكل" ويقوم بحركة التبديل المدهشة بيده والدراجة تكاد تطير في الهواء، بل إنني كثيراً ما شهدته وهو يقوم بحركات استعراضية بالدراجة النارية، كأن يرفع عجلها الأمامي في الهواء وهو يقودها بسرعة البرق، ويقوم بما يقوم به بعض الشبان اليوم من "التفحيط"، ولكنه تفحيط بالدراجة النارية، بل تفحيط متعقل يجعل المكان أشبه بالمهرجان. أما طقوسه أمام البيت، وقد تجاوزنا لفترة قبل أن يستقر في الحي الشمالي؛ فقد كانت أقرب أن تكون أن تكون مقدسة، كان يفرط "الموتوسيكل" صباح كل يوم جمعة، ويقوم بغسل القطع التي يفكها بإناء يملأه بالبنزين الأحمر النقي، وأحياناً ينقعها، ثم يقوم بإعادتها إلى مكانها، كنا نراقب العملية، ونحن ننتظر بصبر لحظة تشغيل المحرك وضبط هديره انخفاضاً وعلواً. لم يعمر عدنان طويلاً بل توفي في الثمانينيات - على ما أعتقد - وكان في حدود الخمسين. وكم كان إحساسي

برحيله فادحاً- رغم قلة التواصل- ذلك أنني شعرت أن قطعة من وجداني المرتبط بتلك المرحلة قد غادرتني إلى غير رجعة.

تأجير الدراجات كان مهنة رائجة، والأرجح أن ريعها كان مجزياً، ولم تكن تتطلب رأسمال كبيراً. وإلى جانب أبي السعيد اشتهر في المهنة في ذلك الحين ماجد أبو زيد، وشفيق السوقي، وأبو عباس، وغيرهم كثير، من المحترفين أمثال من ذكرت، والطارئين على المهنة من مثل عبده حسين الفارع.

ربما كان ماجد أبو زيد الأشهر في عالم الدراجات بالنسبة لمن يحتاج الدراجة لخدمة غير الترويح. استأجر ماجد في البداية- حسب ذاكرتي - محلاً صغيراً (بيت درج في عمارة الأوقاف قبل تجديد مبناها الحالي بالقديم) مطلاً حالياً على ميدان وصفني إلى جوار أشهر وأهم بائعي الكنافة النابلسية في ذلك الحين: عزمي العفوري.

ثم انتقل ماجد بعد تجديد المبنى إلى عمارة مقابلة في الجهة الغربية الشمالية من الدوار، إلى جوار محل شهير لبيع قطع السيارات القديمة والخردوات والبراغي والصواميل (لكل الاستعمالات) كان يملكه جورج الأرمني، وكانت هيئة جورج تدل على أنه حوراني قح بالجاكيت الملطخ بالزيوت والبنطلون و"السلك والعقال"، ولم أره يوماً إلا مقطباً لا يضحك للريغيف الساخن، ويخفي تقطيعته غالباً بكوفيته الزرقاء، ولكنه عرف بالأمانة في تحديد ثمن القطعة وتدبير حاجة الزبون مهما كانت مستعصية.

وقد تعاملت مع محل ماجد كثيرا، وكان مترفعاً يأخذ أي مقابل دون التفات، بل غالباً ما كان يوكل أمر المحل كله لأحد الفتية ممن يشغلهم في العطلة الصيفية، وقد صادقت أحدهم ولاحظت كيف أن ماجد يأخذ الغلة منه مساءً دون أن يعدّها أو يستفسر من الفتى عن أي شيء.

لم أر ماجد مبتسماً ذات يوم، بل كانت ترتسم على وجهه ملامح الحزن العميق الدائم، مما يضفي على وجهه شكلاً درامياً إنسانياً. وقد توفي أثناء تقضيتي إحدى عطلاتي الصيفية في إربد، وتأثرت كثيراً لوفاته.

ولكن لهذه المهنة متطلباتها وتعقيداتها كذلك، ولا سيما في المحلات التي تفتح في الحارات ولا يلبث أصحابها أن يغلقوها بعد حين.

كان عبده حسين الفارح موظفاً في إحدى المصالح الحكومية، ويبدو أنه استسهل مهنة تأجير الدراجات، ولما كان من سكان البارحة فقد افتتح محلاً على الشارع الرئيسي شرق جامع الخلايلة بحوالي مئتي متر ويلاصق دكان العم الطيب أبي نعيم. كان الموقع جيداً يخدم صبيان حارتنا وصبيان الجهة الشرقية من البارحة. وبالنسبة لنا أصبح محل عبده ملتقى يومياً لنا صيفاً (طيلة النهار) وشتاء في الفترة المسائية من اليوم. وكان واضحاً أنها ليست مهنة الرجل، ولكن موقع المحل إلى جوار بيوتنا، وطباع الرجل الطيبة، وصادقتنا مع شقيقه الأصغر تيسير، أمور تشجعنا على الدوام على ملازمة محله، لا سيما أنه كان رحب الصدر كريم النفس مع الجميع.

و ذات يوم استأجر ناصر شمامة (دعي بذلك لأن رأسه حين يحلقه "زيرو" كان يشبه الشمامة) "بسكليتا" وأخذ يطوف به شوارع الحارة، وفجأة علا الصياح، وكان الموضع على بعد خطوات، ركضنا (وكان بيننا القاص اللامع فيما بعد خليل قنديل) مع عبده فإذا بشمامة واقف في وسط الشارع وهو يقلب بذهول نظره بيننا وبين الدراجة، صعق الرجل حين رأى رزقه ورأسه وقد استباحه ولد غبي وسائق طائش. ولكن شمامة واجه الموقف بشجاعة، وبدا واضحاً أنه قفز على الرصيف حين شعر بالخطر، وأن السائق توقف قليلاً ثم مضى في سبيله بعد أن تأكد - على ما يبدو - بأن الفتى لم يصب بأذى، دون أن يكثر لمصير الدراجة. كان العجل الخلفي قد سحق بالكامل. ومع أن عبده انفعّل كثيراً، وهدد وتوعد، لكنه في النهاية استسلم للخسارة وترك الفتى وشأنه دون أن يطالب أهله بأي تعويض. والعلم عند الخالق، أن بذرة هجر المهنة نبتت في رأس الرجل منذ تلك الواقعة.

أن يقتني الواحد منا، في النصف الأول من الأول من الستينيات، دراجة خاصة به أمر وارد، ولكنه ليس شائعاً. وفي كل الأحوال، فهو أمر في غاية الخطورة. ولكن هذا حصل مع صديق العمر زهير الملكاوي. إذ اقتنى دراجة قديمة من نوع هيركوليس "بشروة لُقطة" كما يقولون؛ بدينار واحد على ما أذكر. ولكن لكل سلعة ثمنها؛ فقد كانت تلك الدراجة "مقشطة" من كل شيء؛ فلا فرامل ولا جناحين ولا بدالات، ولكن الدراجة البائسة لحسن حظي أو لسوءه - لا أدري - مزودة بمقعد خلفي، فكانت مناسبة لاثنين، إذ

كنت استقل المقعد خلفه ونذهب إلى أي مكان في المدينة أو ما حولها حيث نوقف الدراجة لنبدأ "الكزدره" (المشوار) اليومية التي تنتهي عادة بعشاء إما في مطعم الأردن (لطفاح)، أول شارع إيدون، أو مطعم حُبرم، وكان صاحبه يدعوه "مطعم لبنان"، ويحتل المخزن الغربي الملاصق لصالون فلسطين في شارع فلسطين، أو عند العم "قلينا"، كما سيأتي من كلام. أو قد نكتفي بسندويش من عند العم أحمد الفلافل، وليس من عند غيره أبداً.

و ذات يوم كان زهير يعتلي دراجته، وقد أخذت مكاني على الكرسي الخلفي، وكنا متجهين لتناول الفلافل عن طريق نزول البلدية شديد الانحدار، حيث كان زهير بانتظاري أمام مبنى التدريب المهني الواقع على ظهر التل، بعد انتهاء دوام حصص المهن، وكان هذا المبنى تابعا لمدرسة حمزة، وكنت آنذاك في المرحلة الإعدادية. أما صديقي صاحب الدراجة فقد كان طالبا في المدرسة الصناعية المجاورة (مدرسة وصفي التل الآن)، وأثناء نزولنا بالدراجة لم يستطع "القائد" أن يسيطر على سرعتها (بشحطة الرجل؛ فليس ثمة مكابح) ووجدنا أنفسنا منبطحين على بطوننا فوق أرضية "مكتبة الجامعة" في شارع الهاشمي، المقابلة جنوباً للنزول، ولعناية الله، ورأفته بنا و بالمحل، كانت الأرضية مكوّمة بالدفاتر والمقررات الدراسية، فامتصت هذه الأكوام وقوعنا. المهم استقبلنا بالشتائم المناسبة بلهجة خليلية مشحونة بالغضب والانفعال، وشُيعنا بالشلاليت. أما الدراجة فقد تناولها أحدهم من أرضية المكتبة وطوح

بها بكتا يديه نحو عرض الشارع. وكان القوم كراماً أن اكتفوا بهذا القدر من رد الفعل.

-٧-

كانت مهنة التصوير من بين أكثر المهن انتشاراً. بل يمكن القول إن بعض المصورين كانوا يتفنون في التقاط الصور لبعض شباب المدينة ولرجالها وسيداتهما بشكل عام... صور تكاد تجعل عديدين منهم على هيئة نجوم سينمائية، وكان الكثير من هذه الصور يعرض في "الفتريينات" التي تحتل واجهات استوديوهات التصوير، وأكثر من كان يعنى في "معروضاته" ألبير الأرمني صاحب استوديو رمسيس في شارع السينما، وطالما عمد هذا إلى عرض بعض الصور المكبرة قليلاً ليوثق أحداثاً مهمة في إريد. من مثل زيارات جلالة الملك والمسؤولين الكبار في الدولة لبعض معالم المدينة. ووثق ألبير زيارة الشيخ عبد الباسط عبد الصمد (المقرئ الشهير) لإريد بصورة تجمعهم في صالون أحد المنازل أو إحدى الدوائر وهو مع كبار رجالات المدينة.

وإلى جانب استوديو رمسيس كان هناك استوديوهات يقوم عليها فنانون موهوبون حقاً، ولا سيما استوديو ميشيل في شارع الهاشمي الذي كان يديره حنا السائس، واستوديو أوغاريت الذي كان يديره شقيقه الأكبر ميشيل، إضافة إلى استوديوهات أخرى تحمل أسماء تجمع بين العربي والإفرنجي: استوديو البيروتي، واستوديو ألما، واستوديو العمري، وعشرات غيرها.

وتتم عملية التصوير في غرفة داخلية أو في "سدة علوية" فوق المحل، أما الكاميرا فقد كانت ضخمة قليلاً على ما أذكر، وكانت عملية التقاط الصورة تأخذ وقتاً قد يستمر ربع ساعة أو أكثر، والمصور يحرك رأس الزبون تارة لليمين، وتارة للشمال، ثم يرفع ذقنه قليلاً أو ينزله، وقد يتركه ويغيب عنه طالباً منه أن "يزبط" هيئته أمام المرأة، الموضوع على رفها عدة أمشاط وفراشٍ، والمعلق إلى جانبها عدد من ربطات العنق... لمن يرغب.

ولكن المشهد المدهش كان عمل المصورين الشمسيين، وقد اصطف الناس بالدور لأخذ لقطات لهم واستلام الصور بعد ذلك بقليل. كان هؤلاء يلبون الحاجات المستعجلة التي لا تقدمها استوديوهات التصوير الحديثة، حيث كانت هذه لا تسلم الصورة بعد التقاطها إلا بعد بضعة أيام، وقد يقول حنا السائس -مثلاً- لزبونه قولاً باتاً: عُد مثل اليوم...

استمر مشهد المصورين الشمسيين على ما أذكر، حتى الثمانينيات، وكان مقرهم الدائم وربما الوحيد، الرصيف المحاذي لمحلات الصرافة في شارع الهاشمي، حيث - كذلك - متاجر القماش والأدوات المنزلية والعطارة و"السمانة". وكانت هذه المتاجر معروفة بأسماء أصحابها، ومعظمهم إن لم يكونوا كلهم، جاء من الشام في وقت مبكر من القرن الماضي، من مثل ياسين دركل، والحاج جمعة، والشماع، والصباع، وبركات، وقرمان وغيرهم، وحيث جدران محلاتهم من الخارج تشهد نشاطاً تجارياً بديعاً في تلك الأيام... نشاطاً يتضمن بيع صور معلقة "بالبراويز" المدهشة لشخصيات تاريخية من تراثنا

الأدبي الفلكوري: صورة جساس مبلحاً وهو على ظهر حصانه المتسمر وييده رمح مصوب نحو كليب الطريح على الأرض، وصورة بدر النعام بصدرها الضخم المغربي الذي كان يستوقف عابر السبيل ويثير قبل الأوان المكامن الطافية على السطح لدى من هم على أعتاب المراهقة، قبل الأوان، وكذلك صور بعض الملوك المعاصرين أو الراحلين والزعماء القبليين وكبار قادة الجيش. إضافة إلى أن هذه الجدران كانت معرض كتاب مستمراً لأكثر من باع لكتب التراث الشعبي العربي بخاصة، كألف ليلة وليلة، ومائة يوم ويوم، والأميرة ذات الهمة، وحمزة البهلوان، وسيف بن ذي يزن، وبطبيعة الحال، قصة الزير سالم، وتغريبة بني هلال، وسيرة بني هلال... إلخ..

يكتمل هذا المشهد بالمصورين الشمسيين، وما زالت ثلاث صور لبعضهم متوهجة في الذاكرة حتى اللحظة وبوسعي اليوم أن أستحضر الكثير من المعلومات عن عملهم، وعمل غيرهم بطبيعة الحال، ولكنني لا أرغب - بقدر ما أستطيع - في إقحام وعي الحاضر وأحواله في منطقة من الذاكرة والوجدان حرصاً على حميميتها من أن تخذشها أية "ترقيعات" لاحقة. لقد عاش معي ذلك المشهد عشرات السنين في صورة استمدت عناصرها من الواقع ونمت مكوناتها في الذات ومن خلال الذات فحسب.

لا أذكر أنني عرفت في يوم من الأيام اسم أي من هؤلاء المصورين؛ على الرغم من أن هيئته ووقفته المستمرة لعشرات السنين كافية لإسباغ

"حضور متكامل" له في الوجدان، ومن ثم سأكتفي -فقط- باستحضار ما هو طاف فوق سطح جعبة الذاكرة.

أحدهم الأشقر بنظارة سميكة الزجاجتين يظهر من ورائهما بوضوح رمشان أشقران وكذا حاجبان، يحفان بعينين نظراتهما زائغة. لم تكن شقرته عادية، بل أقرب أن تكون إلى نمط متكرر لعله وراثي، ومع أن الواحد من هؤلاء (الشقر، وقد شاهدت كثيرين منهم) كان بطيء الحركة في العادة، فإن صاحبنا هذا كان نشيطاً دائب العكوف على عمله وكأنه يتعبد. وكان الخبثاء من الصحب - وما أكثر الخبثاء بينهم - يطلق عليه تسمية لا تخلو من طرافة ومفارقة وليست بعيدة عن مهنته: "النيجاتيف"، طبعاً بقانون معاكس للنيجاتيف في عالم التصوير. ولا أذكر أنني سمعته يوماً يتحدث بلسانه، بل ما أعياه أنه كان يتقبل طلب الزبون وملاحظاته بهزة خفيفة من رأسه، وابتسامة رضية من تقاسيم وجهه.

أما المصور الثاني، فكان مميزاً بشكل ذقنه الذي يندفع بتدرج عن مستوى فمه، كان هذا حاذقاً صبوراً، وكان الإقبال عليه كبيراً ربما لمواظبته، حيث إنه لم يكن يفارق موقعه إلا فيما ندر، كان مديد القامة، صارم الملامح، يؤدي عمله وكأنه يقول للناس متحدياً: اتوني بعمل أفضل مما أقدمه.

ولعل المصور الثالث؛ كان أكبر الثلاثة سناً -هكذا بدا لي- في حدود الخمسين، و "صلعته" تحتل سقف رأسه والمساحة الأكبر من الخلف، وعلى الرغم من أن سمرته خفيفة، فإن "الصلعة" كانت أغمق من سائر ملامح

وجهه، ربما لمهنته التي تتطلب وقوفاً على الرصيف تحت الشمس طيلة النهار، شتاءً وصيفاً. كان قصير القامة مرحاً يتسم بحيوية طافحة، لا أذكر أنني رأيته وقد وضع على كتفيه أكثر من قميص صيفاً، و"كنزة" غامقة شتاءً. وذات يوم استعنت به لحاجة عاجلة، نسخ صورة قديمة، فأمضى وقت اشتغاله في الصورة، بالتعليق عليها، وتحليل مكوناتها، واستكناه تفصيلاتها، ولم يجد صعوبة في معرفة المصور الأصلي صاحب اللقطة، رغم أن الكتابة على ظهر الصورة بالكاد تظهر آثارها.

كانت أدوات الواحد من هؤلاء المصورين ومستلزماته تتكون من كاميرا فوق حامل بأرجل خشبية، من شأنه أن يصنع هرمًا متساوي الأضلاع والمسافات، إضافة إلى كرسي خشبي في الصدر ليجلس عليه الزبون. أما الكاميرا نفسها فقد كانت - بالنسبة لنا - صندوقاً خشبياً حافلاً بالأسرار والألغاز التي لم يستطع أحد منا أن يسبر أغواره ولو بالخيال، ويتدلى من الصندوق كيس من القماش الأسود السميك، كالحلزون بطبيعة الحال، يتسع - أحياناً - لرأس المصور وإحدى يديه حيث يقوم بعملية التحميض والطبع. إنه مختبر تصوير متكامل لا يتعدى حجمه نصف متر مربعاً. وقد تستغرق العملية، والرأس داخل الصندوق مدة لا تقل عن عشر دقائق، وقد تمتد لضعف هذا الزمن، ليخرج بعدها الرأس واليد تحمل مربعين من الصور الصغيرة المبللة "الرسمية" يتم قصها حسب القياس الذي تشرطه الدوائر الرسمية دون سواه. ويا لها من هيئة إذ يتم إجلاس الزبون على كرسي قش أو

خيزران أمام الكاميرا، ويطلب المصور من الزبون أن يفتح عينيه (إلى درجة البحلقة) ويسمرهما باتجاه يده اليسرى حتى يفرقع أصابعها. ولعل الغرض الأكثر ملاءمة لتلك اللقطة كان- في الاستعمال المفترض- مطلوب للعدالة، أو ملامح شخص متسائل أو مندهش، وربما مذعور. ثم يأخذ المصور، بقص شريحتي الصور المبلولتين إلى ثماني أو ست عشرة صورة، وكان الحد الأدنى من الصور لا يقل عن أربع-على ما أذكر- سواء للقطعة الحية Live أو للنسخ عن صور أخرى. وما أذكره من هذه البيانات قد يختلف قليلا من مصور لآخر، ولكنني أوردته بناء على مشاهداتي "العينية" وتجاربي الشخصية.

وكان أكثر ما يثير اهتمامي هيئة السيدات الريفيات (وبعضهن من قريباتي). وكنت ألاحظ عناية خاصة من المصورين بوضع "الحطة" النسائية و"تزييظها"؛ ففي بعض اللقطات، تتجسد الواحدة منهن ملكة تضع التاج على رأسها، وذلك حين تنوب "العُرْجة" (وهي طوق من الليرات الذهبية) عن الحطة أو تطوقها لتظهر معها في اللقطة. ولم تكن الهيئة الرصينة (الرسمية) لتكتمل إلا مع ارتداء الدامر "غامق الاخضرار، وهو رداء شتوي شبيه بالجاكيت خاص بالسيدات تضعه السيدة على كتفها فوق "شُرْش الحبر" أو المخمل، إذا خرجت من المنزل أو إذا استقبلت ضيوفا غرباء من ذوي المكانة الخاصة.

٨

ظل محل أحمد طلفاح (أحمد الفلافل) لبيع السندويشات حتى عهد قريب (بل ما زال إلى اليوم) أهم المحلات التي تبيع هذا الصنف وأشهرها وأكثرها رواجاً وأتقنها صنعة في منطقة وسط البلد؛ فالرجل سمح كريم النفس سخي اليد يفهم أصول الصنعة وأسرارها وبخاصة خلطة التوابل ونظافة الزيوت، وكان، ومساعدته الطيب البدين حيدر، طوع الزبون في حشو الرغيف التنوري - بخاصة - بكل ما يطلبه من إضافات؛ بطاطا، باذنجان مقلي، شطة، لفت أو مخللات، عصر نصف ليمونة زيادة، بالإضافة إلى ملء ملعقة كبيرة أو اثنتين من السلطة الطازجة بنوعيهما؛ بالطحينية أو دونها ... كانت وجبة حقاً، بقرشين، تكفي الكبير قبل الصغير.

وقد تحدثت في سياق سابق عن صحن فول ياسين الأسطوري، ولكنني أضيف إليه ساندويش أحمد وجبة بلدية أخرى لا تقل دسامة وطيب مذاق وإتقاناً، وكنا نلجأ إليها قبل شيوع شهرة ياسين.

وكانت تلك المنطقة مقصداً للتبضع وقاصدي الطعام وبخاصة القادمون من القرى المحيطة بإربد. والمعروف أن إربد كانت وماتزال مركزاً تجارياً لمنطقتها كلها يفد إليها الآلاف كل صباح، ويغادرونها - في معظمهم - مع العصر، وقد تزودوا بمشترياتهم ومعظمها تأتي من مدن الضفة الغربية (آنذاك) وعمان ودمشق بطبيعة الحال. بل إن بعضها كان مُصنَّعاً في إربد مثل الملابس والراحة (الحلقوم) والحلاوة والكعكبان والموالح (من قضاة وبزر

وفستق وغيره). كان المصنع الأول للحلويات لعبد اللطيف أبي بكر، الذي قدم من يعبد في فلسطين، وكان رائداً حقاً من رواد صناعة السكريات البلدية في إربد. أما "التسالي" فقد انعقدت ريادتها في ذلك الحين لآل القضايني، وهم من شوام إربد، وكانت منتجاتهم مضرب المثل في إتقان إعدادها وطيب مذاقها.

عدد كبير من القادمين من القرى المجاورة كانوا مجبرين على تناول وجبة واحدة على الأقل أثناء تقضيتهم سحابة النهار. فكان مقصدهم تلك المطاعم القائم بعضها إلى اليوم بعد أن جرى تطويرها وتوسيعها، وعدد منها في شارع الملك فيصل الموازي جنوباً لشارع الهاشمي. كان هذا الشارع نسخة قريبة من شوارع دمشق (ساحة المرجة تحديداً) وفيه نفح من روحها. بل إن معظم التجار وبعض أصحاب المطاعم كانوا من أصول شامية. ولعل المقصد الأهم لزوار إربد من القادمين النهاريين من القرى كان مطعم "قلينا" الشهير صاحبه "بأبي ظهير".

يقف أبو ظهير أمام سدر القلي ملكا متوجا لعالم "الفشافش" (من فشة المعاليق وتوابعها) في محله القابع تحت الدرج الذي يصل شارع فيصل بحسبة المفرق القديمة، وهي في الأصل جزء من ساحة الجامع الشرقي، وقد أصبحت الآن تحمل اسم سوق البخارية الجديد بعد احتراق السوق القديم الكائن في الدخلة التي تحد شرقاً مبنى المحكمة القديم، في شارع الهاشمي... يقف أبو ظهير أمام محتويات السدر الضخم الحافل بشقف المعاليق البلدية

بطبيعة الحال، إضافة إلى الكلاوي والطحالات ويبيض الغنم و"الحلويات"، وهي الغدد الدهنية المرافقة "للمعلاق" وهو يحرك المحتويات ويقلبها بالدهن الذي يرشح "منها وفيها" ... لا أشهى ولا أزكى ولا أروع. وكأني بالقادم القروي من خارج إريد يفض نزاعاً مع ربه حول غداء ذلك اليوم بقوله: "يا زلمة خَلِّها (الوجبة) عند قلينا" (بتفخيم اللام).

وكثيراً ما كنا نأخذ مجلسنا في مطعمه الذي يشبه السرداب، ونطلب من العم أبي ظهير أن يتوصى بنا، وهذا يعني أقل قدر من الفشاش والحلويات وأكبر قدر من الكبد والقلوب والكلاوي. وكان "قلينا" (وهو اللقب الذي غلب على أبي ظهير)، يلتزم بهيئة ثابتة، وملابسه شبه الدائمة: شروال أسود يصل إلى منتصف صدره، وسلك أزرق يلف به رأسه (دون عقال) و"لفحة" دائمة تطوق عنقه صيفاً وشتاءً... وانحناءة ظهر بشكل شبه كروي تجعل من يراه يظنه أحدب وما هو بأحدب؛ بل كان ضحية لوصفة من الطب العربي (الشعبي) كما روى لي القصة ذات يوم منذر أحد أبنائه.

لم يكن أبو ظهير إذن في شبابه في الهيئة التي عرفناه بها؛ بل كان رجلاً مكتمل الهيئة. أصيب يوماً بلفحة صدرية، فنصحته أحد أصدقائه من "بلدياته" بأن يستلقي على ظهره وقد أحاط نفسه بزنا من نار الحطب، والبخار المنبعث من قدور ماء يغلي، وأمضى على هذا الحال ساعات طويلة؛ ليستيقظ بعدها وقد التصق ذقنه بصدره في عاهة لازمته بقية حياته.

ورغم هذا فقد كان نشيطاً، تراه في محله منذ الفجر، وحتى ما بعد العشاء، ملازماً وضعه أمام السدر دون أن يفارق محله. قليل الكلام ذو لهجة دمشقية محببة، وكان يساعده في محله ابنه الأكبر "الخریم" وابن آخر أصغر لعل اسمه طلال، وكانوا في منتهى الكرم والدمائة والنظافة والسرعة في تلبية طلبات الزبائن.

٩-

وكانت المنطقة تعج بأصحاب المهن الأخرى، وبعضها أشغال "على باب الله"؛ كالحمالين مثلاً، وهؤلاء كانوا فئات، بعضهم يختص بمرافقة المتسوقين في سوق الخضار أو عند محلات السمانة، بعرباتهم ذوات العجلات الثلاث، أو بالسلال المعلقة على ظهورهم. أما البعض الآخر، فهم "جبابرة" التحميل والتفريغ للبضائع، (ومعظمها بالحوالات أو الصناديق الخشبية الضخمة)... من "التركات" الكبيرة أو المتوسطة من نوع بدفورد على الأغلب، وكان يطلق على الواحد منه "البكم الأفتس".

ومعظم هؤلاء الكادحون يعمل بنظام "المقاولة". وتعني "المقاولة" الاتفاق مع كبير من هؤلاء الجبابرة على إنزال حمولة سيارة شحن من الأكياس والبضائع إلى المحلات مقابل بدل معين يأخذ "كبيرهم" منه نصيب الأسد لنفسه ويوزع الباقي على من عاونه من الحمالين الأقل أهمية... فالناس بكل فئاتهم درجات ومقامات. ويبدأ عملهم في العادة مع المساء. وقد خفت حركة الناس في الشوارع.

كنت أراقب أشهر هؤلاء الشيالين واسمه "أبو راس" وهو ينزل حمولة شاحنة عملاقة، من أكياس الطحين والسكر والأرز وخلاف ذلك إلى محلات أبي صالح الخوري، والبستوني التي تقابلها، والملاحين (آل الملاح) وغيرهم. طبعاً لم يكن "أبو راس" وحده، بل كان يستعين بمساعدين اثنين أو ثلاثة أو ربما أكثر، كان المساعد يصعد إلى ظهر الشاحنة، ويضع الكيس على الحافة ليأتي المعلم ويدخرجه على ظهره المدرع بجوال أبو "خطين حمر" يغطي الرأس كذلك. كنت أنظر إلى قدميه الحافيتين وقد رسمت عليهما خرائط متنوعة فوق طبقة بارزة من العرق المجبول بالغبار والتراب تتجذر مع الأيام، في مساحات لم تشهد ماء الغسل منذ قرون... من المؤكد أن قدميه لامسا الماء، ولكنه الماء الآسن في الشوارع من آثار الشتاء أو من غسيل الأرصفة... وأستفيق (اليوم) من ذكرى تأملي لقدميه على تمثلي صوته الأَجَش وهو ينهر أحد مساعديه أو يلقي إليه "بتعليمات" جديدة. كان ذقنه دائماً غير حليق، ولا أقول إنه ملتج، وكلما نطق بكلمة مسح فمه بطرف ساعده. ولم يكن إنزال السيارة ليأخذ منه أكثر ساعة أو ساعة ونصف على الأكثر ليعود أبو راس-إن لم تكن شاحنة أخرى تنتظر التفريغ أو التحميل- طليقا في الشوارع يمازح الناس. وذات يوم سمعته يرد بانفعال على بائع اتخذ بسطته على الرصيف المحاذي لمخيمة راشد العابد على ميدان الملك عبد الله (عمارة الرجال): "مين قلقك ولكلّ إني أبو راس واحد؟... ولك أنا أبو سبع روس.. بكسر عليهم سبعين ع... زيك"؛ ذلك أن البائع ناداه: "أبو راس قدّ الطاس".

على أن أشد صور العتالين انطباعاً في ذاكرتي ظلت لقاسم زعبوب .
 لم تكن هيئته (خارج أوقات الشغل) هيئة حمال، بل هيئة موظف
 أكابر إن جاز التعبير، وكان يرتدي دائماً بذلة سوداء قديمة كالحلة اللون،
 معتمراً - إلا في أثناء التحميل - الكوفية (الزرقاء) (البيضاء المنقطة بالسواد)
 حيث يضعها جانباً أثناء الشغل، ثم يضع على كتفيه، ورأسه بطبيعة الحال
 الجوال المعهود، ويعمل بصمت، مساعداً لأبي راس أحياناً، أو لحسابه مباشرة
 في معظم الأحيان، وكثيراً ما لاحظنا أنه ما أن ينهي عمله مساء حتى يتجه -
 بهيئته الأخرى/ الأنيقة- إلى خرابيش النور الواقعة في السهل المقابل جنوباً
 لمستشفى الأميرة بسمة (أرض الدراوشة)، حيث لا يسألهم أحد عن إقامة
 مضاربهم خريفاً بعد انتهاء موسم الزراعة الصيفية: قلع الحمص أو قطف
 البامية أو جمع القثاء... إلخ.

وكان زعبوب يدخل إلى مضارب النور وكأنه واحد من القوم (ولعله
 كذلك)، وكنا نراقبه من شقوق الخربوش حين نتسلل ليلاً أو من بابه المفتوح
 عصرًا، وهو يجالس القوم ويبادلهم الأحاديث. وكان المكان مقصداً لكثيرين
 من "رجالات" البلدة، وكنا نعرفهم بالاسم والموقع الوظيفي واحداً واحداً،
 ولكننا نسكت لأن كثيرين منهم كانوا من معارفنا، وربما من أقاربنا، بل إن إن
 أحدهم كان معلماً في مدرستنا. وكان الواحد من هؤلاء الزبائن، على استعداد
 لأن يلقي أي صبي يتناول بلسانه درساً لن ينساه مدى عمره، ولا سيما أولئك
 الزبائن من مفتولي العضلات. وقبل العودة إلى قاسم أود أن أذكر طرفاً من

تجاري الشخصية مع جيراننا من النور، أثناء عطلة الصيف بخاصة. كنت في حدود العاشرة، وكان منزلنا المستأجر قريباً من مسجد أبي حشمة (قبل إنشائه)، والواقع - الآن - مباشرة على شارع فلسطين، ومنذ صغري... كنتُ مأخوذاً بأداة النفخ التي يستعملها الحداد، الكور (أي الكير) وكثيراً ما ذهبت إلى خربوش "لافي" حيث ورشته للحداة والصياغة قائمة قاعدة، وكان هذا يسمح لي بأن أساعد في إدارة بكرة النفخ للكور الصغير، وهي عملية ممتعة، أنقنتها لدرجة أنني كنت أضبط إيقاع حركاتي حسب حركات لافي في تحمير الحديد، أو إذابة الرصاص لحشو أسنان الذهب والفضة المسروقة من جماجم القبور التي عفا عليها الزمن، كما كان يردد جابر الأعور كبير أشقياء الحارة، حين تأتي سيرة النور في حضوره.

وفي الذاكرة ثمة موقف يشهد على جرأة زعبوب وشراسته كان ضحيته كبير "البويجية" (ماسحي الأحذية) الذين كانوا يتخذون تجمعاً لهم، حتى عهد قريب، رصيف عمارة أبي حسن الرشيدات (التي كانت تضم المقر القديم للبنك الأهلي وفوقه فندق الوحدة العربية ومقهى الكمال)؛ فعلى تلك الزاوية من رصيف العمارة دب نزاع حول أمر ما بين ماسح الأحذية المسن وزعوب الشيال، ولسوء حظ البويجي كان زعبوب في ملابس الشغل، ويحمل عدته وأهمها الحبل الغليظ القصير الذي ينتهي من أحد طرفيه بحلقة حديدية ذات ثقل معتبر، وسرعان ما جعل قاسم من الحبل والحلقة ما يشبه مقلاعاً هوى به على الرجل المسكين مستهدفاً رأسه، ولكن لطف المولى، حسب ما

سمعت؛ فأنا لم أحضر الواقعة، جعل كتف الرجل وليس رأسه مستقراً للقذيفة...

و ذات يوم استيقظنا على خبر غريب؛ لقد مات زعبوب فجأة. كان الخبر مفاجأة كاملة لكل من عرفه؛ فقد كان الرجل طويلاً عريضاً ملء السمع والبصر، بجسم وملامح أقرب إلى نجوم الأبيض والأسود؛ هل تذكر ملامح الممثل المصري حسن حامد إذ يجمع بين مهنتي البلطجة والتحميل في الموانئ؟ قاسم زعبوب بهيئة "ما بعد الشغل" وهندامها، هو ذلك الممثل الذي اعتدنا عليه بدور الوغد.

ولعلني اليوم في تنقيبي في الذاكرة والوجدان، أدرك أن موت قاسم ما كان يجب أن ينطوي على مفاجأة بالنسبة لي؛ إذ على الرغم من ضخامة جسده ومشيته الواثقة، اتسم لون وجهه دائماً بميل إلى الاصفرار. بل إن هذا اللون كان يشمل بياض عينيه الحزيتين حادتي النظرات، ولكنهما يقدحان بالشرر الناري حين يتناهى إلى سمعه تعريض أحدنا به: "زعبوب... زعبوب... باللبنية". وقد أحدث موته حزناً بل مناحة في مضارب النور، إذ سمعت بأذني الحسنة "وزيرة" وهي تندبه أمام أحد زوارها من معارفه، على ما يبدو: "ياويلي عليك (عليك) يا قاسم"...

أما "بهلول" فهو الثالث ممن علقت صورتهم بذاكرتي من فئة الحمالين. مازالت تلك الصورة ماثلة بل منطبعة في وجداني: ثوب شبه وحيد على شكل كيس يحيط برقبته وبطنه وظهره المحدودب كأنه نصف كرة كبيرة،

إحاطة السواد بالمعصم، ويضع فوق رأسه صيفاً وشتاءً طاقة صوفية تقيه حر الشمس أو برودة الجو!

كان بهلول صديقاً للجميع ولا سيما الصغار، كما كان محدثاً لبقاً وحكماً بارعاً. أذكر أنني كنت ضمن مجموعة من رهطي منتحين ركناً بين البيوت في يوم بارد ماطر وقد أوقدنا ناراً نستدفئ بها. انضم إلينا بهلول وراح يحكي لنا مكيدة العجوز سعاد مع كليب وجساس، وكنت أسمعها لأول مرة، ومازالت طريقة نطق بهلول لاسم جساس ترن في أذني بإيقاعها "الموسق".

أما شهامة بهلول وقناعته بالقليل بل وزهده فحدث عن ذلك ولا حرج. يخف لتلبية أي محتاج لخدماته دون اشتراط البدل ويرضى بأقل القليل بل يلحق كل خدمة يؤديها بابتسامة رضية في وجه من استخدمه. وظللت دائم السؤال عن بهلول، بعد اختفائه عن ناظري، كلما التقيت بواحد من أبناء أخته، وكان أحدهم، وقد أصبح طبيباً ذا مكانة مرموقة، يتسم وهو يجيبني: "إنه بخير، ويسألني أحياناً عن أحوالك وأحوال أشقائك..." على العموم رحل بهلول بصمت، وكان علمي برحيله عن طريق سؤالي المتكرر لابن شقيقته الدكتور حسين... لعل ذلك كان في منتصف السبعينيات، وكان خاله قد تقاعد من مهنة "العتالة" منذ زمن بعيد.

نحو المدينة

- ١ -

مع نهاية الخمسينيات، وفي حارتنا الجديدة، في حي أبي اللجا، وفي المنطقة المحيطة بمستشفى الأميرة بسمة، عاصرت العديد من عمليات شق الشوارع ورصفها وتزفيتها وتوسيع القديم منها. مع أن بعض هذه الشوارع كان قديماً وبخاصة شرقي المستشفى، قد رص بعض أجزائه بالحجارة السوداء، بما يشبه شوارع أوروبا الكلاسيكية المجددة في أيامنا هذه... وقد أدركت فيما بعد مدي الحيف الذي لحق بإربد جراء مشاريع "التحديث" العشوائية، ومن ضمنها اقتلاع الحجارة السوداء من شوارعها التاريخية ووضع خلطة الزفت مكانها أو فوقها. مأساة بل كارثة حلت على التراث المعماري في إربد... لكنني كنت أجد في عملية "التزفيت" - صيباً - متعة ولا أي متعة، وبخاصة في الشوارع التي كانت تشق لأول مرة في الحارة، باتجاه حي القصيلة تحديداً، ولعل أكثر ما كان يشدني والربع من الأصحاب، عمل المداحل الثلاث المشهورة - آنذاك - في إربد: الحمراء والصفراء والزرقاء.

كان "خالد أبو سالم" (المتعهد فيما بعد) أشهر سائقي المداحل، وأبرعهم، بإجماع الناس جميعاً. إنه صاحب المدحلة الصفراء، يساعده، أو يتناوب معه شقيقه أو قريبه "البرُّد"؛ لا أذكر اسم هذا الأخير الحقيقي، ولكن علق في ذهنه لقبه ذو الإيقاع المتساوق مع حركة المدحلة، لحظة بدء تشغيلها.

وكانت "خنشرتة" باتجاه الصغار المشاغبين كافية لتفريق جمعهم وتبديد شملهم.

على أن "خالد" بتقطيئته الدائمة وجديته الصارمة، كان الملك غير المتوج فوق العرش الأصفر بسيجارته التي لا تفارق فمه إلا عند تناوله رشفة من أستكانة الشاي، كل هذا داخل الحجرة الزجاجية/ المقصورة حيث الأبهة التي تعلو عن سطح الشارع بحوالي مترين، وكان فناً بمعنى الكلمة حين يجعل العجلات الحديدية الضخمة الثلاث ترص الخلطة وتصيرها سطحاً أملس ناعماً، وكأن أثر العجلات الثلاث على الأرضية ناجم عن عجلة واحدة، إذ يستدرك العجلان الخلفيان ما كان أحدثه العجل الأمامي من بروزات على الحافتين، ليأتي العجلان الضخمان فيسويان الحواف الوسطى والجانبية دون نتوء أو بروز في هذا الجانب أو ذاك. وما أروع حركته مع عجلة القيادة الصغيرة حين يستدير بلمح البصر إلى الخلف، وقد جعل خلف المدحلة أمامها وأمامها خلفها، ثم يبدأ رحلة "الرفيرس" بيديه من الخلف ووجهه وسائر هيئته حيث تتجه المدحلة أماماً من جهتها الخلفية أي بالرفيرس، أما البراعة فتتبدى في حركة يده من خلف ظهره وهو يتحكم بالعجلة أو بالمقود ذي المقبض الذي يساعد على الدوران بأقصى سرعة دون أن يلتفت ولو لحظة إلى الخلف، وحين يصل غايته في الشارع المتحكم بأديمه تعود المدحلة إلى سيرها الطبيعي.

وكان خالد جاد الملامح صارم الوجه رصين الحركات والإشارات مع العاملين، كنت تحس أنه قائد مدرعة عسكرية لا سائق مدحلة، وكان بيته قريباً من موضع العمل الذي أتحدث عنه (شرق البركة الغربية)، وكثيراً ما راقبناه وقت انتهاء العمل وقد ركض إليه أبنائه الصغار مهللين فكان يحمل هذا بيده، أو يقود ذاك بيده الأخرى. لم يعمر خالد أبو سالم طويلاً، بل توفي - على ما أظن - وهو في الأربعينيات من عمره.

لكن "شاويش عمال الزفتة" كما يطلق عليه العمال وأهل الحارة، كان شخصية مختلفة، رغم طبيته وحرصه على سلامة الصغار. كان أقرب إلى البدانة، مع كرش متوسط تصعب إحاطته بالحزام؛ فيصر "كمر البنطلون" على الانزلاق نحو الأسفل فيظهر جزء من الملابس الداخلية العليا والسفلى وأحياناً بتجلى للنظر ما هو تحتها؛ فيضطر بشير، وهو اسم الشاويش، إلى الإمساك الدائم بحزامه ويسراه وقد أفلت النصف السفلي لقميصه من سيطرة "الكمر"، وكان يشرف على تنزيل الرمل والحجارة من القلابات ويحدد لها مواقع التفريغ. دائم العصبية يصرخ باستمرار على الأولاد الفضوليين، وبينهم بعض الكبار ممن يصر على المشي فوق طبقة الخلطة الجديدة قبل أن تشتد وتجمد. وتكتمل طرافة المشهد وهو يحمل عصاه (من خشب الطوبار) ويلوح بها تجاه الصغار متوعداً بالويل والثبور كل من يقترب من براميل الزفتة المغلية ومواقدها. وكان متعاوناً مع رجال الحي؛ فيستجيب لهذا يطلب أن تمتد "الزفتة" لباب بيته، وذاك "يشحد" وهو يحمل صفيحة من التنك قليلاً من

الزفتة السائلة "يمدها" على سطح منزله، ولم يكن يرد أحداً حتى لو تكرر طلبه، وهذا ما وقع مع جارنا أبي غسان الذي طلب الزفتة السائلة من "الشاويش" ثلاث مرات أو أكثر.

وكان "الشاويش" إلى جانب حذبه على الصغار وكرمه مع الكبار، مرهوب الجانب من جانب العمال، ولا سيما المتكاسلون منهم، ممن كانوا— ما أن يدير بشير ظهره— حتى يترك الواحد منهم شاكوش الرّصف أو قفة الحمل أو عربة النقل الحديدية، ويتجه شطر أحد الجدران للجلوس في الظل ويعد "دور" شاي جديداً. ولكن ما أن يلوح ظل بشير، حتى يهرولوا إلى عملهم وبعضهم يردد: "إجا الشاويش ... إجا الشاويش". أما نحن اليافعين فلم تكن "رتبه" المدّعاة تعيننا من قريب أو بعيد. بل لم تكن تسلم من أذانا اللفظي وسخريتنا السافرة (وربما كان حرف اللام أولى من الراء في هذه الكلمة الأخيرة)؛ فكنا نقوم بحركات بأيدينا تشير إلى عظمة كرشه متراقصين أمامه وهاتفين بصوت نعتقد أنه يحاكي صوته: "شاويش عمال الزفتة ... شاويش عمال الزفتة"؛ فيتمتم بكلام لا نسمعه، ولكنه بالتأكيد ضرب من الشتيمة... لا شك في أن "الزفتة" كانت إحدى مفرداته.

-٢-

كان قدوم الشركة الألمانية لإربد في النصف الأول من الستينيات لإنجاز شبكة كهرباء حديثة حدثاً تاريخياً ومفصلياً من وجهة نظري، أضفى على إربد صفة أخرى "للمدينة"، وخلخل عنها إلى حد بعيد إطار البلدة.

لم تكن إربد خالية من الكهرباء بل كان فيها قبل مجيء الألمان شبكة كهربائية تصل إلى الأحياء الرئيسية في أرجاء البلدة كافة. وكنت أسمع الناس يتحدثون عن كهرباء يغمور، وحين بدأت دراستي الابتدائية في مدرسة أبي عبيدة كان مروري اليومي حتماً من أمام مبنى شركة الكهرباء. وأذكر أن هدير الموتورات كان يصل إلى أسماعنا ونحن في بيتنا البعيد غرباً عن مبنى الشركة بما لا يقل عن ثلاثة كيلومترات، وكان في أعلى حالاته في ساعات الفجر الأولى؛ بل اعتدت أحياناً أن أضبط استيقاظي فجراً على هدير الموتورات مع بدء تشغيلها، قبل أن يتكرر هذا-بعد سنوات- بسبب موتورات الشركة الجديدة في شارع الحصن. ما زال منظر المدخنة العالية (الصنافور كما كانوا يطلقون عليه) في شارع بغداد مطبوعاً في ذاكرتي إلى اليوم، بشكله الخاص حيث قطره يتجاوز المتر في أسفله، ليتخذ شكلاً مخروطياً رفيعاً في أعلاه.

لم يكن عدد المشتركين كبيراً، بل أذكر أن الكهرباء لم تصل بيتنا قبل عام ١٩٥٦- حيث كانت الإنارة المنزلية تعتمد على المصابيح من نوع "ضو أو بنورة نمرة ٣ ونمرة ٤ ونمرة ٥" بزجاجاتها الرقيقة بالغة الشفافية والنصاعة، والأنيقة المكتوب عليها في أعلى "البنورة" باللون الذهبي: "ياسين/ صنع في مصر". أما الإضاءة الأنجع، حين يأتي الضيوف للسهرة التي كانت تنعقد في ساحة بيتنا شبه يومياً؛ فقد كان "اللوكس" نجمها الأسطع. ويا له من اختراع؛ كيس اللوكس ناصع البياض الذي يتخذ شكل المنخل، إذ يتعرض للاشتعال

أول مرة، فينتفخ ويتخذ شكلاً مخروطياً، ويظل على هذه الحال حتى تأتيه هزة عنيفة من عملية نقل أو هبة هوائية أو تسرب ريح أثناء تعبئة الكاز، ليتداعى ويسقط قطعاً شديدة الانسحاق متناثرة ما أن تلمسها حتى تتحول إلى مسحوق ناعم، ولا أقول إلى رماد، دونه في النعومة الدقيق أو السكر المرشوش فوق الحلويات. وكانت عملية إشعال اللوكس احتفالاً يومياً صغيراً، حيث كنا نراقب الكيس وهو يتحول إلى اللون الأحمر ليتخذ تدريجياً اللون الأبيض المتوهج. وأذكر أن الناس لم تستغن عنه حتى بعد انتشار الإنارة الكهربائية، ولا سيما في مرحلتها الأولى أيام شركة يغمور. كان هذا حال بيتنا على الأقل، ولاشتر اكنا مع هذه الشركة قصة.



كان شقيقي الكبير أديب فنياً كهربائياً في بداية حياته العملية وذلك قبل أن يصبح معلماً، ويباهي دائماً أنه تعلم الكهرباء على يد المعلم "كربيت" الأرمني، وكان هذا مشهوداً له بالحذق والبراعة، قبل أن ينتقل فيما بعد إلى عمان حيث أصبح تاجر أدوات ومعدات كهربائية يشار إليه بالبنان.

كنا سعداء في الليلة الأولى لوصول الكهرباء بيتنا، في حين كان شقيقي منشغلاً بأمر آخر. وفي حدود التاسعة مساءً سمعنا طرقات على الباب، فإذا بفنيين من شركة الكهرباء يقتحمون المنزل ويتجهون رأساً نحو "الساعة" (العداد) وبحركة بسيطة فصلوا السلك، وعم الظلام، ولم نحتج لكبير عناء لفهم جلية الأمر. فقد لاحظت شقيقي الكبري - كما أخبرتنا بعد مغادرة القوم - أن أخي بدأ يعبث بساعة الكهرباء المعلقة في غرفة الضيوف مباشرة يعد تركيبها، ولم تول الأمر أهمية إلا بعد أن قطع التيار، ومن ثم جاء إفشاؤها للسر بعد فوات الأوان. لم يكن الوالد في البيت حينها فتم إخباره بما وقع حيث كان؛ فلم يعد إلى البيت حتى كان عالج الأمر ودفع الغرامة وعادت الإنارة في الليلة نفسها بحكم معرفته بالحاج صاحب الشركة. وأذكر أن الفني الذي جاء ليعيد التيار، وكان شاباً ظريفاً، قال أثناء مغادرته: "وين أديسون تبع هالدار؟" ولئن كان أديسون ظل مجهولاً بالنسبة للشركة؛ فإن الذي ما زال سرّاً غامضاً هو الطريقة التي اكتشف بها أمر "السرقه". وحتى الساعة ما زلت أطرح الافتراض تلو الآخر دون أن أستقر إلى نتيجة حاسمة.

ذات يوم فتح الناس في إربد أعينهم على عمليات حفر أخاديد ضخمة، بمئات العمال في جميع الشوارع المعروفة في ذلك الحين، ثم بدأنا نشاهد "رولات" ضخمة قطر الواحد منها قد يجاوز مترين، تضم كوابل غليظة، وبعضها كان على ما أذكر في سُمْك عشرة سنتمترات وربما أكثر، وفهمت من حديث الناس أن الألمان قد تعهدوا بإنارة إربد كما تنار المدن الكبيرة، وكثرت الأحاديث حول اصطفاء إربد لهذا المشروع دوناً عن مدن المملكة الأخرى. وشاعت النوادر الساخرة التي افترضت أن أهل التركمان، وكان لهم حي خاص بهم بدأ يتشكل على الطرف الغربي الجنوبي من البلدة، وكان المئات منهم في ألمانيا، هم من قاموا بالمساعي الحميدة، وأن الألمان يقومون بهذا العمل إكراماً للسيدات الألمانيات اللواتي يعشن في إربد معززات مكرمات وبالطريقة التي تعيش فيها نساء البلدة، بل إن بعضهن كان يقلّي الفلافل إلى جانب أزواجهن سعيّاً وراء لقمة العيش. ولكن هذه الأقاويل سرعان ما تبدد حين يقف معلم مدرسة مثقف بين زملائه، وعلى مسمع من الطلبة، وكنت أحدهم، فيقول عن هذه الإشاعات "يا سلام...وين راحت حكومة وصفني؟"

وكانت شوارع البلدة تشهد حالة أقرب إلى الاحتفال مع مشهد العمال وهم يمدون الكوابل الضخمة داخل الأخاديد، أو وهم يحركون "الرول" الشبيه بعجل قطره متران أو أكثر، ومعهم بعض العاملين من الألمان، وأذكر أن كبيرهم يدعى "هيل". كان طويلاً ممتلئاً أحمر الوجه منمشاً، وذات يوم حاول

العمال دفع العجل (الرول) الضخم في شارع صاعد شمالاً متفرع عن شارع فلسطين، وكانت العملية تتطلب جهداً مضاعفاً. وكاد العجل أن يكتسح العمال وينزلق جنوباً عكس الجهة المتوخاه، ولكن حسن دراية هيل وحذقه وسرعة حركاته حالت دون ذلك؛ فلم يلبث الرول أن أخذ طريقه إلى أعلى بعزيمه العمال وشطارة ربانهم، وسرعان ما انطلق هتاف من الأعماق يتساقق إيقاعياً مع كل دفعة (أو دفشة) إلى أعلى: "هيل هيل هيل... هيل هيل هيل....".

تم إنجاز المشروع في أشهر قليلة. واختلف مشهد المدينة بشوارعها الحديثة بالأعمدة المصفوفة على الجانبين وداخل جزر الشوارع. وكان منظرًا مسائياً جديداً وجميلاً أن ترى صفوف المصابيح الطويلة المضاءة باللون الأحمر، في بادئ الأمر وقبيل الغروب، أولاً، ثم يتدرج اللون إلى الأصفر، وأخيراً تتوهج المصابيح باللون الأبيض المشع.

ولكن برزت مشكلة، وفي نوعية الأعمدة تحديداً؛ إذ يبدو أن واضعي المواصفات في المشروع لم يقدرُوا جيداً شدة الرياح التي تعصف أحياناً بالمدينة ليلاً، فكان المعدن الذي صنعت منه الأعمدة أضعف من قوة الريح، بل أقل تحملاً لأي صدمة. فأخذت الأعمدة تنهار واحداً إثر آخر بفعل ثقل الذراعين - حاملِي المصباحين - العلويين والممتدين إلى جانب العمود القائم لمترين أو أكثر في كل جهة. تفاقمت المشكلة بعد رحيل الشركة الألمانية، وأذكر أنني كنت عائداً من السينما في حدود العاشرة ليلاً، وكانت ليلة ممطرة

وعاصفة، وفجأة طار العمود، مزدوج الجناحين، وانقذف باتجاهي، وكانت رحمة الله فحسب، السبب الوحيد لنجاتي في ذلك الشارع المقفر بالقرب من بيتنا. وأخذت الشركة المحلية (على ما يبدو) تتدارك الأمر فقامت بتغيير الأعمدة تتابعاً؛ أي كلما يسقط عمود جيء بآخر أكثر صلابة، ولكن أقل جمالاً من الأعمدة الرومانية الرقيقة التي وضعها الألمان .

وقد جلب المشروع بعض المنافع لعدد من المسترزين صغاراً وكباراً، وبخاصة قهامو الخردوات ممن يتبعون سقط المتاع وغيره، ودأب هؤلاء على ملاحقة ورش التمديد أنى اتجهت، يسطون على بقايا الأسلاك المقصوفة، ثم يجردونها من أغطيتها المطاطية أو البلاستيكية، ويستخرجون أسلاك النحاس الأحمر الجميل، ويبيعونه إما لأبي ممدوح الأمعري في الدخلة المتفرعة عن شارع عرار (حسب تسميته الحديثة) أو لجورج الأرمني في محله المطل شرقاً والواقع مباشرة على الميدان، أو لعقلة الغوراني، الذي كان يدير محلاً لشراء بقايا الحديد والنحاس على شكل "براكية" في قطعة أرض خلاء إلى الشرق قليلاً من ميدان الملك طلال.

-٣-

وجاء مؤشر مهم آخر على سعي "البلدة" نحو هيئة "المدينة" وشروطها ومكانتها. كان هذا - إلى حد ما - بفضل خطوط المياه الجديدة، التي تم جرهما من الأزرق.

لا أذكر أياً من مشروعي الكهرباء والمياه قد سبق الآخر. بيد أنني قرأت آنذاك في إحدى الصحف، لعلها "الجهاد"، وكان هذا أوائل الستينيات تحديداً، أن إربد أقدم مدينة في العالم في معاشة أزمات المياه. كان الخبر بمناسبة اكتشاف خط تاريخي من أنابيب الرصاص يحمل الماء إلى البلدة من شملها الشرقي أي من عين راحوب إلى أحياء البلدة القديمة، وتعود هذه الأنابيب إلى العصر الروماني ربما، مع العلم بأن إربد محاطة بالعديد من الينابيع أقربها وأغناها تلك العين العذبة الرائعة راحوب، التي ظلت إربد تعتمد عليها حتى منتصف الستينيات تقريباً. ولكن المدينة أخذت مع اتساعها تعاني من شح الوارد من راحوب؛ فجاء مشروع الاستجرار من الأزرق.

سأحاول أن آخذ - دون وجه حق - دور الحبير قليلاً لأجتهد فأقول إن جر المياه آنذاك من الأزرق أي من مسافة أكثر من مئة وعشرين كيلومتراً بدلاً من مصادر المياه الغنية في الأغوار التي لا تبعد غرباً عن إربد أكثر من ربع المسافة، إنما يعود لسببين؛ أحدهما يتعلق بالتضاريس، والحاجة من ثم إلى الضخ الميكانيكي إن كان مصدره الأغوار، وهذا يتطلب تكلفة باهظة لا تتحملها موازنات الدولة في تلك الأيام، والسبب الآخر أن الحكومة رأت الاستفادة من الأنابيب الضخمة، التي كانت تنقل بترول شركة أَل آي بي سي IPC من العراق، وباتت معطلة ومهملة بسبب قيام الكيان الصهيوني، ولعل قيام انقلاب العراق سنة ١٩٥٨، قد جعل الأردن في حل من التصرف بها سواء بموافقة حكومة الانقلاب أو دونها. أذكر هذه الملاحظة لسبب بسيط...

أن أهالي المدينة ظلوا لسنوات يعتمدون بل يستقون من ماء لونه أقرب إلى اللون الأحمر أو البني بفعل مخلفات الصدأ التي ظلت عالقة بأنابيب النفط من بقايا البترول وعاديات الزمن. وكان المسؤولون يؤكدون أن لا ضرر من هذا اللون، والناس لا يملكون خياراً آخر.

إن أساساً مهماً من أسس عملية العزل والاختيار للأحداث التي أوردتها، يكمن في تجربة شخصية لي مع الحدث أو حتى مع الشخصية التي أتعرض لها. ولعل من أهم ذكرياتي الشخصية في تلك الأيام، أنني ذات يوم كنت شاهداً على موقف مهني وإنساني ظل منطبعا في وجداني إلى اليوم.

حين تعقدت الأمور الفنية في تمديد خط المياه لمستشفى الأميرة بسمة لتزويده من الرافد الجديد للمياه. كنت أسمع العاملين في نقاط المشروع، وبعضهم ولا شك كان من المهندسين، يقولون سيأتي السيد غاردنر لمعالجة المشكلة. وفهمت أن السيد غاردنر هو سمو الملك الحسين ووالد الأميرة منى، وأذكر أنني كنت قادماً من المدرسة إلى منزلنا القريب من المستشفى، وكان ثمة جمع في حدود عشرة أشخاص، وسمعت أحد الواقفين يشير إلى شخص يعالج أمراً ما في الخط الرئيسي ويقول لمجاوره: "هذا عم الملك". وأدركت على الفور أنني أقف إلى جانب شخصية مهمة. كان الرجل يعمل بيديه ويلف خيوط الخيش بتأن شديد حول مفصل مياه ضخ، ثم قام بنفسه بإيصال الماسورة بـ"الستوب كوك" أي المحبس الرئيسي، وقام بمعاونة شخص آخر بشد الوصلتين بإحكام. ظللت واقفاً حتى انتهاء المشهد. كان الرجل وسيماً جداً

بملاح ودودة، يرتدي سترة جلدية سوداء وبنطالا كاكيا. غادرت المكان وما زال الرجل واقفا على رأس عمله، كان الناس يعرفون بطبيعة الحال أنه خبير مهم، ولعله كان كبير المهندسين.

٤-

علامة أخرى من علامات التأهل لسمة "المدينة" اكتسبتها إريد. كانت هذه العلامة انتشار المطابع التجارية. لا أعرف تاريخ أول مطبعة عرفتها إريد، ولكنني عاصرت افتتاح أشهر مطبعتين آنذاك؛ وهما مطبعة الشعب ومكتبتها في شارع ابن زيدون، عبده يغمور حاليا، ومطبعة راجي الصالح الحاملة في شارع السينما (وصفي التل الآن).

كانت مطبعة الشعب لصاحبها مصطفى يغمور الأقدم بين المطابع التي لفتت انتباهي في صباي. ما زالت المطبعة تحتل موقعها الأصلي الكائن في الطابق الأرضي للبناء الذي يضم ما كان يعرف بسينما دنيا والقائم حتى يومنا هذا. ولست متأكدا فيما إذا كانت المطبعة سبقت دار السينما هذه في الظهور إلى حيز الوجود. كم كنت مسحورا بعالم الطباعة إذ أقف مشدوها أنظر عبر الزجاج الخارجي للمطبعة، للعمال وهم يصفون الكلمات حرفاً حرفاً من الرصاص، وكم سحرتني ماكينة الطباعة الضخمة القريبة من رصيف الشارع ولا يحجبها عن متسكع مثلي سوى لوح زجاجي يشمل الواجهة... وهي تتحرك بانتظام وإيقاع رتيب إذ تسحب الورقة مما يشبه الطبق وتدمغها بلوحة سوداء تلمع بسائل الحبر، وكان همي الدائم أن أقرأ محتويات الصفحة، وقد

أتمكن أحياناً من تبين بعض محتوى ما تتم طباعته، من الأوراق البيضاء والصفراء والزرقاء والحمراء والخضراء... إلخ، وكان معظمها إعلانات تجارية يقوم الصبية بتوزيعها باليد. وبعضها كان يحمل "بشرى" لأهل البلدة بافتتاح مكتب تاكسي جديد، أو محل نوفوتيه راقٍ، أو مطعم حديث أو الدعاية لأحد العروض السينمائية أو خلاف ذلك. ولكنني ما زلت احتفظ في ذاكرتي إلى اليوم بمحتوى إعلان ورقي بحجم الكفين حول افتتاح أول "دراي كلين" حقيقي - كما زعم الإعلان - في إربد، وكان اسم المحل: "حيفا ستيم" لصاحبه فائق الطوباسي، ولعل السبب في احتفاظ الذاكرة بهذا العنوان، كوني أخذ بدلات والدي وأشقائي الكبار لهذا المحل نتيجة لصداقتي مع شقيق صاحبه، أعني الفنان الشهير فيما بعد خالد الطوباسي، وكثيراً ما كان هذا يدير المحل في غياب صاحبه؛ فأجالسه وأمام ناظرينا مدخل سينما الفردوس؛ نتحدث عن آخر عروض الأفلام وأحدث أغاني المطربين الكبار آنذاك، ويفضي إلي بآماله في أن يصبح مطرباً شهيراً ذات يوم.

ومع نهاية الخمسينيات أو مطلع الستينيات، شجع نمو المدينة المتسارع أحد أبناء البلدة ممن كانوا وفدوا إلى إربد مع النكبة سنة ١٩٤٨، وعاش فيها رداً من الزمن قبل ذهابه إلى الكويت حيث حقق ثروة طائلة هناك، أن يبادر إلى خطوة تصنيعية في إربد بدت باهرة، بل مذهلة: إقامة مصنع للموتورات باسم صاحبه: نيقولا نجم. وأقام فعلاً بعض البنى التحتية من "هناغر" وشق طريق إلى موقع المصنع في آخر الجهة الشرقية من البلدة، وغير ذلك.

لقد قيل الكثير حول مشروع "مصنع موتورات النجم". وما كنت أسمعه يتردد أن المشروع تعثر لأسباب اقتصادية، وبعض الناس ذهب إلى أن الحكاية برمتها استعراضية، في حين شكك آخرون في ذمة الرجل ومقاصده، وذهب آخرون إلى أن المسؤولين في عمان قد خذلوه بعد أن شجعوه وأغرقوه بالوعود وورطوه؛ لكن المؤكد أن الرجل كان ينوي الاستقرار في إربد، وأنه لهذه الغاية، أشاد أضخم بناية سكنية، حتى تلك الأيام، قرب الملعب البلدي في المنطقة الشرقية، وأنه ترك إربد مهاجراً مفلساً، في حين أن العمارة القائمة إلى يومنا هذا، قد آلت ملكيتها-لفترة- لأحد المسؤولين الكبار.

وبعد، فلا أزعم أن مشاريع للكهرباء والماء والطباعة والسينما، يمكن أن تجعل، وحدها، من "البلدة" مدينة؛ فالأهم هو البنى الفوقية، أعني الأنساق الاجتماعية والنماذج البشرية التي أنبتتها العوامل التاريخية الكامنة والأحداث المصيرية التي شهدتها المنطقة؛ وانعكس صداها المباشر وغير المباشر على هذه البلدة وفرض عليها إطار المدينة وأكسبها شروط التمدن .. وتكفي الإشارة إلى الحدث التاريخي الأبرز الذي لم أعاصره بطبيعة الحال وأعني تأسيس الإمارة مع مطلع العشرينيات، وقدوم الجاليات العربية وغير العربية ولاسيما الشوام، ثم النكبة الأولى سنة ١٩٤٨ فلهزيمة الكبرى سنة ١٩٦٧ ... إنها عوامل مباشرة ولها تداعيات مباشرة وغير مباشرة بطبيعة الحال في انتقال هذه البقعة من القرية إلى البلدة ثم إلى ... المدينة، ولكن الأهم من كل ذلك يبقى من نصيب الدينامية الإنسانية، وهي نشاط -بالنسبة لي- لا يرصد

بل يعايش، وكانت السينما بتأثيراتها الثقافية والاجتماعية والحضارية عاملاً مهماً في هذا التحول...

قد لا أضيف جديداً لأي قارئ حين أشير إلى المكانة المتميزة التي كانت تحظى بها دور السينما في مجتمع البلدة في الخمسينيات، ثم تعاظمت هذه المكانة مع اكتساب إربد بعض سمات التحول نحو "المدينة" من توسع جغرافي وازياد سكاني وبروز فئات اجتماعية جديدة، وبزوغ أنساق ثقافية يتأكد تأثيرها ويتسارع انتشارها مع الأيام، في الستينيات بخاصة.

هل يمكن أن تجتمع أربع من دور السينما في مكان واحد، دون أن يكون هذا المكان "مدينة" بصورة أو بأخرى؟ ... حدث هذا في إربد مع نهاية الخمسينيات ومطلع الستينيات.

السينما والراديو

-١-

كانت البداية مع سينما الزهراء في قلب الشارع الذي طالما حمل اسم شارع السينما (شارع الشهيد وصفي التل) ويقال، ومرة أخرى، لا أزعم لنفسي سمة المؤرخ، إن تأسيس السينما كان سنة ١٩٤٦، على يد مجموعة من الاقتصاديين الرواد في إربد أبرزهم عبده يغمور. ولطالما كان لسينما الزهراء دور يُجاوز دورها في عرض الأفلام؛ إذ كانت تستضيف بعض الاحتفالات الخاصة والعامة، وقد أخبرني جاري وصديقي عصام جوهر أنه حضر فيها حفل تأبين شاعر الأردن عرار في وقت ما من سنة ١٩٤٩ وهي سنة وفاته، وتحدث عن صورته الكبيرة التي زينت مدخل الدار. كما أنني حضرت عدداً من الاحتفالات الغنائية، وعروض "شمشون العرب" حين كان يأتي إربد، وهو يضع الحجارة الكبيرة فوق صدره ويكسرها أحد الأشخاص "بالمهدة"، ثم يخرج مع الناس بعد انتهاء عرضه هذا داخل السينما إلى شارع السينما ليجر باصاً بأسنانه. وعلى العموم فقد شهدت في هذه الدار أول فيلم شاهدته في حفلات الجمعة الصباحية وظل بعض مشاهده عالقا في ذهني مدى الأيام، أعني فيلم "ابن ذوات" لإسماعيل ياسين.

لكن علاقتي مع سينما الفردوس (اسمها الحالي) كانت أعمق وأكثر حميمية، نظراً لأن صاحب الدار (الطاهر) في الستينيات كان الوكيل الحصري،

على ما يبدو، لأفلام "مترو جولدوين ماير"، وهي الشركة التي أنتجت أشهر الأفلام العالمية وأهمها حتى ذلك الحين.

لا أستطيع أن أذكر متى تأسست سينما الفردوس، ولكن ما أذكره جيداً أن اسمها كان حين أدركت الدنيا بوعي مشدود إلى هذا الفن: "سينما البتراء"، وكان من أصحابها الأول - كما كنت أسمع - فرح إسحق و أبو سمير الشماع. وكانت سينما "البتراء" خلال النصف الأول من الخمسينيات صالة مكشوفة، أي دون سقف، تعمل على مدار أيام الصيف، ولا أعرف إن كانت تُشغل شتاءً. وما زلت أذكر يوماً اصطحبني فيه شقيقي فريد الذي يكبرني بحوالي ست سنوات لمشاهدة مجانية لفيلم بلبل أفندي. صعدنا يومها على السور الشمالي المبني بالحجارة السود، والأرجح أنه ما زال قائماً إلى اليوم، ويفصل مبنى السينما عن مقهى الأريزونا وبينهما زقاق طويل بعض الشيء ما زال بدوره قائماً. صعدنا على حافة السور من جهته الشرقية، وكان شقيقي لطول قامته، بحكم سنه، غير محتاج للتسلق إلا كلما أراد إراحة رجليه؛ فيجلس إلى جانبي على حافة السور، ويصرخ انفعالاً كلما شاهد منظرًا استثاره، أو يصفق طرباً لأغنية من أغاني الفيلم. أما أنا فلم أظفر إلا بومضات مشاهدات عابرة بمساعدة من رفعني ولكنها ظلت مطبوعة في ذاكرتي. بيد أن هذه الدار أصبحت، بما تعرضه من روائع هوليوود الكلاسيكية، وفي النصف الأول من الستينيات بخاصة، ملاذاً لأحلامي وتصوراتي، ومنهلاً لمتعتي، ومصدراً مهماً من مصادر إغناء وجداني، وتعزيز خبرتي ودرايتي.

وخلال النصف الثاني من الخمسينيات تم تغيير اسم السينما من "البترء" إلى "سينما سمير"، اعتزازاً من صاحبها (الشماع) باسم ابنه، ولكن تم بيع السينما في وقت لاحق إلى شركة في عمان لتجري عملية صيانة بل تغيير شاملة كان من ثمارها الإيجابية مدخلها الرائع بحجارتها الملونة، وبوابة تحاكي مداخل دور السينما الراقية، ورفع جناح "اللوج" ليحتل الجزء الخلفي من فضاء الصالة طبقاً علوياً، بعد أن كان اللوج يحتل المساحة الأرضية الخلفية لصالة العرض، بحاجز (سور) بينه وبين "الصالة" يرتفع حوالي متر ونصف متر. وأخذت السينما بعد هذا اسمها الجديد: سينما الفردوس، وبدأت مرحلة جديدة في تاريخها يغلب عليها عرض الأفلام الهوليوودية، وبخاصة أفلام شركة مترو.

كان تصميم سينما الفردوس - وما زال - هو التصميم النموذجي لدور السينما؛ فإذا صعدنا درجة أو اثنتين عن رصيف الشارع قابلنا المدخل، حيث شبك التذاكر، والجدران المغطاة بالصور الفوتوغرافية متوسطة الحجم لمناظر من الفيلم المعروض، أو لأفلام العروض القادمة القريبة.

أما البهو الطولي المتجه شرقاً، نحو الإدارة في الصدر وبابي الصالة واللوج إلى يسار الداخل، فقد كان مغطى على الجانبين بأفشيات تعلن عن أفلام عالمية ومعظمها يعود إلى شركة مترو. كنا نعتقد أن هذه الأفشيات تعد بعرض قريب للأفلام، ولكن انتظارنا قد يطول أحياناً ليستغرق شهوراً، وأحياناً لسنوات ثم نفاجأ بأن بعضها يعرض فجأة في دار أخرى، الزهراء أو

دنيا أو الجميل، كما حصل بالنسبة لفيلم مورغان القرصان لستيف ريفز ملك جمال الأجسام على مستوى العالم كما كان يتردد، وكان يسحر الناس بعضلاته التي لا تماثلها عضلات ممثل آخر، والغريب أن أغلب ما أتذكره من أفلام هذا الممثل قد عرض في سينما الزهراء وليس في "الفردوس" كما كانت تعد أفشياتها الداخلية، من مثل سلسلة أفلام هرقل، و"آخر أيام بومبي" ومورغان "القرصان" و"صندوخان العظيم" و"لص بغداد" وغيرها.

لكن بهو الفردوس يظل معرضاً للأفشيات لا ينسى؛ كان ثمة أفيش يتعلق بفيلم "موغامبو"، سحرتني الوجوه التي يحملها هذا الأفيش: كلارك غيبل وغريس كيلي (أميرة موناكو آنذاك) وآفا غاردنر، وهو أيضا الفيلم الذي لم يقدر لي مشاهدته إلا تليفزيوناً وبعد انقضاء عشرات السنين. لكن حظنا كان أفضل بالنسبة لفيلم "كوفاديس" لروبرت تايلور؛ إذ لم يمض سوى وقت قصير على تعليق الأفيش الخاص به إلا وقد عرضته سينما الفردوس، ثم عرضته سينما الزهراء. ومما زاد في تعلقي بهذا البهو إلى اليوم كونه شبيهاً إلى حد ما، أو على الأقل يذكرني، ببهو دار السينما التي عرض فيها فيلم "ميلودراما مانهاتن". إنه الفيلم الذي جازف "ديلنجر" رجل العصابات الأمريكي الشهير بحياته حتى يشاهده، فقتلته الشرطة في ذلك البهو، وقد شاهدت آنذاك أنا وصديقي زهير فرح - قبل هجرته إلى الولايات المتحدة في مطلع السبعينيات - фильماً عن "ديلنجر" يروي هذه الواقعة في سينما الفردوس

نفسها. وحدث أن كنت في الثمانينيات بضيافة هذا الصديق في شيكاغو، وقال لي إنه يحضر لي مفاجأة، وكانت تلك المفاجأة زيارة تلك الدار.

أما دار السينما الثالثة (تاريخياً) فقد كانت سينما دنيا، وقد شاهدها مصطفى يغمور فوق مطبعته وفوق بعض المخازن الأخرى في العمارة المقابلة للنادي العربي، وأفترض أنها تعود إليه. وقد افتتحت أواخر الخمسينيات، على الأرجح. وأذكر أن صاحبها لجأ إلى طريقة ذكية للإعلان عن هذا الحدث، إذ علق لافتة قماش في فضاء الشارع العريض أمام الدار المزعم افتتاحها يعلن فيها عن جائزة لمن يقترح اسماً لدار السينما الجديدة، ومع أن كل الناس كانوا يتحدثون عن سينما دنيا بوصفه الاسم الجديد للدار الجديدة، حتى قبل افتتاحها، فقد عمد كثيرون، أعرف بعضهم لتقديم اقترحاتهم مكتوبة إما للمطبعة أو لمن صادفوه في الدار أيام تجهيزها.

وقد غلب على عروض سينما دنيا الأفلام الأجنبية، صحيح أن دور السينما الأربعة في إربد كانت تعرض كل أنواع الأفلام، لكنني لا أذكر إلا عدداً قليلاً من الأفلام العربية التي تم عرضها في سينما دنيا.

وآخر ما أنشئ من دور السينما في إربد خلال هذه المرحلة (الستينيات) كان الدار الرابعة التي أطلق عليها اسم سينما الجميل. وقيل يومذاك إن افتتاحاً احتفالياً جرى للدار الجديدة، دعي إليه عدد من المسؤولين الرسميين وأصدقاء أصحاب الدار ومعارفهم قدمت خلاله كاسات البوظة (الآيس كريم). وقد لفتني في هذه الدار-وما زال- مدخلها الخارجي الواسع نسبياً

(وقد أصبح الآن مخبزاً)، ثم واجهتها الشاهقة الجميلة التي صممها شخص لا أشك في أنه كان على دراية بعمله، ومع أنها لا تقل جمالاً عن واجهة سينما الفردوس الجديدة، فإنها لا تلفت الانتباه كثيراً لكونها تقع في موضع لا يتيح النظر إليها وتأمل معالمها. وبالمناسبة فإن هذه الواجهة ما زالت قائمة حتى كتابة هذه السطور، ولكنها واجهة علوية لمخبر أقيم في الأرضية للمدخل، وهذا أمر طبيعي يساير روح مرحلة انحسرت فيها القيم الجمالية لحساب الضرورات اليومية.... ولكن المسألة برمتها، أعني حضور السينما بتجلياته المختلفة..مسألة تستأهل حديثاً مطولاً.

-٢-

لئن كان للشاشة نجومها ونماذجها البشرية، فإن لدور السينما في إربد (أعني المنشأة المكانية) نجومها ونماذجها التي ما زالت تعيش في ذاكرة معظم من عاصر تلك الأيام.

ولعل أهم هذه النماذج، وبالتأكيد أكثرها حضوراً وشهرة في الخمسينيات وفي طرف من الستينيات هو العم ذيب سريان حاملة. كان الرجل ذا ملامح مميزة وهيئة مهيبة، طويل القامة عظيم الهامة بوجه أقرب إلى الاستطالة ونظرات ثاقبة صاعقة-لمن استحقها في حينه- تنم عن قوة الشخصية وصرامة الطبع إن تطلب الأمر ذلك، بطبيعة الحال.

كان عمل ذيب (أبي كامل) استلام التذاكر من الرواد في برامج العرض العادية خلال أيام أسبوع، ولكنه، بقوة شخصيته يبدو للجميع كأنه الأمر

الناهي في الدار؛ إذ لم يكن سائر العاملين يختلطون مع الجمهور، بمن فيهم مالكو الدار (آل يغمور)، أو مديرها، وكنيته على ما أذكر (أبو حسين). وكان هذا أنيقاً بينطال الجينز ويعطي انطباعاً بأنه أقرب إلى العاملين في الحقل السينمائي وليس مسؤولاً عن دار للسينما، وقد تبين لي مرة أنه فنان بمعنى الكلمة، إذ كان يقوم بتخطيط اللافتات الدعائية للأفلام، وأحياناً كان يرسم عليها وجوه الممثلين، أو مشاهد من الفيلم. وكانت مواهبه تظهر للجميع حين يخط اسم الفيلم بالبنط العريض واللون الأبيض أو الأحمر على جدار شباك التذاكر الرخامي الأسود المحاذي لرصيف الشارع، فوق شباك التذاكر أو في المساحة الخالية على الجانبين.

أما يوم الجمعة آنذاك فقد كان له برنامج خاص، بل قل حفلته الخاصة وتبدأ في العاشرة صباحاً وتمتد حتى الثانية أو الثالثة ظهراً، ويعرض فيها فيلمان بتذكرة واحدة حسب التعبير الشائع. هذا هو يوم ذيب سريان وهنا تتجلى نجومية العم؛ فعلى ما يبدو فإن لأصحاب السينما ثقة مطلقة بنزاهته وأمانته، لذا فقط أنيطت به مسؤولية إدارة حفل الجمعة الصباحي وأن يحدد بنفسه رسم الدخول.

لا أقول ثمن التذكرة، فقد كانت تعرفتها ثابتة، واستمرت في حدود ٥٠-٦٠ فلساً معظم الخمسينيات والستينيات للصالة و٩٠-١١٠ فلسات "للوج". لم يكن ثمة تذاكر في حفلة الجمعة الصباحية. بل طُبقَت فكرة ذكية في صالح الجمهور وأصحاب الدار؛ إذ كانت السينما تغص عن آخرها بالمئات

من المشاهدين، ومعظمهم من الصغار، وأحياناً كان عدد الواقفين، أو الجالسين على الأرضية يماثل، إن لم يفق عدد الجالسين على الكراسي؛ فيكون العائد، بفضل هذه الفكرة، والإدارة الذكية من جانب ذيب لهذه الحفلة، أضعافاً مضاعفة لما هو مألوف.

يبدأ ذيب الطقس الأسبوعي في حوالي التاسعة والنصف صباحاً بتحديد سعر الدخول؛ في البداية كان في حدود ثلاثة قروش للصالة وخمسة قروش للوج (أي نصف التعرفة المقررة للتذاكر). وكان "الذيب" يتخطى اسمه إلى مرتبة "النمر" إذ يقف أمام المدخل ويتناول النقود ثم يؤشر للداخل نحو أحد البايين: باب الصالة أو باب اللوج. لا أتصور أن أحداً من الناس جرؤ على أن يتحايل على الرجل فيدخل إلى باب اللوج مثلاً بسعر الصالة، مع أن الرجل يعطي ظهره للداخل ووجهه وأنظاره كلها نحو الجمهور المتجمع بالعشرات أمام المدخل.

وبعد أن تنخفض أعداد الداخلين بالتسعيرة الأولى المعلنة، يبدأ ذيب بتخفيض التسعيرة خمسة فلسات، وحين يلاحظ أن الإقبال قليل يعود إلى الرقم الصحيح: قرشان للصالة وأربعة للوج، وما أن يبدأ الفيلم، وهذا ما كان معلوماً عند المنتظرين على المدخل بوسائلهم الخاصة، حتى تبدأ المقايضات: "بقرش ونص ذيب" وينظر ذيب أحياناً إلى الزبون، فإذا رآه صغيراً مثلاً، قبل بالعرض، وتشمل الصفقة حينئذ كل من كان واقفاً بعمره، في حين ينتظر من هم أكبر الصفقة التالية على أمل أن تأتي لهم بسعر أقل. وبعد أن يمر وقت

أطول على بدء عرض الفيلم الأول، منتصف الفيلم مثلاً، يقبل ذيب من الجميع قرشاً ونصفاً، وللوج ثلاثة قروش، مثلاً. ولكن ما أن ينتهي الفيلم الأول ويقترب بدء عرض الفيلم الثاني حتى يقبل بالقرش الواحد، ويتم إغلاق باب اللوج، أحياناً مع بدء الفيلم الثاني. وقد يأتي وقت يضع الداخل أي مبلغ حتى لو كان نصف قرش في الصينية الموضوعة إلى جانب ذيب ويدخل دون اعتراض منه ، أو حتى انتظار موافقته؛ لأن الأمر كان متعارفاً عليه.

وقد كنا على بينة كاملة بتسلسل هذه الوقائع في الدخول إلى سينما الزهراء، فكنت -شخصياً- أنتظر حتى يبدأ طقس وضع النقود في الصينية دون أن تمر على يد ذيب، ولم يكن الرجل غافلاً عن كل شاردة وواردة، بل كان يستفيد من هذا الوقت للاستراحة، بعد طول وقوف مع أبي حسين وأشخاص آخرين بالجلوس على الكراسي الصغيرة في البهو الصغير بعد المدخل، فيما عدد الداخلين أخذ بالتناقص، ويكاد المدخل يخلو من التجمهر.

إن غاية أساسية من تسجيلي لهذه الذكريات استعادة بعض النماذج البشرية التي كان لها إسهامها في تشكيل مخيلتي وإغناء وجداني. وبما أن الكلام عن ذيب سريان فلا بد أن تقفز إلى الذاكرة، من ثم، صورة ابنه طيب الذكر ذائع الصيت في إربد لسبب لا أدريه، مع أنه كان موظفاً بسيطاً في أحد البنوك مقابل دار السينما التي يعمل فيها والده: كامل سريان؛ هل طارت شهرته حين اشتهرت أغنية عبد الحليم: "كامل الأوصاف فتني" فأخذ بعض المتسكعين في

الشوارع أو المتبطلين في المجالس يردد: "كامل سريان فتني"؟... أو ربما لأنه كان نسخة مصغرة، ولكن طبق الأصل عن أبيه، وحين كبر وأصبح في مرحلة نضج الشباب صار يبدو كأنه توأم له؛ وإذا كان لكل إنسان -كما يقال- نصيب من اسمه، بمعنى مماثل أو ضدي؛ فإنه يصح أن يقال؛ اسما ومعنى؛ وبالمعنى المماثل الإيجابي: كامل الذيب.

يكبرني كامل بما لا يقل عن خمسة أعوام، لذا لم تنعقد بيني وبينه أي علاقة بأي مستوى. لكنه كان يبدو هادئ الطبع مسالماً، وكأنه يقول للآخرين "أنا في حالي فاحترموا خصوصيتي" لا سيما أن ملامحه - كأبيه - توحى بالجرأة والإقدام إذ ما مس أحدهم طرف ثوبه، صارم النظرات، طويل، قوي البنية. جمعني به - باستثناء رؤيته العابرة - موقف وحيد في أحد الأعياد. كان الصغار وبعض الكبار آنذاك يعقدون حلقات للعب "الفئة" برهانات نقدية، وبعض هذه التجمعات كانت تنعقد خلال تجمعات الأعياد أمام دور السينما، وأكثرها أمام سينما الفردوس (سمير آنذاك) وكنت ذات يوم مشاركاً في إحدى تلك الحلقات مع صغار من مثل سني، وكان كامل يشارك في حلقة أخرى للأكبر سنا بالقرب من حلقتنا، وأذكر أن دافعي إلى اللعب في ذلك اليوم الحصول على "تعريفة" فقط كي أضيفها إلى الشلن الذي بالكاد حصلت عليه من والدتي ليصبح المبلغ ٥٥ فلساً ثمن التذكرة (وقد تحقق لي هذا) وكان كامل نجم اللحلقة المجاورة مقرفصاً دون أن تلامس مؤخرته الأرض شأنه في هذا شأن معظم المشاركين؛ ولهذا الوضع حكمته إذا ما أطل شبح شرطي؛ فإن

النهوض ومن ثم الهروب يصبح أيسر، ويبدو أن الحظ كان موافقاً لكامل إذ كان اسمه يتردد كثيراً في الحلقة: "يلا كامل ... بكفيك كامل"، وكامل يكوّش النقود ثم يودعها بمحفظة في جيبه الخلفي، وقد سحل زناره إلى الأسفل فبان من ظهره ما يجوز ومن أسفل ظهره ما لا يجوز. وفجأة لمحت صبياً يندفع صوب ظهر كامل؛ ليخطف بسرعة البرق وخفة الشيطان محفظته وينطلق بها كالسهم، فصحت بأعلى صوتي: "كامل ... جزدانك"؛ فتدارك الأمر وقبض على الصبي السارق بأقل من لمح البصر، وحين عاد، هز رأسه باتجاهي وكأنه يقول: شكراً، ثم قرص مستأنفاً اللعب دون أن يفلت هذه المرة محفظته من يده اليسرى.

- ٣ -

ومن العاملين في دور السينما في إربد ثمة شخصيات لا تحيي من الذاكرة. هناك مثلاً مدير سينما الفردوس في الستينيات، وربما في السبعينيات عمر أبو راشد، وحين أتذكر ذلك الرجل تتبادر إلى ذهني نظرية الدور الوظيفي في علم النفس الاجتماعي. بمعنى أن الرجل قد يكتسب أهميته من دوره الوظيفي، ولكن هناك أشخاصاً قد يكتسب الدور الوظيفي أهميته منهم. وبالتأكيد فإن عمر أبا راشد من هذا النوع الثاني، إذ كنت تراه في مكتبه آخر البهو الرئيسي في سينما الفردوس، أو أمام البوابة أو حتى في الصالة وهو يؤشر بيده للعاملين نحو هذا الموضع أو ذاك، أو يشير بأصبعه نحو سقف السينما مبدياً ملاحظته لمرافقه ... كنت تشعر أنه إذا كان لهذه الدار مسؤول أو مرجع

نهائي فهو هذا الذي ماثل أمامك. وزاد من أهمية الرجل - في نظر من هم في أعمارنا - مكتبه في صدر بهو السينما وقد كتب فوق الباب (أو نحو ذلك) عبارة: المدير. وطالما رأيته وقد بسط الخطاطون لوحاتهم على أرض البهو وراح يشرف عليهم ويدقق في كل عبارة أو رسم؛ أو يشير إلى وجه ممثل أو ممثلة أو منظر طبيعي. وذات يوم راقبته وهو يلحن الخطاط العبارة الآتية: "التحفة السينمائية الرائعة للمخرج الكبير ألفريد هيتشكوك"، وكانت عن فيلم بعنوان: خطة الشيطان North by North West أو نقرأ لعمر - بطبيعة الحال - عبارة من قبيل: "الفيلم الذي أذهل العالم"، وأحياناً كانت لافتات سينما الفردوس تحمل إشارات توحى بعدد الجوائز التي حصل عليها فيلم ما يجري عرضه، أو عبارة "قصة الحب الخالدة" وأذكر أنني قرأتها لأفيس عن فيلم جسر ووترلو لروبرت تايلور وفيفيان لي، ولكن معظم هذه الإعلانات كان يأتي مع بكرات الفيلم جزءاً من تجهيزاته للعرض.

وفي كثير من الأحيان، حين يشتد الهرج والمرج، ولا سيما في "الحفلات" التي تتحول دار السينما فيها إلى مسرح كبير؛ ويحضر مطرب أو مطربة وتصدر مجاوزات عن بعض "الزعران"... كان مجرد وقوف عمر أبي راشد أمام الباب المطل على الجمهور كافياً لإعادة الأمور إلى نصابها، وله في الاشتباك مع المشاغبين صولات وجولات كانت تبلغ أحياناً درجة الاشتباك بالأيدي والأرجل. ومن المعروف أنه قد تحدث أثناء إطفاء الأنوار وعرض الفيلم بعض المشاجرات لأسباب شتى أهمها قذف أحدهم لقشر البزر دون مراعاة

لمن هو أمامه، أو تعوق حركة رأس ضخم من كان يجلس خلفه من مشاهدة المنظر... والويل للمتشاجرين ممن يتسببون في إزعاج النظارة؛ ساعتئذ يحضر المدير، فيمسك بتلابيب هذا ويقذف به نحو الباب، أو يصفع ذاك كائنًا من كان، وقد سمعت أحدهم مرة وقد شيعه عمر نحو باب الخروج بشلوت وهو يقول: "مش عارف مين أنا... يا كذا؟..." وحين التفت إليه عمر، ولئى صاحب التهديد الأدبار مختفياً بلمح البصر، دون أن يكشف عن هويته "الخطيرة".

وقد لاحظت، مع الأيام أن مكتب عمر أبي راشد ليس لإدارة السينما فحسب، بل كان مجلساً شبه يومي للعديد من المثقفين من المنتمين إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي من مثل: الأستاذ جورج حداد والأستاذ غسان زيتون والمصور حنا السائس (صاحب استوديو ميشيل) وأحياناً ينضم إليهم، واقفاً، قاطع التذاكر شفيق الرفاعي، وغيرهم. وأذكر أن هذه اللقاءات قد أصبحت شبه يومية وخاصة بعد هزيمة ١٩٦٧.

- ٤ -

كان حجم اللوحة الإعلانية عن فيلم ما، بحجم صفحة الجرائد، ولكن من ورق ناصع البياض، وإذا تضمنت اللوحة صورة ما، وما أكثر الفنانين آنذاك، فإن الورق يكون مقوى، أي من النوع الذي يستعمله طلبة المدارس - مثلاً - في رسوماتهم في إعداد الخرائط. أما وقت تجهيز اللوحات وتخطيطها فكان نهاراً، على أرضية المدخل أو فوق رصيف الشارع المحاذي للدار لتعلق

ليلة العرض، ربما لمفاجأة الدور الأخرى حيث كان التنافس على أشده. أما العروض "الضخمة" أي الأفلام التي كان ينتظرها الناس؛ فعادة ما كان جمهور إربد يعلم بها من خلال عرضها في عمان والقدس أولاً.

وعروض عمان والقدس كانت تعلن في الصحف، بل إن معظمها كان له مساحة إعلانية على شكل مربع ٥×٤ سم مثلاً، وتكون الإعلانات هذه مصفوفة على شكل مستطيل يغطي المساحة السفلية من إحدى الصفحات الداخلية للجريدة (الجهاد وفلسطين والدفاع). وهذه المساحات تحديداً كان لها قراؤها في إربد، وقد كانت تتضمن بيانات ضرورية عن الفيلم وأبطاله وجملة ترويجية له: الفيلم الجبار، أو الفيلم العاطفي الكبير، أو سينما زهران، أو الرينبو أو القدس (مثلاً) تقدم بكل فخر واعتزاز...

وكان لأماكن تعليق الإعلانات أماكن محددة ومتفاوتة المساحات، حيث توضع داخل براويز خشبية محجوزة لهذه الدار أو تلك، فالبرواز (اللوحة) الذي كان فوق سطح العمارة التي فيها محلات الشيخ سالم والزيتاوي وغيرهما كان الأكبر من نوعه ربما على مستوى المدينة، وكانت وجهته غربية، وبعرض أربعة أو خمسة أمتار وبارتفاع أقل قليلاً، وكان يخص سينما الفردوس. أما البرواز الذي كان معلقاً على جانب باب محلات ملك مارديني في الجهة المقابلة بالضبط لأحمد الفلافل، فقد كان بحجم صفحة الجرائد، ويخص سينما الزهراء.

وكان إصباق الإعلانات حدثاً احتفالياً يومياً صغيراً بالنسبة للعديد من الصبيان المتعلقين بالسينما؛ وحين ينطلق موكب اللصق من أمام دار السينما تحف به على الفور كوكبة من أولئك الصبية يتزايد عددهم مع تقدم الموكب نحو مقصده. وكان العاملون المنوط بهم المهمة يرحبون بهذا، فهذا الصبي ورفيقه يحملان السلم، وذاك يحمل جردل النشاء اللاصق، وذلك يحمل رول المصقات. ويا له من شرف يحظى به أحدهم إذا تم تكليفه بإسناد السلم أثناء صعود أحد العاملين ليقوم بعملية اللصق الفني المتدرج من أعلى إلى أسفل. وكثيراً ما كانت تتراكم الإعلانات القديمة فوق بعضها ليتم نزعها دفعة واحدة، ولنقوم بعد ذلك بفكها بعد نقعها بالماء فنستعيد ذكرياتنا عما شاهناه قبلاً من خلال الصور أو الكلام المكتوب عن الأفلام الغابرة.

وكان "الببل" أحد العاملين الرئيسيين (وربما العكس) في سينما الفردوس. هو المسؤول الأول والأخير عن موكب الإعلان (وثمة آخر في المدينة اشتهر بحمل لقب الببل هو مدرس الرياضة ومؤرخ إربد المعروف الأستاذ توفيق حتاملة). ولم يكن "ببل الفردوس" يشارك في تنظيم دخول في الحفلات أو مسؤول لصق الإعلانات فحسب؛ بل كان ينطبق عليه وصف "أبو العُريف" في كل أخبار السينما العربية ومثليها وراقصاتها تحديداً، أو أخبار العروض القادمة في سينما الفردوس، وهي الأخبار التي لم تصدق أبداً.

إن أقرب صورة في الذهن للببل هي صورة شعر رأسه المنفوش الشبيه بشعر عادل إمام في فيلم "الهفوت". لكن الببل لم يكن هلفوتاً بل محدثاً لبقاً

وأحياناً ناقداً فنياً يعتد الصغار برأيه، ومصدراً إخبارياً (حول السينما) قد يأخذ به بعض الشباب الراشدين، ولكن معظمهم كان يستخف بما يقول.

ذات يوم استمعت إلى البلبل وهو طرف في نقاش مع بعض الواقفين ممن ينتظرون افتتاح شباك التذاكر، وكان الفيلم لسامية جمال، ولا أدري كيف وصل النقاش إلى المقارنة بين سامية جمال وتحية كاريوكا.

ويبدو أن البلبل كان من أنصار مدرسة سامية جمال في الرقص، فقدم برهانه على أنها الأهم بقوله: ماهيّه (يقصد سامية جمال) رئيسية الرقاصات في مصر". ما هو نوع الرئاسة هذا؟ هل هو النقابة؟ لا أدري. مازال الجواب معلقاً في ذهني إلى اليوم.

وذات يوم كنا ثلاثة: عبد الفتاح بني هاني وزباد التل وأنا، عابرين بهو "الفردوس" باتجاه باب الصلاة، ولفت انتباهنا "أفيش" فيلم "ذهب مع الريح"، ويظهر فيه كلارك غيبل وهو يطوق بذراعيه فيفيان لي، وإلى جانبه منظر الحريق الشهير. لم نكن قد شاهدنا الفيلم بعد؛ رغم أننا قرأنا الرواية وسمعنا الأساطير عن روعة الفيلم، وكانت أمنية لنا أن نشاهده، فتأخر عبد الفتاح عن ركبنا ليسأل البلبل: "إيمتى هذا يا بلبل؟" فرد عليه: "بالكثير شهر"، وهرول عبد الفتاح جذلاً باتجاهنا، وأخبرنا بمعلومة البلبل الثمينة، فقال له زياد: "يا رجل هذا الإعلان مر عليه أكثر من ستين ثلاث". فرد عبد الفتاح بسلامة طوية: "البلبل قال هيك"، وكان جواب زياد: "يا زلمة هذا شو

بعرفه؟"، وصدق رأي زياد، فلم نشاهد الفيلم إلا بعد ذلك بسنين وفي دار عرض أخرى: سينما دنيا.

وكم كان يحلو لنا أن نداعب البلبل، وكان صدره واسعاً، فما أن نراه حتى ننشد:

بلبل بلابل عَ راس الشجر لمحته بعيني صفق وطار

وكان بعض السمجين منا، على رأي البلبل، ينشد المقطع بطريقة البلبل فيقول: "الصجر" عوضاً عن الشجر.

٥-

ومن الطبيعي ألا تقتصر الحلقات النقدية على آراء البلبل وخواتمه فحسب؛ بل إن شدة إقبال الجمهور وتجمهرهم أمام بوابات دور السينما لأسباب كثيرة، أهمها الفرجة على الصور المعلقة بالبراويز كان يهيئ فرصة لتبادل الحديث بين الواقفين ممن لا يعرفون بعضهم، بل إن كثيراً من المعلومات كانت تقدم تبرعاً للواقفين دون سؤال منهم.

أذكر أنني كنت واقفاً أمام سينما الزهراء أتفرج على المناظر الخارجية (الصور الفوتوغرافية) لفيلم يشارك فيه سراج منير، فأشار رجل بإصبعه نحو صورة هذا الممثل، وقال موجهها كلامه لجميع الواقفين: "عارفين يا شباب: هذا مات امبارح". لكن الأهم من هذا ما جرى من نقاش، وشاركت قليلاً فيه، على الرصيف المحاذي لسينما دنيا حين كان يعرض فيلم لفريد الأطرش،

إذ سمعت "كعكي حلوي" وهو اللقب الذي أطلقناه في المدرسة على بائع كعك (بطرحة خشبية وحامل على شكل مثلث) من النوع المسمم يتخذ شكل المستطيل... سمعته يقول لآخر: "لأه...عبد الوهاب أهم... يا زلمي (بترقيق اللام)...أغنية "خي" بتساوى كل أغاني هادا الفيلم" (يقصد فيلم فريد الأطرش) ثم التفت نحوي، ولعله أدرك أنني أحد زبائنه في مدرسة سعد وقال: "مش هيك يا أخ؟".



وأحياناً كنت تسمع أحدهم يباهي: "هاي ثاني مرة أفوته" (يعني الفيلم) و"أفوت" هو اللفظ الشعبي الشائع لأشاهد. ولكن استحضار الأحداث والكلام حول الأفلام كان أكثر ما يتم حول أفلام الحركة والعراك

كأفلام "الترسو" لفريد شوقي. ولم يكن لفظ الترسو آنذاك شائعاً إلا على نطاق ضيق، وهي كلمة تعني الأفلام التي جمهورها يجلس في تراس دور السينما المكشوفة (الصيفي). ولا أذكر أن فيلماً لفريد شوقي أثار الإعجاب بقدر ما أثاره فيلم "سلطان" من اهتمام انتقل إلى لغة الشارع. وساد إجماع بين جمهور المشاهدين والمعلقين و"النقاد" على أن هذا الفيلم قد فاق كل ما عرض قبله من أفلام لهذا الممثل (البطل) الشعبي، بل وتربع فوق عرش الأفلام المصرية كلها، فكنت تسمع مثلاً واحداً في الشارع يصرخ: "سلم نفسك يا سلطان"، ليجيبه آخر: "مش ح أسلم يا عصام" (دور رشدي أباطة).

على أن "النقد" الأعمق كان يجري أثناء خروج الجمهور بعد العرض - جماعات متألقة - ومن النادر أن ترى شخصاً وحده؛ فتسمع "درباس" (وكان يعمل مساعد حداد لأبواب المحلات التجارية/الرول... مباشرة شمال "قهوة" أبي ذياب) يعلق على براءة سامية جمال ويشيد بحسن أخلاقها وتحملها لرذالات عشيقها عصمت كاظم (رشدي أباطة في "الرجل الثاني") أما "المسلط" بائع الخضار، فقد سمعته يبدي إعجابه الشديد بتحية كاريوكا بعد خروجه من مشاهد فيلم "شاطئ الأسرار" بقوله: "يا عمي هيك الدنص (الرقص) ولا بلاش". وأحياناً كان يعترض الجماعة الناقدة المنهمكة في النقاش شخص قادم من الجهة المضادة لمشاهد الفيلم، فيسأل: "آه... كيف الفيلم يا شباب؟"؛ فينبري له أحدهم ويحاول أن يلخص له الأحداث، فيلكزه أحد أفراد الجماعة الآخرين: "لا تقولش شو النهاية". ولكن الأحاديث تطول

حين يبدأ شخص ما باستعادة أحداث فيلم لشخص آخر أمام جماعة لم تشاهده؛ فيستعرض المواقف المثيرة وكأنه يلومهم على تقصيرهم، أو قل "يقاهرهم"، ثم يقول: "والله راح عليكم".

٦-

كانت الأنوار تطفأ تدريجياً قبل العرض بحوالي نصف ساعة، لتبدأ فقره الدعايات، ومستهلها-ولفترة امتدت لسنوات- دعاية التمساح، حيث كنا نذهل لرؤية رجل يحمل شفرة ناسيت بحجم سيف ضخمة يضرب بها تمساحاً في وسطه فيشطره إلى قسمين. وثمة دعايات لبعض المحلات، محلات الأحذية والنوفوتيه تحديداً، وكذلك لبعض الماركات العالمية للساعات، وبخاصة آنيكار وجوفيال، وأحياناً تشمل الدعايات بعض المسكنات مثل أسبرو وأسبرين أو بعض المرطبات ومثلجات الأسكيمو التي كانت تصنع في إربد. وفي هذه الفقرة التي تسبق عرض الفيلم (الصباحي يوم الجمعة أو المسائي في الأيام الأخرى) تعرفنا على شخصية "مكي ماوس" أولاً، ثم "توم وجيري" بعد ذلك بوقت، وربما تضمنت هذه الفقرة عرضاً إخبارياً لحدث سياسي، أو ما عرف بـ النشرة المصورة، وما زلت أذكر شريطين إخباريين عن المملكة في السينما، الأول كان عن زيارة شاه إيران في مطلع الستينيات (أو أواخر الخمسينيات) والثاني عن زيارة البابا بولس السادس للديار المقدسة في عام ١٩٦٤ على ما أذكر.

وكان للسيدات حفلتهن الخاصة، يومي الثلاثاء والخميس على ما أذكر، وكان العرض يقام في فترة العصر (من الثالثة حتى السادسة مثلاً). والذهاب للسينما بالنسبة إليهن كان حدثاً يستحق استعدادات خاصة من الزينة واختيار الصاحب. وما سأرويه عايشته بنفسه خلال النصف الثاني من الخمسينيات.

كانت شقيقتي فادية (أم نايف، أمد الله عمرها) مولعة بالسينما لدرجة أعجز عن وصفها، كانت في الخامسة عشرة أو نحو ذلك، وهي ضمن شلة من بنات إربد يتوزعن على أحياء متفرقة، وربما جمعتهم مدرسة راهبات الوردية. وذات يوم فهمت أنهن يجربن اتصالاتهن واستعداداتهن للذهاب إلى عرض في سينما الزهراء، وكنت أعرف أن الصغار ربما حتى العاشرة، مسموح لهم بمصاحبة الأمهات أو الأخوات أو ما شابه، فعقدت النية أن لا أفوت هذه الفرصة مهما كان الأمر، وكنت أدرك أن الموافقة المسبقة على اصطحابي أمر غير وارد، وهكذا تتبععت السرب. وكان تجمعهن في "برنדה" أحد البيوت المواجهة لسينما الزهراء (شرقاً)، وحين قدمت شقيقتي وجدتني بانتظارها على المدخل... كانت "تعليطة" انتهت بقول إحداهن لشقيقتي: "أي أخذه وفكّينا...".

ما زلت أذكر عنوان هذا الفيلم العربي وبعض أحداثه: "الحب الأخير". كانت درجة التفاعل بين الفيلم وجمهور السيدات عالية جداً. أذكر هذا استناداً لمشهد موت رستم (في نهاية الأحداث) وتحول اللوج كله إلى مأتم

يضج بالبكاء؛ فهذه تبكى بحرقه، وتلك تشرق، وثالثة تشهق، ورابعة تمسح دموعها بتلك المناويل الحقيقية الجميلة المطرزة... مناديل القماش...

وذاث يوم كنا متحلقيين حول "طبلية" الغداء... كنا في يوم عطلة وتأخر الغداء إلى مشارف العصر، وكان صوت الراديو يلعلع دون أن يعيره أحد انتباها... ولكن فجأة صرخت شقيقتي بعد أن ألفت اللقمة من يدها بعصبية: "أنور وجدي مات"... وأخذت تكرر العبارة مولولة، فرد عليها شقيقي من الغرفة الثانية: "منين سمعت الخبر"؟ فأجابت: "من الراديو هسه..." "المذيع قال: المرحوم أنور وجدي"... ويبدو أن الخبر لم يكن جديداً، ولكننا سمعناه لأول مرة، وفهمت من كلامهم أن أنور وجدي كان مريضاً بالكلية منذ مدة وأنه مات في السويد حيث كان يتلقى العلاج. كان هذا تحديداً في عام ١٩٥٥.

ويبدو أن تعلق الكثيرين بالسينما، ولا سيما بالأفلام العاطفية مرده أن المرحلة بروحها، وقضها وقضيضها كانت رومانسية؛ لذا تجد أن أفلام فاتن حمامة مثلاً، من قبيل "بين الأطلال" و"نهر الحب" و"لا أنام" تُدخر للعرض في الأعياد، وكان كثيرون منا، يحفظون عن ظهر قلب كلمات يوسف السباعي التي كانت تتصدر أفيشات فيلم: "بين الأطلال": "أيتها الشمس لا تغربي قبل أن تشهدي على أن حبي لها خالد لا يموت..."

على أن أكثر الأفلام العربية شعبية كانت أفلام فريد شوقي، وليس من شك في أن الناس كانوا ينظرون إلى هذا الممثل بوصفه بطلاً شعبياً جديراً

بالاقتداء. وأخذت الأسماء التي حملتها شخصية فريد شوقي في أفلامه تنتشر ألقاباً يحملها كثيرون من "الجدعان" ولاسيما الكادحون والصنّاعية والعتالون بخاصة؛ فهذا هو الشاويش خميس (اسم فريد في رصيف نمرة ٥) وذلك اسمه "حميدو"، وثالث "أبو حديد" ... وهكذا. وكذلك الأمر بالنسبة لمحمود المليجي؛ أذكر أن اسم "الحنش" الذي حمله في أحد أفلامه قد أطلق على أحد الأصدقاء ممن كان بعض الناس يخشونه ويتحاشونه. وكان أحمد رمزي نموذجاً يتطلع الشباب ذوو الميول الرياضية إلى بناء عضلاتهم على طريقته، مثل صقر الملاكم في نادي الشباب الاجتماعي في المخيم الذي أطلق عليه (أو أطلق هو على نفسه) لقب أبو "الرمز" تشبيهاً بأحمد رمزي. في حين أخذ بعض الشبان يقتدون بحسن يوسف بحركاته في لفت نظر طالبات المدارس الثانوية وهن في مشاويرهن سواء للنزهة أو في الطريق من وإلى المدرسة.

ولم يكن تفاعل الناس مع الأفلام يقتصر على الأفلام العاطفية وأفلام المغامرات فحسب؛ بل إن عرض بعض الأفلام التي تحمل رسائل فكرية من نوع ما، كان يتحول إلى مادة حكاية أثناء السهرات العائلية، وأذكر تحديداً فيلم "الرباط المقدس" الذي رواه في السهرة العائلية أبو جريس أحد الحكّائين المشهورين في الحي بطريقة تليق برواية من تأليف توفيق الحكيم.

وقد بلغ "الهوس" بالسينما بأبي جريس، هذا الإسكافي الأمي، أنه دأب على حضور أي فيلم تردد أن قصته جميلة حتى لو كان الفيلم أجنبياً، وكان يعتمد في بداية الأمر على من يجلس إلى جواره ليساعده في قراءة الترجمة المتابعة

القصة، ولكن سرعان ما شاع إزعاجه بين كثيرين من ذوي الحضور "الدائم" ولم يكونوا بالعدد القليل؛ فأصبح موضع تنذر بين هؤلاء وغيرهم، لا بل أخذ كثيرون يفرون من هذه الجيرة المزعجة؛ مما اضطره في نهاية الأمر إلى اصطحاب ابنته الصغرى "مرثا" - رغماً عنها أحياناً - وكانت في حدود الثانية عشرة، لتهمس له بالترجمة أثناء العرض.

-٧-

ولكن على الرغم من الرواج الكبير الذي كانت تلقاه الأفلام العربية، فإن الرواج الأكبر كان من نصيب الأفلام الأجنبية، وإلى حد ما - في وقت من الأوقات - للأفلام الهندية.

بداية نقف عند اثنين من الأفلام الهندية اللذين شكلاً "حدثاً سينمائياً" بارزاً في إربد، الأول عرض في سينما الفردوس وكان بعنوان "من أجل أبنائي"، ويحكي قصة أسرة مزارع تفقد عائلها فتتولى الزوجة مسؤولية إعالة الأسرة، وكم كان منظر الزوجة مؤثراً وهي تمسك المحراث وراء الثور وهي تشدو بأغنية مزقت نياط قلوب المشاهدين - ومعظمهم من الصغار - لا سيما أنها تغني والدموع تنسكب من عينيها، وربما من عيني أنا كذلك. أما الفيلم الثاني فكان "سَنَجام" وقد عرض في سينما الجميل، واستمر - ربما - أطول مدة لعرض فيلم في تاريخ إربد، وهي مدة على أية حال تقاس بالأسابيع، وليس بالأيام. ولا أذكر. ومن خلال متابعتي الدقيقة للعروض أستطيع القول إن الفترة التي كان يستغرقها أنجح الأفلام لم تكن لتجاوز - في أفضل الأحوال -

أسبوعاً واحداً. على أن موجة الأفلام الهندية، وإن كانت كاسحة في الستينيات بخاصة، فإن الإقبال عليها بدأ بالانحسار في السبعينيات، واحتلت مكائتها أفلام الكارتيه، وبعض أفلام الإثارة الحسية، بدا أن الإقبال على السينما يتراجع بشدة بعد انتشار التلفزيون، وعزف الشباب المتعلمون والعائلات عن ارتياد دور السينما نظراً للاختلاف الذي طرأ على طبيعة الجمهور، وانحسار الكثير من القيم... القيم الرومانسية، لصالح قيم أخرى أكثر ميلاً للسلوك الحسي، وأقل مراعاة لما ظل سائداً من انضباط جمعي حتى نهاية الستينيات.

كان الإقبال الأكبر إذن، في الخمسينيات بخاصة، من نصيب أفلام المغامرات؛ مثل أفلام طرزان وأبطالها المشهورين من ليكس باركر و جوني ويسمولر، وقد يبدو أن هذين الاسمين غريبان على أسماع الناس في هذه الأيام، ولكنني أكاد أكون متأكداً أن أكثر من نصف الصبية والشبان كانوا يهتمون بأدوار مثل هذين الممثلين بأكثر من اهتمامهم بدروسهم؛ فمن في إريد ممن أدرك وعيه طرفاً من الخمسينيات لا يعرف من هي "شيتا" القردة صديقة طرزان التي كان يصفر لها فتخف إليه بلمح البصر، ويطلب إليها "المساعدة" كما نطلبها من البشر؟ وأي من ذلك الجيل من لم تسحره غابات إفريقيا وأشجارها الباسقة إذ يقفز فوقها طرزان ومعه "شيتا"، ليصنعا البدع ويخلبا الألباب؟

على أن المكانة الأولى لأفلام المغامرات ظلت تحتلها أفلام الغرب الأمريكي (أفلام الكاوبوي) وقد حظيت في الخمسينيات أفلام كان يطلق

عليها "سيريل جبار"، (والسيريل من Serial بمعنى متسلسل) بإقبال منقطع النظير ولا سيما من فئة المهنيين، وكان الفيلم مسلسلاً حقاً، يتكون من ٣١ فصلاً، وكل فصل من حوالي خمس دقائق، أي أن طول الفيلم كان يجاوز الساعتين والنصف من المغامرات المدهشة، أما كلمة جبار- فقد كانت من الأوصاف التي اعتاد الخطاطون المحليون وضعها إلى جانب اسم الفيلم، ومن هذا القبيل كذلك، إيراد كلمة إغراء، وصفاً لفيلم يتسم بالإثارة الحسية، أو هائل، وصفاً لفيلم يتسم بضخامة الإنتاج، كما وصف فيلماً "مدافع نفارون" و"سبارتاكوس" وغيرهما.

ومن أفلام السيريل التي أذكرها سلسلة أفلام بفلو بيل Buffalo Bill، أو بافلويل، كما كنا ننطق الكلمة. وكم سحرت هذه السلسلة الجمهور، وأذهلهم البطل، راعي البقر الأمريكي، وهو يتسلق ظهر القطار ثم يركض فوقه لمقارعة الخصوم من قتلة أو من سارقي البنوك أو مختطفي "الحبيبة"... إلخ؛ فأضحت هذه المغامرات موضع أحاديث المجالس حتى في الفرصة (الفسحة) المدرسية. أما سلسلة أفلام فلاش غوردن، وهو شخصية سينمائية مغامرة قام بأدوارها أكثر من ممثل؛ فلم تكن كلها من سلسلة "سيريل جبار" لأن عرض بعضها (ذي الشعبية الجارفة) لم يكن يستغرق أكثر من ساعة أو ساعة وربع، وربما عاد السبب إلى حذف أجزاء من الفيلم من جانب دور السينما المحلية لحشر فيلمين أو أكثر في الحفلة الواحدة. وأحياناً كان الحذف يتم لأن الفني الذي كان يشرف على إدارة البكرات يستثني من

العرض واحدة أو اثنتين لا لشيء سوى الملل أو الرغبة في الانصراف مبكراً، وكثير ما لاحظ الجمهور هذا "السطو" على متعتهم التي دفعوا ثمنها؛ فتتعالى الصيحات: "رَجِّع... رَجِّع" أي "أعد عرض الجزء المحذوف"، وقد يفلح الاحتجاج إن كان صاخباً ومصحوباً بالصفير؛ فتتم إعادة عرض "البكرة المحذوفة"، ولا يتم الالتفات إليه إن كان خافتاً... وإن الله تعالت قدرته لا يسمع لساكت؛ فكيف إذا تعلق الأمر بمخلوق؟

ومما كان يجعل الجمهور، وبخاصة الصغار، يتعلق بأفلام فلاش غوردن (وكلها على ما أذكر بالأبيض والأسود) شخصية فوزي Fuzzy الكابوي العجوز ذي الحركات البهلوانية، والبطولات (الدونكيشوتية/ أقولها بوعي اليوم) حيث إن البطل فلاش غوردان (كما كنا ننطق الاسم) ما كان لينجو من كثير من المخاطر لولا نجدة فوزي وشهامته وشجاعته وحسن تدبيره، وأحياناً بفضل حماقته. وكان الاعتقاد السائد بيننا أن "فوزي" هذا عربي الأصل والفصل والوجه واليد دون اللسان. هكذا كانت تنطق ملامحه، بشيابه المهلهلة ولحيته القصيرة، وانفعالاته المتكررة وحصانه (أعني بغلته البليدة) إضافة إلى نخوته اليعربية.

إن بعض الأفلام، وأفلام الغرب الأمريكي بشكل خاص كان يترك نقاشاً قد يستمر لأيام، وربما لشهور بعد عرض الفيلم. وكان هذا الأثر ملموساً في حركات الصبية ومن هم في سن المراهقة في الحارات والطرق، وكذلك في تنافس الصغار على صور الممثلين التي كانت ترفق بأنواع من

اللبان، وهي بحجم الصور الرسمية ٣×٥ مثلاً، وكلها بالألوان الطبيعية، وبعضها كان يباع ويشتري، خارج صفقة "العلكة"، ويعتمد السعر على مكانة صاحب الصورة لدى جمهور "الحارة" وكذلك على ندرة الصورة نفسها، وهذا ما ظهر حين عرض فيلم "فيرا كروز"، والأثر الذي تركه على كثيرين، واستمر لشهور، فكانت صور أبطاله موضع تنافس لاقتنائها وبسعر قد يصل إلى "الشلن" للواحدة منها.

عرض ذلك الفيلم بعنوان "صراع الجبابرة"، وفي هذا الفيلم كل عناصر التسلية والإثارة؛ ففيه الكنز الذهبي المخبأ، وفيه المطاردة بين عربات الخيل، وفيه المعارك "الطاحنة" بشتى أشكال القتال، وفيه المشاعر المختلطة بين الصداقة والعداوة التي تظهر فجأة ودون سابق إنذار، وفيه مبارزة المسدسات والخاتمة المؤثرة. وأكثر ما أثار حزن الجمهور، صغاراً وكباراً آنذاك، المشهد الختامي، حين يضطر أحد بطلي الفيلم (صاحب المبادئ النبيلة، غاري كوبر) لقتل البطل الآخر، الشقي المحبوب الذي لا يهتم إلا لنفسه (بيرت لانكستر)؛ فيصر على الاستيلاء على الكنز العائد للفقراء المكسيكيين الساعين للتخلص من بطش الحاكم الظالم أو الإمبراطور المزعوم، ولكن غاري كوبر يضطر لقتل صديقه حفاظاً على الأمانة، وحين يرديه يندم على فعلته فيعانق صديقه المحتضر وقد اغرورقت عيناه بالدموع، أما صاحبه فإنه يسلم الروح وهو يتسم ابتسامة رضية إشارة إلى أنه يغفر لصاحبه، وأثناء عرض هذا الفيلم

الذي شاهدناه أكثر من مرة، كنت تلقى الإبرة على أرضية السينما لتسمع صوتها من شدة اندماج الجمهور مع الأحداث.

لكن كثيراً من "المثقفين" ممن يكبرونني سنّاً بقليل، كانوا أكثر تعلقاً بنوع مختلف من الأفلام الأجنبية: الرومانسي (بقاموس اليوم). كنت أسمع شقيقتي وأشقائي الأكبر سنّاً يتحدثون عن فيلم "ذهب مع الريح". وكان إخواني الكبار - كما فهمت - قد شاهدوا الفيلم ربما سنة ١٩٥٠ أو قبل ذلك بقليل، ويتحدثون عن أحداثه وأبطاله كبطله اللامع كلارك غيبل، وبدأت مرحلة الدراسة الثانوية في منتصف الستينيات ولم أكن قد شاهدت الفيلم، كنت قرأت الرواية (ولهذه القراءة حكايتها، وسأعرض لها في سياق قادم)، وأعرتها لكل أصحابي، وكانت فرحتي باقتنائها تفوق، بألف مرة ربما، فرحتي اليوم باقتناء سيارة فاخرة وجديدة. لكن الفيلم عرض أخيراً، وفي دار لم نكن اعتدنا أن يكون لها السبق في عرض الأفلام المهمة، أعني سينما دنيا، فعرض مثل هذه الأفلام يكون من نصيب شقيقتها الكبرى سينما الزهراء أو الدار الأخرى: الفردوس. ولاحظت يومذاك، أن الفيلم ربما فاق الرواية المكتوبة روعة وإدهاشاً، وذلك على خلاف ما كنا نلاحظه من فروق بين الروايات العربية ومعظم الأفلام المقتبسة عنها؛ كانت الروايات أكثر حرفية وإقناعاً، بحسب اجتهاداتنا المتواضعة في تلك الأيام.

جاء عرض "ذهب مع الريح" ربيع عام ١٩٦٧، وكانت نذر الأزمة التي سبقت حرب ذلك العام تلوح في الأفق، وقد استمر عرضه يوماً واحداً

أو يومين على الأكثر (لست متأكداً) ولاحظت أن جمهوره قليل نسبياً، وحين خرج المشاهدون لم أسمع ما يتداوله هؤلاء عادة من ملاحظات "نقدية" أو حتى أحكام تقييمية عابرة. بل لم ألاحظ الانفعالات المعهودة على وجوه من شاهدوا لتوهم فيلماً طبقت شهرته الآفاق، والأهم من هذا أنه واحد من أعظم الأفلام عبر تاريخ الفن السابع. وإذ أفكر "اليوم" في ظاهرة عدم الإقبال أو الحماسة تجاه فيلم كهذا، في ذلك الظرف؛ فإنني لا أجد تفسيراً سوى أن الظروف تغيرت، بعد منتصف الستينيات وبدء انتشار أجهزة التلفزيون لالتقاط محطتي سوريا ولبنان (وأحياناً مصر). أضف إلى ما سبق، أن السياسات الأمريكية العدائية تجاه القضايا العربية، والحملات الإعلامية المصرية التي فضحت هذه السياسات، قد قلصت من انجذاب الناس نحو الثقافة الأمريكية، بل بدأت أحسن أن إبداء الإعجاب علناً بأي منتج أمريكي (حتى لو كان فيلماً) يسبب لصاحبه الحرج أحياناً.

نعم، اقترن تعلق معظم الناس بالسينما وافتتانهم بعالمها بمرحلة بدأت قبل كارثة ١٩٦٧ بزمان طويل، ولكن الحماسة لهذا الفن بدأت بالانحسار بعد تلك الحرب؛ بحاضر تكشف حقائقه على حين غرة، وللمفارقة؛ بانفتاح العقل قبل العينين على واقع جديد... واقع صادم أطاح بضراوة متوحشة بكل أحلامنا الجلييلة؛ وأطاح معها باهتمامي بهذا الفن الجميل لعقود تالية. صحيح أن الواقع بعد حزيران من تلك السنة بدا أقل جمالاً بكثير؛ ولكنه أصبح أكثر عقلانية وصدقاً... حتى هذه الساعة على الأقل.

٨

هنا سأنهي وقفتي، التي طالت قليلاً، مع السينما، وسأنتقل إلى الحديث عن بعض الذكريات في مجال قريب منها؛ أعني الإذاعة الأردنية؛ فقد استولت هذه الإذاعة في الفترة التي سبقت شيوع التلفزة (بدءاً من منتصف الستينيات) على ألباب الناس واستحوذت على اهتماماتهم، وكانت ببرامجها المناسبة لطبيعة المجتمع آنذاك، وبالأغاني التي لم تكن تكتفي ببثها فحسب؛ بل تشرف على إنتاجها وتمول كلفتها، جهازاً لم يعرف له تاريخنا (المحلي) مكافئاً في صناعة البهجة للأسرة الأردنية وصياغة الوجدان للمجتمع بعامة. إن تجربتي وجيلي مع (السينما)، تزامنت وتداخلت مع ذروة انجذاب الناس بكل فئاتهم إلى ما ستسمعه الناس كل ليلة من "مضافة أبو محمود" من محادثات الحاج مازن و"هربة" أبي محمود وختام المسك مع موال عبده وربابته...

شهدت الخمسينيات والنصف الأول من الستينيات إذن، ذروة المجد الإذاعي، واحتلت الإذاعة الأردنية في عمان، التي بدأ بثها عام ١٩٥٩، المكانة الأولى لدى المستمعين في الأردن، وفي إربد بطبيعة الحال. صحيح أن الإذاعة "الإسرائيلية" كانت تنافسها في بعض البرامج الإخبارية والترفيهية من قبيل برنامج "سفينة نوح"، بشخصياته التي أخذت شهرة واسعة في ذلك الحين، من أمثال أبي طافش وأبي خليل، لكن إذاعة عمان ظلت تصدر كل الإذاعات الأخرى في أعداد المستمعين، وبخاصة في برامجها التي تنفرد فيها وأبرزها بطبيعة الحال: "مضافة أبي محمود". ولا أظن، أن أسرة في الأردن (إلا في القليل) أو في المناطق القريبة في الدول العربية المجاورة، لم تكن تنتظر كل يوم

بفارغ الصبر عقارب الساعة وهي تلتقي عند السادسة والنصف، موعد التّمام شمل المضافة للاستماع عبر الأثير إلى ما يجري في مجلس أبي محمود؛ ففي ربع ساعة كان هذا المجلس يثير قضية ما، ذات بعد اجتماعي في الأغلب الأعم؛ فيدلي كل دلوّه بوجهات نظر متناقضة قد تنتهي بمساجلة حادة، ليتدخل أبو محمود ليفض النزاع بين المتنافرين، وليطلب إلى واحد من المطرّين عبده موسى، أو زين، أن يختم الجلسة بعزف ساحر على الربابة مصحوب بأغنية شعبية شجية من أغاني الريف أو البادية.

وقد انتشر تعبير مضافة أبي محمود، ليطلق تظرفاً، في بعض الأحيان، على أي مجلس، فيقال مثلاً: "والله بيته مثل مضافة أبي محمود" أي دائم الانعقاد ومفتوح لأي طارق مُنتاب، ومن هنا اكتسب الصديق الأستاذ تركي حداد كنيته: "أبو محمود"، من كون بيته - وما زال حتى اليوم - يشهد كل ليلة مضافة يأنس إليها كثيرون ممن تتباين (أو تتفق) أفكارهم أو وجهات نظرهم.



وقدمت الإذاعة الأردنية في ذلك الحين، برنامج "معكم في كل مكان" وكان يقدمه مديعان محترفان وموهوبان: سري عويضة ومحمود الشاهد، وأذكر جيداً الصدمة التي أحدثتها الوفاة المبكرة والمفاجئة لسري عويضة عند

الناس في الشوارع والمجالس. وفكرة هذا البرنامج تقوم على تفاعل بين الإذاعة والجمهور من جهة ، وبين الناس أنفسهم من جهة أخرى. وأذكر أن البرنامج كان يبدأ بعبارة: مع الأخ فلان، ثم تُروى حكايته التي يتولى صياغتها البرنامج؛ فيكون وسيطاً بين جميع أطراف ذوي العلاقة، وكانت مقاهي إربد، الكثيرة في ذلك الحين تضع مؤشر الصوت في جهاز الراديو كل ليلة في التاسعة إلا ربعاً عند برنامج "معكم في كل مكان"، وبأعلى صوت يستطيعه الجهاز. والملاحظ أن المقاهي في إربد كانت تضع جهاز الراديو في أقرب موضع إلى الشارع، بحيث يكون المارة جزءاً من المستمعين إضافة إلى من هم في داخل المقهى. أما نشرة أخبار الثانية ظهراً؛ فتقدمها المقاهي خدمة مجانية لكل مجاوري المقهى ولسابلة الطريق كذلك.

على أن أهم ما كانت تبثه إذاعة عمان في ذلك الوقت كان الأغاني المحلية، وقد طارت في تلك الأيام، مع افتتاح الإذاعة في نهاية الخمسينيات أغنية "بين الدوالي"، فكانت القاسم المشترك في كل مناسبة سعيدة. وأذكر أنني كنت استمع لمقابلة إذاعية مع رئيس الوزراء في ذلك الحين هزاع المجالي، وطلب إليه المذيع أن يختار أغنية لتهديها إليه الإذاعة ويهديها بدوره للمستمعين، فاختار أغنية "بين الدوالي"، وهنا علق الخال أبو سليمان وكان قد شارف الثمانين بقوله: "يا عمي شوف الزلّة الفهمان، اتنقى الأغنية اللي بحبوها كل الناس" - كما انتشرت أغاني المطربة عايدة شاهين، ولا سيما أغنية "يا هويدا هويدا لاني"، وقد سمعت أحد المطربين على مستوى الحارات (غرب إربد)

يدافع باستماتة عن لهجة هذه الأغنية بعد أن سمع نقداً من أحدهم (أثناء إذاعة الأغنية) لتناقض نطق المطربة في مقطع الأغنية:

شُفتو جنب البير مرة يا يُمه حط بقلبي ميت حسرة يا يُمه
جيت اشرب وعَبِّي الجرة سقطلي الدلو... ..

ففي حين نطقت "قلبي" كالفلاحين عادت المطربة لتتطرق الحرف نفسه في كلمة أخرى بلهجة أهل المدن؛ فكانت "سأطلي الدلو".

وإذا استثنينا الرائدتين الكبيرتين للأغنية الأردنية (توفيق النمري وجميل العاص) فإن المكانة الأولى بين المطربين المحليين (على المستوى الوطني) ظلت من نصيب كل من كل عبده موسى وسميرة توفيق، والاثنان كانا يحظيان بفقرة ثابتة شبه يومية لإذاعة أغانيهما؛ الأولى كانت فقرة حية متجددة في نهاية الحلقة اليومية من مضافة أبي محمود، وكانت من نصيب عبده موسى بطبيعة الحال، أما الثانية فكانت لها فقرة شبه دائمة تذاع مباشرة بعد المضافة، بعنوان: من أغانينا الأردنية (على ما أظن) وكانت شبه مخصصة لأغاني سميرة توفيق من مثل: "برجاس ياقاضي الهوى" التي كان يسبقها صوت الأستاذ صلاح أبي زيد (المدير الأسطوري لإذاعة عمان) وهو يقرأ كلمات الأغنية بصوته الرخيم وإلقائه الساحر.

على أن استماع الناس للأغاني في إربد، لم يكن مقتصرًا على الأغاني الأردنية ولا على إذاعة عمان، وهذا حديث لا أظن أن مكانه في هذه الأوراق.

عصر الرومانسية... والحب

-١-

بداية، فإن الروح الجمعية السائدة في الخمسينيات والستينيات كانت روحاً رومانسية، حتى الأغاني العربية كانت كلها تتنفس بهذه الروح، سواء العاطفية، أو الوطنية، أو القومية. وسأتوقف قليلاً هنا عند الأغنية العاطفية، وتحديدًا عند فريد الأطرش، لشدة ما تفاعل الناس معه بمظاهر كانت تكتنف أحاديثهم، وتنطق بها بعض جدران مدينتهم.

لم تكن المجاهرة بأغاني فريد الأطرش أمراً يعيب كثيرين أو كثيرات؛ ومعظم هؤلاء يذوب في أغانيه ويجاهر بهذا، ويتحرق لمشاهدة أفلامه للاستمتاع بهذه الأغاني في المقام الأول. وأذكر أنني هممت مرة بقطع تذكرة لمشاهدة أحد أفلامه بعد بدء العرض، فإذا بأحد عمال السينما، وكان جاراً لنا يلكنني قائلاً بانفعال: "إنت مجنون بتروح عليك أغنيتين"، وألح علي أن أؤخر دخولي إلى العرض التالي ليتسنى لي "مشاهدة" الأغاني كلها. واستجبت لطلبه مراعاة لنخوته، في المقام الأول. ولكن حكاية عيدة، كانت أكثر طرافة.

كانت عيده في حوالي الثامنة عشرة من عمرها آنذاك، (نهاية الخمسينيات) أما والدها، أبو عيدة (ليرزق بنين) فقد كان يملك دكاناً من دكاكين الحارات، يبيع مستلزمات البيوت البسيطة و احتياجات الأطفال من ملابس وقضامة وبزر وخلافه، وفي كثير من الأحيان تتولى عيدة أمر الدكان في

غياب أبيها، وكان بيتنا يقع إلى الغرب قليلا من دكان عيده وصوت الراديو المنبعث من بيتنا يصل إلى مَنْ في الدكان بوضوح، وكانت تطلب مني أن أرفع صوت الراديو كلما جاءت أغنية أثيرة لديها من لفريد الأطرش: "وحداني حعيش كده وحداني" مثلاً؛ فكنت وأشقائي نناكفها فنرفع من صوت المذياع (أو صوت فريد) ثم نخفضه بسرعة، فتقف على باب المحل وتنادي بل تناشد أحياناً، وأخيراً وجدت الحل بطريقتها، فلجأت إلى رشوتي ببعض "التوفي" الفاخر، أو بحبة شوكلاته "سلفانا"، وكانت حديثة الظهور.

وشاعت في تلك الأيام بعض الأغاني التي ارتبطت ببعض الدلالات، بل إن بعض الحبثاء قد أبدلوا الكلمات الأصلية، وجاءوا بأخرى بذية كما وقع مع أغنية: "يمه القمر ع الباب"، وأصبحت الكلمات البديلة (البذية) أكثر سيرورة وانتشارا بحيث نسي الناس الكلمات الأصلية. وقد قرأت في أحد المواقع في الآونة الأخيرة - ولم أعاش هذا بنفسى - أن إذاعة عمان قد منعت بث هذه الأغنية، درءاً للبذاءات العلنية التي كانت تصاحب إذاعة الأغنية في المجالس والمقاهي.

ومن تلك الأغاني التي كانت بعض مراهنات الحي يرددنها دون حرج في الأفراح المختلطة وفي تجمعاتهن مساء أمام العتبات أغنية: "وقفوا الخطاب ستين ع الباب مارضيش أبويا" وذات يوم مررت من أمام بيت أبي سعيد (جارنا) وكانت ابنته سهام جالسة على العتبة ويدها "دربكة" من الحجم الصغير وقد أخذت تغني بأعلى صوتها: وقفوا الخطاب، فالتفت إليها وقلت

بصوت سمعته دون شك: "ريته (ليته) ما رضى"، وكانت سهام (وهي تكبرني بعامين أو ثلاثة) مشهورة بعدوانيتها وسلاطة لسانها ومضاء أظافرها حين تُعملها في وجوه الصبية الذين يناكفونها، ولكنها لم تشأ أن تتيح لي فرصة "قطع اللّس" كما يقولون، ومضت في غنائها كأن لم تسمعني.

أما المبلّط "وصفي" فحكايته مع الغناء تبدو اليوم بالنسبة لي موقفاً سردياً كوميدياً متكاملًا. كان هذا من أبناء نابلس، وقد جاء مع الشركة التي كانت تتولى تشطّيات مستشفى الأميرة بسمة، ولكنه ما لبث أن صاهر إحدى العائلات المشهورة وحظي بعروس فائقة الجمال اسمها حورية، ولها من اسمها كل النصيب. كان هذا مولعاً بتناول العرق، ويبدأ طقسه اليومي معه قبيل الظهر، وكان يجلو لي وصحيي أن نراقب عمله الممتع الدقيق وهو يرص صفوف البلاط طولياً وعرضياً ثم يبدأ بملء المربعات والفراغات. وفجأة يفتح "الرُبعية" ويكرع كمية لا بأس بها من العرق القراح، ومع "الكرعة" الثانية يبدأ بالغناء بأعلى صوت فيتردد صداها في أنحاء المستشفى الفارغ بل يصل إلى البيوت المجاورة، كانت أغنية نجاح سلام المفضلة لديه وربما الوحيدة التي يكررها كل يوم: أويها يا حبيب قلبي وعيني أويها يقمر نور علي. ويبدو أن كلمات الأغنية ومعانيها، كانت جزءاً من بنية الحكاية التي يعيشها في الواقع؛ إذ لا تلبث حورية أن تأتي ضاحكة تتمايل وهي تحمل له "زُواده"؛ فيطلق زغرودة يتردد صداها في أرجاء المبنى الواسع كافة. أما المراهقون المرابطون على الدرج غير المبلط بعد، فلم يكونوا ليكتفوا بالطرب فحسب؛ بل

تروح نظراتهم المشتعلة، تلاحق ساقى الحورية الصاعدة إلى فوق، بفستانها القصير المشجر، وهي ترد على الزغرودة بأجمل منها معلنة عن قدوم الزاد... والسحر والفتنة؛ ألم تكن حورية؟

- ٢ -

ومع بداية الستينيات بدأت أقرأ عن المعارك الصحفية التي كانت تجري حول المطربين، وكانت الصحافة والمجلات اللبنانية، بخاصة، هي التي تشغل، وأحياناً تشعل أوار هذه المعارك. أما المجلات المصرية (الكواكب مثلاً)، فقد كان وقوعها بين أيدينا أمراً صعباً، نظراً لبعد المسافة، وكذلك للقرارات السياسية التي كانت تحظر، في بعض الأحيان، دخول المطبوعات المصرية، وكان هذا الحظر يستمر أحياناً لسنوات.

كانت مجلة "الموعد" اللبنانية الأكثر حضوراً وتأثيراً بين المجلات الفنية في إربد، وغالباً ما كانت تأتي عن طريق موزعي الصحف، بما في ذلك صحافتنا المحلية، أو من بعض "المكتبات" في شارع الهاشمي تحديداً، ولكن ظهور رصيف عطية والزرعيني جعل من حصولنا على مثل هذه المجلات أمراً سهلاً ومتاحاً في كل وقت.

حسناً، كان لمجلة الموعد موقف داعم وثابت لعبد الحليم حافظ، الشخص والأغنيات، على العكس من موقفها إزاء فريد الأطرش وفنه وكان هذا الموقف من فريد يغيب مريديه ومريداته، ولا أذكر بالضبط الموقف الذي كانت عليه مجلة "الشبكة"، لكنه، على الأرجح، كان أقل حماسة لعبد الحليم.

وكان انحياز "الموعد" لعبد الحليم يشمل أي أغنية جديدة أو فيلم جديد، بل كان يشمل شخصه كذلك، أذكر أنني قرأت فيها رأيا مؤداه أن عبد الحليم ملحن كبير، وأن ألحانه لا تظهر فقط لأنه لا يملك الوقت الكافي. وساعد على استعار هذه "المعركة" في مجتمعنا أن قسماً كبيراً من صبايا إربد وسيداتهما (متوسطات العمر خلال تلك الفترة) كن متعلقات بفريد وأغانيه لحد الهوس، بل ذكرت لي شقيقتي فادية أن عيدة (البقالة) سمعت صوته ذات يوم منبعثاً من منزلنا، وحين علمت أن البيت خالٍ من الشباب تركت البقالة وجاءت إلينا ثم عانقت الراديو وفريد يغني وحاولت أن تحمل الجهاز، على ضخامته، لتضعه في حضنها. وانتشرت في تلك الأيام شعارات على جدران إربد بالدهان الأحمر، تصف فريد الأطرش بأقذع النعوت، وتشبه صوته بالنهيق وتغمز وتلمز من أصله وفصله وانتمائه. هل هي الغيرة الدفينة على النساء؟ حتى هذه اللحظة ما زلت أفكر في هذه الظاهرة التي كانت تدفع بعض الأزواج أو الإخوة الذكور لاتخاذ موقف عدائي تجاه زوجة أو أخت، لا لشيء سوى تعلقها بأغنية ما لفريد أو عبد الحليم، لكنها على أية حال ظاهرة ظلت محدودة للغاية، ولا تخلو من مفارقة؛ فمن كان يعادي أخته لأجل عبد الحليم كان هو نفسه يذوب بأم كلثوم أو عبد الوهاب.

وكثيراً ما شاهدت حلقات النقاش بين الصبايا والسيدات وقد ارتفعت الأصوات وكادت الأمور تصل لحد الشجار حين المقارنة بين أغنية "مين يعرف" لفريد الأطرش (مثلاً) وأغنيته الأخرى "اسأل الفجر والغروب".

على أن لأغاني عبد الوهاب مكانتها بين الكبار بخاصة، وأحياناً تكون مجالاً لحديث هادئ بين الجالسين في مقهى الكمال أو مقهى باكير أو حتى مقهى أبي ذياب، وذلك حين ينبعث صوت عبد الوهاب بإحدى أغانيه (وأكون وقتها برفقة والدي انتظاراً لمرافقته في عودته إلى البيت، طبعاً بناء على تعليمات الوالدة)؛ فيعلق أبو غالب مثلاً: "هاي سمعناها في فيلم "رصاصه في القلب" ليتطور الحديث إلى قصة الحب العارمة التي كان يعيشها عبد الوهاب مع السيدة نهله، فيدلي كل منهم دلوه ويقص على جلسائه آخر ما قرأ أو سمع حول الموضوع ...

على أن الأغنية الوطنية ظلت - في الأغلب الأعم - خارج النقد والتشويه. وقد حظيت أغنية عبده موسى "الثأر" بانتشار واسع، وكان الكثيرون من هواة العزف يحاولون أداءها ولكن امتداد نغماتها كان أقوى من كل قدراتهم ولا سيما مطلعها الذي يقول:

يا هلا ويا مرحبا منين الركب من وين أقبل علينا الضحى يا زينة

اقباله

وقد شاعت أواخر سنة ١٩٦١، أي عقب انفكاك الوحدة بين مصر وسورية أغنية سياسية، أذكر أنها - على كوميديتها السوداء - أوجعت قلوب بعض الشباب الميسر بقدر طرافتها عند البعض. لم أكن في ذلك الحين بحكم سني (١٢ عاماً) قد كونت رأياً سياسياً مستقلاً، ولكنني على اطلاع واسع بأخبار الدنيا بحكم التصاقي بجهاز الراديو، وقد استظرفت تلك الأغنية، بعد

أن استمعت إلى العم سر كيس (أبو يوسف) وهو يردد لها بصوته الجهوري أمام بيت النار. ويقول مطلع هذه الأغنية: "أبوصياح أخي شو هالوحدة"، وحين وصل إلى المقطع الذي يقول:

أبو صياح روح شوفلك قضية حاجي تغني وتقول ع الحرية

ردد المقطع مع بعض التحوير:

"حاجي تغني وتقول جاية المية".

وكان يضبط إيقاع حركة الطرحة التي يدخل بها الخبز ويخرجه من بيت النار بإيقاع الأغنية. وفجأة حصل ما كان يحصل في كل مرة، إذ "عصلج" رغيف ما داخل الفرن، فقطع الرجل الأغنية وراح يشتم أبا صياح والمية والطرحة والوحدة وكل الموجودين حوله، ومن هو أهم من كل الموجودين.

-٣-

إن الاهتمام الكاسح بالإذاعة والأغاني والأفلام، يعني - من جملة ما يعنيه - أن معظم الناس خلال تلك الأيام كانوا يعيشون حالة وجدانية، تكاد تكون واحدة. ولطالما باهت الشعوب والأمم بحالة توحد الوجدان، حتى لو جاءت مظاهر هذا التوحد عن طريق أغنية أو مطرب أو حتى من خلال فرقة غنائية؛ كما يباهي الإنجليز مثلاً، وحتى يومنا هذا بفرقة البيتلز، ويعدونها مظهرًا من مظاهر الإجماع الوطني، فنياً وعاطفياً، في مجتمعاتهم متباينة الأعراق والثقافات. لا يخطر ببالي بطبيعة الحال أن "أسحب" هذا الرأي على حالتنا الوجدانية في الخمسينيات والستينيات، ولكنني أزعم أن الرومانسية كانت

حالة شاملة بل مشتركة لدى الشخصية العربية في ذلك الحين، وإربد، بظروف المجتمع الانتقالي بين قيم الريف وأنساق الحياة الاجتماعية المدنية، كانت ولا شك أكثر إيغالاً في هذه الحالة الرومانسية، وهي حالة لا تقتصر على الحالة الوجدان والتعلق بالطبيعة، بل تمتد إلى الموقف الشامل للشخصية الرومانسية في كل جانب من جوانب الحياة الاجتماعية والسياسية، والفكرية، والنفسية، والروحية.

حسناً، لنلاحظ بعض الشوارع في ذلك الحين؛ شارع الحصن، وشارع السينما (الشهيد وصفي التل اليوم) وامتداده الشرقي، أي شارع بشرى، وشارع النهضة، وإلى حد ما شارع الهاشمي في قسمه الشرقي، وبعض الشوارع الموازية له شمالاً. كانت أرصفة هذه الشوارع النظيفة متنزهات صغيرة يومية بدءاً من أيام الربيع الأولى وانتهاءً بأيام الخريف الأخيرة؛ العريس وعروسه، وربما الزوج وزوجته تجر أمامها عربة رضيع، وسرب من الصبايا، من سكان تلك المناطق بفساتينهن الزاهية وشعورهن "المسافرة في كل الدنيا" - حسب تعبير نزار - دون يكون مجنوناً، لا الشعر ولا صويجباته. ضحكات محتشمة؛ وحركات الأيدي أحياناً في الهواء تعبيراً عن رغبة في الانطلاق واحتضان الدنيا. مجموعة من الشباب في مظهر متحضر، حالة من الحياء والأدب العام، وإذا حاول أحد الشبان أن "يخفف بدمه" بعبارة ثقيل؛ ينال نصيبه من التقرير أو ربما ما هو أشد، أو قد يتحول إلى أضحوكة لحيثته التي يبالغ أصحابه في تصوير درجتها.

كان أقصى ما يطمح إليه الشاب آنذاك نظرة حية أو نسمة هواء تعبت بشعر حساء تكون موضع متابعته ومناطق أحلامه، أو أي حركة عفوية، يبني عليها أحلامه ويقنع نفسه بأن "صاحبه" واقعة (لشوشتها) في دباديب غرامه ... مسكين.

على أن الأمور لم تكن تمضي - في كثير من الحالات - على ذلك النحو المثالي أو النموذجي؛ فذات يوم، التحقت، بحكم وجودي بالصدفة، بركب من صبايا الحي وسيداته، وكانت وجهة النزهة الجزء الغربي من شارع فلسطين، والممتد من "العَبَّارة الرئيسية" (مباشرة تحت المستشفى) حتى "القهوة"، وهو مبنى قديم من الحجر الأسود كان يقع على الجانب الشمالي من شارع فلسطين ويقال إنه كان مقهى فيما مضى. كان السرب على ما أذكر يضم شقيقتي فادية وقريبتنا جورجيت إضافة إلى صبايا الجيران: خيرية وهدى وفاطمة وربما غيرهن.

وفجأة التفتت هدى إلى الخلف وطلبت بحزم من أحد الشبان أن يكف عن تتبع الركب، ولكن الشاب استخف بالفتاة بل أطلق بعض عبارات التحدي من أنه حر وما إلى هذا، فما كان من جورجيت إلا أن اتجهت صوب جندي في الجيش (ربما كان من الحرس الوطني) تصادف مروره لحظتها، واشتكت إليه سلوك الشباب، واستجاب العسكري لنداء النخوة من الصبية الحسنة، واستوقف الشاب، في حين استمرت الصبايا في طريقهن، أما أنا فلزمت مكاني لأتابع تطورات المشهد. تشاحن الاثنان، وبدا أن الشاب كان

مدركاً أن العسكري ليس شرطياً، وأن تدخله في هذا الأمر، من ثم، ليس من شأنه، وكأن العسكري الشهم استكثرها على كرامته وأن يستخف بمكانته هذا المتسكع؛ فهدده باصطحابه إلى المخفر، وكان الرد مزيداً من الصلف من جانب الشاب: "وأنا مستعد امشي قدامك للمخفر تانشوف شو خَصَّك"، واستجاب العسكري بدوره للتحدي: "يللا معاي" ورأيناها يسيران معاً جنباً إلى جنب شرقاً باتجاه المخفر. وحين عدنا إلى البيت أخبرت أهلي بالواقعة، فعلق أحد أشقائي: "الله يعينه على عصاية أبو زياد". أبو زياد؟ ومن في إربد لم يكن يعرف من هو أبو زياد؟ لترك رومانسية إربد برهة، ولنتوقف قليلاً عند أسطورة أبي زياد.

أدركته نقيباً، حسب التسمية القديمة لهذه الرتبة، أي بثلاث شرائط معلقة على الساعدين يتوسطها التاج، والمعروف أن رتبة النقيب أصبحت تطلق فيما بعد على من يحمل رتبة "رئيس" بثلاث نجوم على الكتف. وكان أبو زياد قائداً للمخفر الشرقي، الواقع - آنذاك - في فيلا من الحجر الأحمر على شارع بغداد شرق البريد مباشرة.

وعلى الرغم من صغر رتبته فقد كان مهيب السميت مرهوب الجانب، وكان الأشقياء في إربد - أمثال أولاد جادو في الحي الغربي - يحسبون له ألف حساب، ومروره فحسب في الشارع يفرض هيئة الدولة بما تعنيه الكلمة، وكنت ألاحظ أن والدي ورجال الحي يتبادلون معه التحيات بقدر كبير من المودة والاحترام المفرط، ولطالما سمعتهم يتحدثون عن كرمه وشهامته

وصرامته وعدالته كذلك، لا أذكر اسمه المجرد، بل فهمت فيما بعد أنه ينتمي لإحدى عشائر الكرك، لكن الكل لم يكن يذكره إلا بكنيته. كان قصير القامة قليلاً وذا كرش يمتد قليلاً أمامه بما لا يجاوز نصف متر، يمخر شوارع المدينة ويمناه عصا قصيرة تذكر بعصا الماريشالية. أشيعت عنه عبارة مشهورة، أكاد أجزم أنها من قبيل الخيال الشعبي أو التندر، يقال، والعهد على هذه الرواية، إنه كلما جاؤوه بأحد الأشقياء أو ما شابه، ويأبى هذا الإقرار بفعلته يهدده بقوله: "يلعن أبا أمك وأنا قايد المخفر". ورغم الهالة التي كانت تحيط بالمخفر وبشخصية قائده؛ فقد سمعت بنفسى ذات يوم بعض الفتية ممن ينطبق عليهم وصف "زعران" حين مروا من أمام المخفر صرخوا بصوت واحد: "يلعن أبا أمك وأنا قايد المخفر"، ثم مضوا دون أن يكثر لهم أحد.

المهم، أنني لم أعرف ماذا جرى للشاب الذي اشتبك مع صويحبات شقيقتي، أو ما إذا كان الاثنان قد بلغا المخفر حقاً.

٥

ما زلت أذكر جيداً بعض اللمحات عن الرومانسية في إربد، وعن أشكال الحب وحكاياته التي كانت ملء السمع والبصر؛ بين فلان ابن فلان وعلانة بنت علان، وأنها يتبادلان الرسائل "عينك عينك" إن بالعيون، أو بالورق المكتوب، الأحمر والزهري والأخضر، وكل الألوان ما عدا اللون الأسود.

وعلى ما يبدو فإن التراسل، وغالباً ما يبدأه الشاب بطبيعة الحال، كان الوسيلة الأنجع لطلب العلاقة الرومانسية أو لنشدان الإعجاب المتبادل. وكان إيصال الرسائل يتم بطرق عديدة، أبرزها اختيار لحظة يكون فيها الشارع خالياً أو شبه خال؛ فيدفع المحب رسالته من الشباك المفتوح إن كان ثمة تواطؤ، أو يلقي بها أمام المحبوبة وهي عند البوابة تتظاهر بمناداة شقيقها الصغير كي يتناول طعامه أو يأوي إلى فراشه، أو تقف في الفراندة بيدها كتاب للمذاكرة، أو تتظاهر بنشر الغسيل أو أخذ فكرة عن "الجو".

ولكن المشكلة أمام "أنور سعد الطلال" كانت أكثر تعقيداً؛ فقد كان باب منزل أبي العبد، الضابط المهم في الشرطة هو المنفذ الوحيد لمواجهة المنزل المحاذية للشارع، ولم يكن ثمة برندة أو شباك، ولا سبيل لإيصال الرسالة إلى ابنة أبي العبد، الحسنة الصبية "نسرین" (وكان اسماً نادراً آنذاك) إلا من خلال عتبة الباب، المدخل الوحيد للبيت. بيد أن أنور وجد حلاً للمشكلة، بمعونتي.

ذات يوم وجدته يؤشر لي بيده أن تعال، كنت في الثامنة أو التاسعة، وقال لي، أعط هذه الرسالة لنسرین، وقبل أن يسلمني الرسالة كان قد وضع في يدي قرشين، من فئة أصغر قطعة نقدية فضية حجماً (القرطة)، فألجمني وكانت النفحة كافية لتجعلني لا أتردد في قبول المهمة، قرعت الجرس، بعد اطمئناني إلى أنها هي من سيفتح لي الباب، وفتحت نسرین الباب ناولتها الرسالة وغادرتها لا ألوي على شيء.

لكن نصيب "ربحي" في هيامه بهدى بنت جيرانه كان فضيحة كادت تؤدي إلى تطليق أمه. كان في حدود السابعة عشرة من عمره، واعتاد أن يساعد أباه في إدارة أمر الدكان وقت انشغال الأب بأمر آخر أو وقت راحته بعد الظهر. وكنا نتجمع في هذا الوقت بالذات في الدكان لشراء الكازوز ولعب "الفورة"، وهي لعبة تقوم على المراهنة بفوران الزجاجاة بعد فتحها، ويكون الفائز لمن يمسك الزجاجاة بقبضته إن لم تفر، في حين يفوز من يستعمل المفتاح في حالة عدم الفوران (وقد يكون الرهان على الحالة المعاكسة)؛ لذلك كان البعض يلجأ للغش بهز الزجاجاة خفية حتى لا يلاحظ ذلك ماسك المفتاح. وكان ربحي، الشاب المرح، الذي يفضل الجميع التعامل معه عوضاً عن أبيه البخيل وصاحب التقطية الدائمة ... يقوم بدور البائع والحكم كذلك إذا ما استعر شجار، لحظة انكشاف الغش، أو إذا أنكر أحد الطرفين اندلاق الكازوز فوق عنق الزجاجاة من عدمه، وفي هذه الأثناء يكون ربحي قد فتح خطأ صامتاً عبر الأثير بلغة العيون باتجاه آخر، بالإضافة إلى الدكان، نحو هدى، جارتة الحسنة، الواقفة في الفراندة المقابلة للدكان، لسبب ما يُخفي السبب الحقيقي: تبادل نظرات الهيام والابتسامات والإشارات وربما المواعيد الخفية، مع أن هذا كان يتم -فقط- عبر العيون وبلغتها، وربما بحركات رشيقة باليدين والأصابع.

كان أكثر المتجمعين حضوراً للعبة "فارت" وانتباهاً - في الوقت نفسه - لأمر الغرام هو شقيقي إميل، ويبدو أنه ضبط الاثنين في لحظة الجرم

المشهود؛ يتبادلان الابتسام.. فوجه كلامه (وكان أخي في حدود الثالثة أو الرابعة عشرة) إلى ربحي قائلاً وهو ينظر باتجاه الفراندة: "شو ربحي؟ ... امصاحب؟" وأخذ الصغار وقد نسوا "فارت" يرددون: "ربحي امصاحب... ربحي امصاحب". لم يكن أمام ربحي المؤدب سوى الهروب إلى داخل المحل ومنه عبر الباب الخلفي للدكان إلى بيتهم لتخرج إلينا أم ربحي وتطردنا وتسمعنا ما نستحق.

لكن القصة لم تنته عند ذلك المدى... فما هي إلا ساعة أو أقل إلا وأم ربحي وشقيقته تقرران باب بيتنا ويدخلان دون انتظار للإذن، وتجهش أم ربحي بالبكاء مناشدة والدتنا أن تكف شر صغارها عن ربحي لأن أباه إن علم بالأمر فسيطرده من البيت ويطلقها... انتهت القصة في ذاكرتي بين الأميين، عند التعهدات، والوعود بالويل والثبور يحل بنا إن تمادينا، بطبيعة الحال. ولكن مصير هدى عرفته الحارة كلها، بل شارك الجميع باستثناء ربحي-ربما- في حضور فرحها المفاجئ، حين تم زفافها إلى طبيب يعمل في الكويت، وانقطعت أخبارها-عني- منذ ذلك اليوم.

٥

على أن صبايا الحارة لم يكن كلهن في حياء هدى وتوقفها عند حدود الإشارات والنظرات والابتسامات والمواعيدات التي افترضناها، فقد ذهبت وصال، بحضوري، مع صديقي المقرب عبد العزيز إلى مدى يقارب ما كنا قد بدأنا نشاهده في الأفلام؛ فذات ليلة باردة مظلمة إلا من نور مصباح الشارع

البعيد والواقع عند زاوية الطريق، كنت وصديقي "نكزدر" (نتمشى) في شارع قريب من بيتنا حيث تقطن أسرة أبي يوسف، وكانت وصال هي البنت الوحيدة التي بقيت تعيش مع والديها بعد أن تزوجت ثلاث من شقيقاتها وجميعهن أصغر منها، وقد اقتربت من مرحلة العنوسة التي لا أمل في الخروج منها، وهاهي تصارع الأيام انتظاراً لقدم عريس تأخر إلى الدرجة التي راحت تبحث فيها عن علاقة عابرة مع أي شاب تستلطفه، حتى لو جاءت المبادرة منها، وأشك - وهي في تلك الهيئة من الدمامة - أن المبادرة كانت لتأتي من أي طرف ثان.

كانت في حدود الخامسة العشرين، وكنا نصغرها بما لا يقل عن عشرة أعوام، ولكن عبد العزيز، على أية حال يكبرني بعام؛ لذا ربما لهذا السبب، والعلم عند الله، ولأسباب أخرى أجهلها اختارته هو، ولم تخترنى أنا، مع أنني ابن الحارة، وعبد العزيز قادم من البارحة. وهكذا وفي مشوار تلك الليلة الباردة انقذت أمامنا كتلة بيضاء... منديل قماش مطرز في داخله مكعب شوكلاته - اقتسمناها - وورقة سرعان ما تبين أنها موجهة لعبد العزيز بالاسم ... يا للهول ... لم تُعبّرني العانس بنت ال... جيران؛ فتمارس عشقها في حضوري وكأنني لست ابن حارتها، و دون أن تخشى كلاماً أو فضيحة. ولكنها كما أفهمني عبد العزيز - بعد ذلك - راهنت على أدبي وكوني صديقاً لحبيبها المختار، ثم عدلت رأيها - فيما بعد - فأخذت تدعوني أمامه: "بصاحبك

الأخوثة... " (أي الأبله) كان هذا ما أعلمني به صديقي بعد سنين، وإلا كان للأخوثة حساب مختلف - غير الأدب الجم - معها.

فهمت أنها "تحرّكت" به ذات يوم إذ تقابلا في الشارع الذي تقطن فيه مع أهلها، وفهمت كذلك لماذا كان صاحبي يصّر على "الكزدره" الليلية في هذا الشارع بالذات، وها هي ثمرة الكزدره تسقط أمامنا. إن والديها يسهران في بيت عمها، ولن يعودا قبل منتصف الليل. أفهمني "رفيق الدرب" أن الرسالة فيها طلب فوري بالقدوم... وافترقنا على أمل الحديث اللذيذ في اليوم التالي. ولم يقصر الصديق، فطيلة "الفرصة" في ساحة مدرسة "حمزة" الإعدادية ظل يحدثني كيف أكرّمته العانس بأن أجلسته على حجرها دون أن تسمح له بتقيّلها في اللقاء الأول، وكيف أنها "ضيّقت" سندويش كبدة دجاج... إضافة إلى كباية لموناضة. وواعدته ليوم الخميس التالي.. لم تعد إذن ثمة حاجة لمصاحبتني في مشوار المساء في ذلك الشارع الواقع غرب بيتنا، لبضعة أشهر على الأقل...

على أن بعض القصص الرومانسية كانت تنتهي بمأساة ما بعدها مأساة... قصة جميل العبد.

-٦-

كان جميل شاباً أسمر اللون وسيماً. كنت آنذاك في حدود الرابعة عشرة، ويكبرني بعامين أو ثلاثة، وكانت قصة هيامه بابتنة خالته آمال معلنة على الملأ. يتحدث هو عن تفصيلاتها دون أدنى حرج، ويذكر شقيقي إميل (صديقه

المقرب) أنه كان كلما مر ببيت خالته يتنهد ويطلق الآهات ويشكو لوعة الحرمان الذي يتسبب فيه والدها زوج خالته، ولكن الفتاة، كما كان يزعم، وهي في مثل سنة وربما تكبره قليلاً، عاهدته على ألا تقبل بعريس غيره. على أن الأمور سارت على نحو خالف العهود ونكث بالوعد؛ فقد تمت خطبتها إلى زكي معلم الرياضيات الشهير الذي تعاهدت معه، ربما لكفاءته، إحدى مدارس عمان الخاصة الراقية... صعق جميل عندما نُمي إلى علمه خبر الخطوبة، وتوجت مأساته حين استكملت مراسم الزواج خلال أسابيع قليلة بعد الخطوبة امتنعت آمال أثناءها، أو منعت، من إرسال أي إشارة إليه، بل إنها كانت، كما سمع من أهله وأخبر ما سمعه لشقيقي، في غاية البشر والفرحة للحدث السعيد المنتظر.

وحين تم توزيع بطاقات الفرح، وقبل "العرس" بيوم أو يومين أقدم جميل على فعلته. كنت ذاهباً في الصباح إلى المدرسة، وفجأة رأيت تجمعاً لأناس أعرف معظمهم أمام البوابة الرئيسية لمستشفى الأميرة بسمة، ولم يكن ثمة أسوار تحيط بالمستشفى بعد، وحين اقتربت من الجمع رأيت "جميل" مسجى على نقالة فوق الأرض بانتظار إدخاله إلى سيارة إسعاف لتقل جثمانه إلى بيته كما اتضح، كان قد فارق الحياة والواقفون يتحدثون عن تناوله لمادة "الفيليدول"، وهمس في أذني أحد الأصدقاء: "علشان آمال بدها تتجوز زكي". ولم أكن في حاجة لمعرفة السبب، ولا حتى للسؤال عنه. لكن بعض

قصص الحب كان يتخذ شكلاً أشد مأساوية حتى من مصير جميل؛ وهل أنسى حكاية لميس؟

كانت لميس مخطوبة لقريب لها كنت أراه أقرب إلى العته، ويعمل نجار تسليح (أي طوبرجياً). ولكنها كانت قد دأبت على مواعدة أحد شبان المنطقة (حتى لا نقول الحي). وكان عدنان (وهذا اسمه) يبادلها الشعور نفسه، ولكنه، وعلى الرغم من كونه موظفاً في دائرة البريد لم يتقدم لخطبتها لسبب أو لآخر. بيد أن خطوبة لميس للآخر لم تحل دون استمرار اللقاءات بينهما.

وذات يوم ضبطهما أحد صبيان الحارة يتمشيان في زقاق أبي حشمة الذي يربط حارتنا بشارع فلسطين وقد تشابكت أيديهما، ولم يكذب الصبي خبراً فجرئى نحو بيت لميس كالبرق وأخبر شقيقها الأصغر حسان بما يجري في الزقاق، واصطحبه ليشاهد بأم عينه "فعلة" شقيقته، فراح يرحمها والعاشق بالحجارة، وحين عادت إلى البيت كان أهلها رجالاً ونساء يتلمظون للحظة قدومها ثائرين مستنفرين، فانهلوا عليها ضرباً مبرحاً بالأيدي والأرجل والأواني والنعال. لم يتوقف العقاب عند هذا الحد.

فقد كان للميس شقيق آخر (جابر، المعروف بأبي الشباري) يعد أحد الأشقياء المشهورين في الحي، وكان متخصصاً بسرقة كوابل الكهرباء وزوايا الحديد من البيوت المشيكة، وإيابة الحمام البري في مكانه، كذلك. لم يكن لصاً محترفاً (رغم سنه التي لم تتجاوز السبع عشرة سنة) فحسب؛ بل كان مجرمًا بالفطرة... ضحيته شقيقته لميس العاشقة الرومانسية بوجهها الساحر الذي

أتذكره اليوم بهيئة وجه نفرتيتي ... لذا لا عجب أن كانت أمها تنوح عليها وتندب وهي مسجاة: "يا ميمتي يا لميس ... مثل المصريات صرقي والله مثل المصريات" (وكن مضرب المثل في الجمال في بيئتنا، بفعل السينما)...

ما سأرويه كنت شاهد عيان على معظمه، وما لم أشاهده سمعته أثناء المأتم أو بعده بأيام وربما بشهور. كان جابر قافلاً إلى البيت من المقهى، وقد أمضى سحابة نهاره وجزءاً من تلك الليلة وهو يلعب القمار في مقهى الحصيني. ويبدو أنه عاد وقد نفّض كل ما في جيوبه في تلك الليلة الليلية. اللهم إلا "شبريته"، التي اشتراها منذ فترة وجيزة بنصف دينار، وكانت من النوع القصير ولكنها حادة جداً، وأذكر أننا كنا نلجأ إليه ليشذب لنا "شاعوب" النقافة ويجهزه لوضع المطاط في رأسية، ويبدو أنه قد سمع الأصوات تتعالى من بيت أبيه قبيل وصوله، فأخذ يغذ الخطى مسرعاً ليفهم ما يجري، وفجأة اعترض طريقه نفس الصبي الذي بلغ عن "فعلة" لميس في الزفاف، وقال له بالحرف الواحد، وكنت واقفاً: "زقطناها (أي ضبطناها) مع عدنان بالزقاق".

ويبدو أن "جابر" كان في الأصل معباً بالغیظ جاهزاً لإفراغ غضبه في أقرب هدف ولأي سبب؛ نظراً لخسارته في المقهى، كما أن عبارة الصبي العلنية، وأمام جمع من أهالي الحارة جرحت كرامته، وزاد الأمر اشتعالاً أنه، حين دخل البيت، وجد أباه وزوج خالته وبعض النسوة قد حشروا لميس في الزاوية وهم يوسعونها ضرباً؛ اكتملت عناصر الغیظ، وجاءت لحظة الانفجار؛ واندفع حافز القتل إلى قشرة الدماغ العلوية؛ فانقض على لميس

بشبريته القصيرة مسدداً طعنته القاتلة إلى ثديها الأيسر، لتخترق قلبها المسكين - أي والله هذا أمامي - وانبثق الدم باتجاه الحائط المقابل كالنافورة، وبقيت بقع الدم مدة طويلة في مكانها مطبوعة على ذلك الحائط. حملها أهلها إلى مستشفى الأميرة بسمة القريب من بيتهم وهي تشهق شهقات تسليم الروح، وفارقت الحياة قبل أن يراها الطبيب، وأذكر أن الممرضين نقلوها على حمالة إلى قاعة "التسوية" الواقعة في الجزء الغربي من المبنى الضخم، وكان يطلق عليها "غرفة عزرائيل" حيث يلقي الأموات على أرضيتها العارية كيفما اتفق (لم يكن تجهيز المستشفى قد اكتمل بعد). وكنت أرافق والدتي خلال أيام المأتم، ولم يكن يُسمع سوى نحيب أمها وهي تعدد خصالها وتحدث عن جمالها وزينتها. وزاد من وقع المأساة في ذاكرتي وأعماقي، الطريقة التي دفنت فيها لميس؛ فقد رافقتُ الركب ليلاً، وجسدها محمول على نقالة وملفوف في بطانية مهترئة، واتجهوا صوب المقبرة وتولى أحد أبناء عمومتها حفر القبر، ثم قام ومعه بضعة شبان كلهم دون العشرين بتمديد جسدها داخله، وأهالوا التراب دون بناء سقفية حجارة من الطوب أو الأحجار الرقيقة كما هو معتاد، وقفلوا راجعين، وهم يتحدثون في موضوع ما جرى، وما ليست له علاقة بما جرى.

ولكن قصة "جابر" لا تنتهي قبل أن أسرد وقائع مجزرة أخرى ارتكبتها، قبل جريمة قتله لميس بفترة، وكانت حديثاً لأهل الحي صغاراً وكباراً.

إلى الغرب الجنوبي من إربد يقع "وادي السريج"، ورغم أن هذا المكان كان محاذيا لأراضي "البوز"، أحد ملاك الأرض هناك، وصاحب السمعة الأسطورية في كيل الصاع بألف لمن يدوس شبراً على أرضه؛ فإن هذا الوادي بتفريعاته وامتداداتها الواسعة كان ملاذا لبعض الفارين من ملاحقة المخافر، وكذلك لبعض المتنزهين من الشباب حين ينظمون "سيرانا" (أي نزهة بالسير على الأقدام) إلى ذلك الوادي - بعيداً عن حمى البوز - الحافل بالمناظر الطبيعية الساحرة، في الربيع، تحديداً، والمليء بالمواقع الأثرية المهمة كذلك، وكان أهم هذه المواقع "قصر الغولة" وعدد كبير من البئار (الآبار) التاريخية وكان يطلق عليها البئار الرومانية.

أما "قصر الغولة" فهو بناء بدائي مستطيل الشكل بطول حوالي خمسة عشر متراً وعرض حوالي عشرة أمتار. كان يرتفع عن الأرض ما بين مترين إلى ثلاثة، ولم يكن فيه أية شبابيك أو نوافذ، وأهم ما يلفت النظر فيه ضخامة أحجاره التي خضعت لتصميم هندسي دقيق، وماثير حتى اليوم هو كيف استطاع مشيدوه أن يرفعوا حجارتهم الواحدة منها فوق الأخر؟ ذلك أن الواحد منها كان بطول يصل إلى مترين أو أكثر، في حين لا يقل ارتفاع "المدمك" عن متر. وكان القصر يقع على حافة الوادي مباشرة، وبالقرب منه، أو فوقه في أسفل الجبل عدد من البئار القديمة التي استوطنتها أسراب من الحمام البري. وقيل: إن جابر اقترح على شباب الحارة، وكان من بينهم صديقه الأقرب، شقيقي فريد، أن يحظوا بهذا الصيد الثمين، ولو عن طريق بيعه مذبحاً.

واقترح جابر لجماعته طريقة مضمونة يأسر بها الحمام في مكمنه ليلاً ثم يكمل مهمة تحويله إلى نوع من لحوم الطير المطلوبة.

من الطبيعي أن أية حركة أو اقتراب من البئر كانت تعنى فرار الحمام بلمح البصر، هنا تتفتق قريحة جابر عن خطة جهنمية زعم أنه شاهدها في أحد الأفلام الأجنبية، وقام وصحبه بتجهيز متطلبات الغزوة الليلية: شبرية جابر القصيرة حادة النصل، وعدد من الجولات الفارغة وعدد من البطانيات أو الشوادر القديمة، ومصابيح إنارة (أبيال) من الحجم الكبير، إضافة إلى سلم طويل استعاره شقيقه من "مختار حجازي" بائع الحطب الأثغ مديد القامة وطيب القلب أو ممن ينطبق عليهم وصف "على البركة"، وكان محله "بركساً" على شارع فلسطين بالقرب من كراج هرانت؛ فأعاره السلم دون أن يستفسر عن غايته من استعارته.

وصل الركب (وأروي هنا ما سمعته) إلى الموقع في ظلمة الليل، وأمر جابر ببسط الأغطية من بطانيات وخلافه، فوق فتحات البئر بسرعة البرق. وقد تحدث الشهود طويلاً عن رفرفة الأجنحة والأصوات الأخرى التي كانت تصدر عن الحمام الذي وقع في هذا الشرك القاتل، ثم أدخل جابر السلم من فوهة أحد البئر وقد علق بإحدى طرفيه العلويين "البيل" الكشاف وربط بالطرف الآخر أحد الجوالات، ثم نزل إلى البئر حتى اختفى رأسه وراح يُعمل شبريته إياها بالحمام كبيراً وزغاليل. كانت غنيمته كبيرة، وقد رأيت بعض آثارها في اليوم التالي، من خلال بقع الدم الكبيرة حيث وضعوا الجوالات،

و"قيل" إن أحد أصحاب المطاعم المشهورة، جاء إلى الحارة، مع الفجر، واشترى الجمل بما حمل.

ما يجمع بين المواقف العاطفية التي سردتها آنفاً، أن العشاق جميعاً، كانوا من صغار السن وقليلي الحيلة، وغالباً ما كانت التجربة الأولى، لمعظمهم فتیاناً وفتيات، والأهم من كل هذا فقد كان "الأبطال" غير متزوجين، ولا حتى مرتبطين بأي ارتباط معلن باستثناء لميس بطبيعة الحال. ولكن قصة إعجاب جارنا أبي فارس وهيامه الخفي برندة زوجة ابن عمه الذي يصغره سنّاً؛ تختلف في مساراتها ومعطياتها ومتربّياتها عن كل تلك القصص.

-٧-

كانت رندة فائقة الجمال، وقد أحضرها زوجها (أبو بسام) من إحدى قرى حوران السورية القريية. وكانت دائماً ترتدي فساتين زاهية الألوان قصيرة الأكمام فتدور لقوامها الساحر رؤوس الرجال في الحارة قبل مراهقتها. وكان ابنا العم قد ورثا عن الجد بيتاً ظل مشتركاً بين العائلتين حتى تلك الأيام، والبيت مكون من غرفتين كل واحدة لها مرافقها إلى جانبها، وتتوسط الحوش شجرة توت ضخمة كانت شبه مشاع لكل أهل الحي. وبالإضافة إلى البيت فقد ورث الاثنان عن أبويهما (الشقيقين) "كورا" (أي ورشة حدادة عربية) في سوق الحدادة الواقع آنذاك في أحد الشوارع المتفرعة غرباً من شارع حكما، وفي معظم الأحيان كانا يذهبان معاً ويعودان معاً وقت

الغروب. ويبدو أن أمور العشق والهيام قد استعرت لدى أبي فارس تجاه زوجته ابن العم المثيرة إلى الدرجة التي أنضجت الخطة في رأسه.

كان أبو فارس أشقر اللون قليلاً، ربعة حاد النظرات، يبدو دائماً متثاقلاً بطيء الحركة، هادئ الطباع، أبعد ما يكون عن التهور أو الخطوات غير المحسوبة، ولكنه خالف هذه الصورة في واقعة فضيحته؛ فذات يوم أصر على اصطحاب ابن عمه أبي بسام، الزوج الذي يبدو سليم الطوية على الذهاب إلى السينما في الحفلة الثانية، وتبدأ في الثامنة أو التاسعة مساءً، وتنتهي في حدود الحادية عشرة. وحتى يحك خيوط المؤامرة على أصولها دعا أبو فارس جاراً ثالثاً معها (لعله سائق باص المدرسة، أبو قصي)، وطبعاً هذا كله كان على حسابه، تذاكر لوج وتسالي وكازوز وتضييف سجاجير أثناء العرض وما إلى ذلك، وهذه التفاصيل وما بعدها كلها أصبحت مادة للحديث بين أهل الحارة، ومن ثم تسنى لي التقاطها وتخزينها إلى اليوم.

وما أن بدأ العرض السينمائي، حتى التفت أبو فارس نحو أبي قصي وسأله: "معك أسبرو؟" ... لا يحمل الرجل أسبرو بطبيعة الحال، وكذلك الأمر أبو بسام، هنا أشعرهم أبو فارس أن الصداق "ذبحه" ولا مناص أمامه سوى الخروج لتناول قرصي أسبرو، ويأمل بالعودة لمتابعة الفيلم إن استطاع، وضع خطأ غليظاً تحت "إن استطاع" هذه.

أما بقية ما حصل، فقد كان حديث الجيران لأيام و"ليالي"، إضافة إلى حديث فارس (ابن أبي فارس) عن أسرار تلك الليلة، وكان صيماً مرحاً يميل

إلى السخرية حتى من أبيه وسائر أهله، وعلى ذمة فارس فقد دخل العاشق المذنب إلى غرفة أم بسمة (هكذا كانت تُناديها سيدات الحي، في حين يستأثر أبو بسام بالكنية التي تحمل اسم ابنه الذي يصغرُ بسمة) وقال لها بلهجة الأمر، (وهذا كله قد يكون محض خيال من فارس): "خلينا نقعد عالسرير ياغندا" (أي يا رندا؛ فقد كان الصبي يلثغ بالراء)؛ لتصدده هذه بعنف ترافق مع قدوم الزوج الذي تناهى إلى سمعه - على ماسمعت - طرف من الجلبة... وباقي الحكاية هي الفضيحة ذات الجلاجل بعينها. فقد اتضح أن أبا بسام لم يبتلع الطعام، وأنه ليس بالرجل السهل البسيط الذي يبدو "على نيته"؛ إذ لا بد لاحظ نظرات ابن عمه الزائغة تجاه زوجته، لذا، فما أن خرج أبو فارس يبحث عن علاج لصداعه حتى تبعه الزوج العتيد، ليسبب له صداعاً حقيقياً أو ربما أبدياً... وربما كانت هذه الفضيحة دافعه الأول لا لمغادرة بيته المتوارث أباً عن جد فحسب؛ بل لترك البلدة التي ولد وابن عمه فيها ونشأ في حاراتها وأسواقها... لقد استقر أبو فارس في الزرقاء، وقيل إنه التحق بالقوات المسلحة، حداداً.

وفي الجعبة الكثير من الحكايات الأخرى حول "الحالة العاطفية" في أيامي تلك، ولكنها تدور ضمن النطاق نفسه لما أوردت؛ فليس هدي هنا إتحاف القارئ، بل استحضار الجو الإنساني والعاطفي في مجتمع المدينة في تلك المرحلة.

وللقارئ أن يسألني: وماذا عن حكاياتك العاطفية أنت؟

بداية؛ فإن هذه الأوراق لا تسجل وقائع حياتي؛ بل إن غايتها الأساسية التقاط نبض الحياة لمرحلة عايشتها بكل ما كنت أملكه من مدارك ومشاعر، وللحقيقة فإن الجانب العاطفي عندي، كان، رغم اشتغاله في أعماق النفس ومسارب الروح، لا يخرج - للأسف ولطغيان الظروف - عن نطاق الأحلام والأمنيات والتهيؤات والتمثلات والتعليقات... ثم إنني لم أعش آنذاك تجربة تستحق أن أتوقف عندها، ولكن الأمور تختلف بعد خروجي إلى الدنيا مباشرة بعد الثانوية العامة (١٩٦٧)، ولهذا المرحلة وقفة أخرى وأوراق أخرى.

الرصيف.... أنبكية إربد

-١-

من حسن حظي في هذه الحياة أن هوايتي وعملي عبر رحلة العمر، متوافقان مع الميل الذي فطرت عليه: القراءة، وقراءة السرد بخاصة. ولا أزعج في هذه تفرداً أو مزية؛ فشأني في هذا شأن كل طفل في الدنيا ينجذب بمشاعره الأولى، بل بفطرته إلى حكايات "أنا"، أو عدوتنا الغولة، ولكن الفرق أنني مضيت في الطريق؛ فكانت البداية والحال هذه مع العمة أم ناصر، أو الحال (عن بعد) أبي جريس.

وكان قدوم العمة أم ناصر لزيارتنا، والمبيت عندنا يمثل حدثاً سعيداً يستوجب الاحتفاء به، وإكراماً للضيافة بكل ما تتمنى وتشتهي حتى "تَجَرَّد" حلقها "تمهيداً لانعقاد حلقة القصص، وفتح سيرة الغولة، وقصصها كثيرة ومعروفة لكل من كان طفلاً في أيامنا، ولكن أن تتخفى "الغولة" في شكل امرأة، وتتسبب في الفتنة، وتشدو بالقصيد بعد موتها، فهذه هي الحكايات التي لا يمكن أن أنساها.

وكم أتحنّني، ولعلها أول ما أتحنّني، قصة زرقاء اليمامة، وكم أثارت في نفسي هذه القصة مكان الخيال، فرحت أتخيل شكل عينها، وشكل البرج الذي تقف عليه وهي تمد بصرها وتنطق برؤاها. وكم أدهشتني شهامة هاني بن مسعود في "يوم ذي قار"، وفتنتني قصة المجنون الذي صعد إلى المئذنة وأخذ يلقي الحجارة على الناس حتى أتاه مجنون مثله وهدده بقص المئذنة

بالمنشار فنزل صاغراً، ويا لها من حكاية تثير الخيال والحواس حكاية صاحب المطعم الذي طالب الفقير برائحة شوائه، ليأتي الشرطي الحضيف فيفض النزاع بإلقاء قطعة النقود المعدنية ويطالب صاحب المطعم الطماع بثمان الرنين ... يا له من تراسلٍ للحواس (بين حاستي الشم والسمع) بلغة النقد في أيامنا، كل هذا في كتب القراءة للصف الأول الابتدائي.

وذاث يوم مرضت والدتي، مما استدعى ذهابها مع والدي إلى عمان والمكوث هناك في مستشفى "لوزميلا" لبضعة أسابيع، طلب والدي من ابن الخال جريس الأكبر سنّاً مني ومن جميع إخواني، أن يبيت معنا كل ليلة مصطحباً معه شقيقته "مرثا" التي كانت في مثل سن شقيقتي الصغرى، كان جريس آنذاك في حدود السابعة عشرة من عمره، وكان كأبيه وجدته (أم سليمان) مغرمًا بالقص بارعاً بتتبع الأحداث. يحول كل واقعة عاشها أو سمع بها إلى سردية تكاد تكون مكتملة العناصر، ولكنه - فوق هذا - جاء ويده كتاب ليقرأ لنا منه، يمتع نفسه أولاً، ويسلينا ثانياً. كان الكتاب "قصة الزير سالم... أبو ليلى المهلهل". كم سمعت سابقاً عن حكاية الزير سالم، ولكنني لم أتصور أن حكايته البديعة يضمها كتاب واحد، كما لم أتصور (أقول هذا بوعي يومنا هذا) أن سهراتنا تلك مع جريس، سينبعث خلالها أول ملاحظة "نقدية" لي ما زالت عالقة في ذهني. كان جريس ينشد على لسان كليب مخاطباً زوجته:

أيا جلييلة أيا بنت عمي أيا صاحبة الوجه المليح
رأيت اليوم من سالم فعلا يشيب لهولها الطفل الطريح

لم أهضم تعبير الطريح هذا، ورأيت متنافراً مع كلمة المريح التي ينتهي بها البيت الأول.. كنت أدرك هذه البدهيات من كثرة استماعي للأغاني، وبعد أن توقف جريس في "وصلته" أبدت له ملاحظتي؛ كيف يشيب الطفل الطريح وهو ينزل ميتاً من بطن أمه؟ لا بد أن الكلمة الصحيحة هي الرضيع، ولكن جريس لم يقتنع وقال بثقة: "كُلُّو بنتهي بالحاء!" ولو عادت الأيام لقلت له يومها: بل بكلمة أخرى تليق بفهمك وتبدأ بالحاء.

ولكن "الموقف النقدي" الثاني كان عاصفاً، وكاد يحرمني من جلسات ما زالت ذكرها تبعث في نفسي الحنين والمتعة إلى اليوم.

جاء عبد الرحيم شاباً يافعاً إلى إربد من إحدى قرى طولكرم، وكان بائع خضار جوالاً... لا أعرف بالضبط ظروفه الأخرى، ولكنني أتذكره وقد استأجر غرفة تطل على الشارع الرئيسي مباشرةً في بناية المختار الحاج أبي عثمان الصبيحي، إلى الشمال مباشرةً -اليوم- من مسجد أبي حشمة، وكان كل صباح يملأ عربته، التي كان يتركها ليلاً في حوش البناية الخلفي، بأنواع الخضار المألوفة: بندورة، وبطاطا، وباذنجان، وفقوس، وأحياناً، في الصيف؛ بعض أصناف الفاكهة ولا سيما البطيخ والشمام، والخوخ الأحمر والأصفر والتفاح الصغير، وما إلى ذلك. ولكنه لم يكن بائعاً فحسب؛ كان قارئاً نهماً ولا سيما بعد طوافه في الحارات. في بيته عشرات من كتب التراث الشعبي التي تتحدث عن السحر والغيلان والجان، من مثل "المرهج والمرهجان وعجائب الإنس والجان"، إضافةً بطبيعة الحال إلى تغريبة بني هلال، وسيرة بني هلال، وهو

الكتاب الذي يحوي التغرية وغيرها من أخبار بني هلال، وعلي الزبيق المصري، وبعض أجزاء من سيرة سيف بن ذي يزن، وألف ليلة وليلة، ومائة يوم ويوم ... إلخ. هذه العنوانات حفظتها بفضل عبد الرحيم الذي استمر يتلو بعض فصولها على مسامعنا على مدار عام أو أكثر.

وكان عبد الرحيم يحب ممارسة متعته في القراءة في جو احتفالي يجمع فيه صبيان الحارة بعد العشاء، أو تنعقد الحلقة صباحاً في أيام العطل التي تتسبب فيها أحوال الطقس في الشتاء في عدم تمكنه من الخروج للبيع. وكانت أروع الجلسات تلك التي تبدأ مباشرة بعد صلاة الجمعة، حيث يكون عبد الرحيم قد "كسر فرضه" وتناول غداءه وجلس على "الطراحة" ويده الكتاب وراح ينتظر زواره، وحين كان يقرأ كان ينغم كل كلمة، أما الشعر (الحلمتشي، بلغة اليوم) فقد كان يترنم به قصيداً منغماً، بل شبه غناء.

وذات يوم كان يقرأ على مسامعنا موقفاً من سيرة (أو تغرية) بني هلال يروي قتل ذياب "ابن" غانم لأبي زيد الهلالي حين ضربه بالدبوس على رأسه، وقد وصف لنا عبد الرحيم الدبوس على أنه كرة حديدية بحجم كرة القدم ينبعث من محيطها مايشبه المسامير الغليظة المدببة. مربوط بجنزير ويقذفه الفارس باتجاه رأس الخصم، فتكون ضربته هي القاضية. هكذا فعل ذياب بحليفه وصديقه، قذفه بالدبوس على رأسه فطار "بزر مخه" ووقع أبو زيد على الأرض وتبادل عتاباً وقصيداً مع قاتله. مرة أخرى لم أهضم حكاية أن يتحدث (بل ينظم الشعر) من طار بزر مخه؛ فأبدت ملاحظة رقيقة لعبد الرحيم بمعنى

أن هذا قد يكون غير حقيقي. هنا ثارت ثائرة عبد الرحيم، وقال بعصبيّة: "كل كلمة بكراها (أقرأها) صحيحة ... مين أنت حتى تكذب الكتب ... أكو لك (أقول لك) كوم من هان" (أي انصرف من هنا). وتوقف عن القراءة إلى أن غادرت. وقفت عند الباب الخارجي أي عند الرصيف وواصلت استماعي لما يقرأ، ثم أخذت أقرب رويداً من المدخل، وشرعت في ولوج باب الحجرة، كل خمس دقائق ... خطوة، إلى أن ضمنت أن غضبه برد؛ فجلست ضمن الحلقة دون أن يبدي أي اعتراض.

-٢-

أما قصتي في اقتناء أول كتاب (غير مدرسي) فلا تخلو من مرارة. لطالما تمنيت أن اقتني قصة الزير سالم، وكنت أراه معلقاً على حبال باعة الكتب والصور الشعبية على الجدار الشمالي للمحلات في شارع الهاشمي، حيث محلات الصيارفة والمصورون الشمسيون... وأتخسر ... ثمّنه (بريزة) أي عشرة قروش، ولكن من أين؟. وجاءت الفرصة؛ فقد حل بيننا شقيقي الأكبر فؤاد قادماً من العقبة، حيث يعمل هناك، وعلى ما يبدو فقد توافق قدومه مع آخر الشهر، فأخذ ينفح كل واحد فينا أعطيته، وكان نصيبي المبلغ المشتبه، عشرة قروش تبرق بلونها الفضي، ومشروع الإنفاق جاهز. لم أتأخر دقيقة واحدة بعد استلامي البريزة حتى كنت أسابق الريح إلى شارع الهاشمي ... أصبحت "قصة الزير" الآن بيدي، نعم، قصة الزير بغلافها الرقيق الملون وعليه صورة فارس يبخلق بعينه فوق لحية كثة، لعله يمثل "جساس"، وقد انطرح تحت

الحصان شخص شبه معلق في الهواء، لعله يشير إلى كليب، وإلى جانبه هذه الصورة الأساسية، شخص كبير الرأس يمتطي أسداً، من المؤكد أنه يمثل الزير سالم... .

لم أنتظر وصولي إلى البيت لأبدأ القراءة، فقد بدأتها وأنا في طريقي إلى البيت، وعن لي أن أعرج إلى "الصخرة" لأواصل القراءة في أخذودها. كانت الصخرة على حافة طريق شارع فلسطين بعد "نزلة" المستشفى باتجاه هذا الشارع مباشرة، وهي معلم رئيسي معروف، في حينه، لمعظم أهالي إربد. وترتفع عن مستوى الشارع بما يجاوز قامة رجل، وفيها تجويف كان يتسع لعدد من الصبية يلعبون "الفنة" أو "الباصرة" بمنأى عن الشمس والمطر وهبوب الرياح، وكان لجدار التجويف حافة تشبه "المساند". واتخذت موضعي في التجويف المكشوفة واجهته الجنوبية للمارين في شارع فلسطين، وأخذت أقرأ بنهم وأترنم بصوت يصل بالتأكيد للمارين في الطريق، وكان من جملتهم - لسوء حظي - شقيقي أديب، الذي انشق الشارع، والصخرة كذلك، عنه فبان واقفاً أمامي كالمارد الجبار.

كان أخي هذا يتوسم في مستقبلاً علمياً بارزاً، ويعتقد أن نتائجي المدرسية في ذلك الحين تبشر بأن تحقق للأسرة أمنيتها بأن يصبح أحد أبنائها طبيباً... ولطالما أبهظني توسم الأسرة هذا... ومما زاد الطين بلة أنني في الصفوف الابتدائية الأولى كنت أحصل على ترتيب الأول ثم أخذت نتائجي المدرسية تتراجع مع تزايد تعلقي بالقراءة أو بالأحرى "المطالعة"؛ ومن ثم

تلبس شقيقي اعتقاد بأن أي قراءة خارجة عن نطاق دروسي من شأنها أن تُلهيني عن واجبي الأساسي؛ فما كان منه وقتذاك سوى انتزاع الكتاب من يدي وراح يمزقه ورقة إثر ورقة تتطاير في الهواء الطلق... في حين كان صوابي يتطاير مع الورق، ربما بطريقةٍ أشد وقعاً. ركضت إلى البيت أصرخ بألم وروحي تختنق... حاول شقيقي أن يبرر فعلته الغليظة أمام والدي بالحرص على نتائجي في الشهادة، وكان واضحاً أنهما يتفهمان دوافعه رغم تظاهرها بتوبيخه، لكنه ما لبث بعد أيام، أن نفحني بريزة من تلقاء نفسه في خطوة تنم ولاشك عن تراجع عن موقفه اللفظي، وطلب إليّ شراء نسخة أخرى، لم أتردد بطبيعة الحال، ولكن النسخ كانت نفدت، وطلب إلى البائع العودة بعد يومين، ولكن حماسي فترت، وكنت أنفقت جزءاً من البريزة، ولم أقتن القصة ثانية إلا بعد مرور فترة لعلها تقاس بالسنوات.

وللمفارقة، فقد أصبح شقيقي هذا خير مُعين لي على الحصول على الروايات التي كنت أسعى لقراءتها. حصل هذا في المرحلة الإعدادية، وكنت تعلقت بقراءة روايات (إرنست همنغواي)، وكان شقيقي قد أصبح مدرساً للوسائل في إحدى دور للمعلمين، فكان يستعير لي من مكتبتها العامرة، ما أسميه له من روايات، أذكر منها روايتي همنغواي "لن تفرع الأجراس"، و"وداعاً يا سلاح". وأثناء قراءتي للرواية الثانية وقع في يدي مقال في إحدى الصحف أو المجلات يتحدث حديثاً نقدياً بلغة استطعت أن أستوعبها عن الآثار النفسية المدمرة التي توقعها الحروب لدى المقاتلين من أصحاب الضمائر

الحية، وذكر كاتب المقال أمثلة كثيرة من الأعمال الأدبية، منها شخصية "فردريك" بطل "وداعا ياسلاح". أكملت قراءتي للرواية على هدي من هذه الخلاصة؛ لأكتشف، للمرة الأولى، بهجة أن تقرأ عملا روائيا تنتظمه فكرة واحدة متماسكة. وأذكر أن أكثر من عشرة من زملائي قد تناوبوا على قراءة روايتي همنغواي. لكن "لمن تفرع الأجراس" كان لنا حولها حديث وأي حديث، و"نقد" وأي نقد، وسأعود للحديث عن تجربتي مع قراءة هذه الرواية في سياق آخر.

وقبل ذلك، ثمة واقعة صغيرة، بل تفصيل عابر في حياتي، كان له أثر كبير في ازدياد تعلقي بالقراءة، بل ما يعد اليوم، قراءة متعمقة بكل المقاييس، فوق مستوى المرحلة العمرية. كنت آنذاك في حدود التاسعة حين جاء خطيب شقيقتي الكبرى فادية لزيارتنا. وكان "عادل" يحرص على تثقيف زوجة المستقبل، أو لعلها (بوعي اليوم) ممارسة مبكرة للأبوة تجاه الأنثى والزوجة تحديدا ... وأهدى الخطيبة كتاب "يوميات نائب في الأرياف" لتوفيق الحكيم، حاولت قراءة الكتاب حينذاك؛ فلم أستطع إكمال قراءته، ولكن هذا الكتاب (وكتبا أخرى ومجلات عديدة) ظل في منزلنا ولم يكن من جملة متاع العروس الذي يغادر معها. عدت إلى قراءة الكتاب بعد حوالي عام، في أواخر الخمسينيات تحديدا، وهذه المرة أكملته، وأحسب -اليوم- أن تلك القراءة قد أثمرت لدي تأسيساً مهماً في حياتي الثقافية لأكثر من سبب؛ فلقد تحررت من سطوة حكايات الزير سالم وأبي زيد الهلالي وعلى الزبيق المصري، وغيرها.

ودخلت تجربة جديدة... عالماً "جديداً" رحت أتساءل فيه عن معنى "الفدان"، وعن معنى العلاقة بينه وبين رمش الحبيب الذي يفرشه (ورمش عين الحبيب يفرش على فدان)، ورحت أقارن بين الفدان في الكتاب والمفهوم المتداول للكلمة في كلام أهلي وأقاربي والعلاقة بين أرض الفدان والثور الذي يحرقها. وشد انتباهي اسم قمر الدين في الكتاب، مع ما يبعثه هذا الاسم من إحياءات ترتبط بما نتناوله في بلادنا. لكن الفائدة الأهم التي خرجت بها من قراءتي ليوميّات نائب في الأرياف، كانت الصمود في قراءة كتاب ما مع درجة متقدمة في الاستيعاب، من أول صفحة لآخر صفحة.

لا أستطيع أن أزعم أن تجربتي مع مكتبة المدرسة، والحصّة الأسبوعية اليتيمة المقررة لها تركت لدي أي أثر. الحصّة كانت السابعة أي الأخيرة، وقد اعتاد المعلمون ألا يدققوا في مسألة التزام الطلبة بالحضور إلى قاعة القراءة التي بالكاد تتسع لنصف عدد طلبة الشعبة، لذا؛ فقد كان معظمنا "يُفلسع" بعد الحصّة السادسة دون تبعات. ولا أذكر أنني قرأت من كتب تلك المكتبة (في مدرسة سعيد بن أبي وقاص، حين كانت ابتدائية) سوى رواية واحدة، بهرني عنوانها: "فتاة غسان" لـجرجي زيدان، أقول بهرني عنوانها وأبهظتني قراءتها بكثرة التفصيلات، فلم أستطع إكمال قراءتها إلا بشق الأنفس، وحين استعرت الرواية الثانية لزيدان، وكانت بعنوان "أسير المهدي" عانيت قليلاً من التفصيلات المملة ومن اسم المهدي نفسه و المماطلة في معرفة مصير

الأسير، مما دفعني لترك بعض أجزائها والانتقال للصفحات الأخيرة لمعرفة مصير مغامرة غوردن.

-٣-

ولئن كانت الحكاية مع "يوميات نائب في الأرياف" تفصيلاً عابراً، فإن اكتشاف مكتبة البلدية في إريد يحتل مساحة كبيرة من الذاكرة بتفصيلات أرى من الصعوبة بمكان إيفاءها حقها ناهيك عن تسجيلها.

المقر الأول للمكتبة -حسب الذاكرة- كان على ظهر التل، مبنى، أو بالأحرى "فيلا"، مازالت قائمة إلى اليوم، تطل غرباً على مباني الجهات الأمنية الرابضة فوق القلعة القديمة، بل ربما كانت بعض أجزاء هذه القلعة مكوناً أساسياً-آنذاك- من هذه المباني. وقد تحول مقر المكتبة هذا فيما بعد إلى متحفٍ، ولا أعرف الآن طبيعة استعماله.

كان دخولي إلى عالم مكتبة البلدية بمنزلة الوقوع على كنز من المعرفة والمتعة، لعله يعادل - بالنسبة لي - الكنز الذي تحدثت عنه الرواية الأولى التي قرأتها في هذه المكتبة، "جزيرة الكنز" لروبرت لويس ستيفنسون. ما أن يحل انتهاء دوام المدرسة وتناول أي شكل من أشكال وجبة الغداء حتى أهرول باتجاه ظهر التل لأكمل قراءة الكتاب الذي بدأت بقراءته بالأمس، أو البدء بكتاب جديد ... بكنز جديد. استمرت هذه الحال لمدة تقارب الستين. ثم اكتشفت نظام الإعارة، ولكنني لم أكرث له كثيراً خلال هذه المدة؛ فقد أصبح اندماجي بجو المكتبة متعتي اليومية المنتظرة. كنت أحضر في حدود الثانية

وأستمر حتى السادسة، حيث يقف الموظف الأنيق "غراية" (لا أذكر اسمه الأول) ويعلن انتهاء الدوام ويتركنا، ويعود إلى مكتبه بكل أدب. وأذكر أنه في بداية الأمر كان جلوس رواد المكتبة، وهم في مثل سني أو أكبر قليلاً، حول مائدة كبيرة تهبط لنا جلسة مريحة ما كان لأمثالنا أن يحظوا بها في بيوتهم أو حتى في قاعة المطالعة في المدرسة.

في تلك المرحلة قرأت عشرات الروايات العربية والأجنبية التي مازلت أذكر بعض مضامينها اليوم، ومعظم ما قرأت كان من الكتب المترجمة الواضح مصدرها، حتى بالنسبة لمن هم في مثل سني: المركز الثقافي الأمريكي في عمان. هكذا كان يدمغ كل كتاب.

ولكن الشوط الثاني الذي بدأت فيه بعد انتهائي من "جزيرة الكنز" كان أعمال كامل الكيلاني، وقد أذهلني أسلوبه وسحرتني العوالم التي يدخلنا إليها، وهل أنسى رحلات السندباد؟ ثم عثرت على نسخة شبه بالية من "زقاق المدق"، وبدأت في قراءتها، لآتي بعد جلسة معها أو جلستين فأجدها قد استعيرت. وهنا عدت إلى قراءة الأعمال المترجمة ولا سيما الأمريكية منها، وكان مما قرأت رواية جون شتاينبك "أفول القمر" وكم شعرت بالاعتزاز بين زملائي، بعد فترة ليست بالقصيرة، حين كتبت الصحف أن مخرجاً أردنياً رائداً اسمه هاني صنوبر قد أخرج مسرحية لشتاينبك بهذا الاسم، وأتبع أفول القمر "بشارع السردين المقلب" للمؤلف نفسه، وتوالت قراءاتي لهوارد فاست: "المواطن توم بين"، ولجاءك لندن في رواياته القصيرة التي تدور

أحداثها في أصقاع القطب الشمالي، ولهرمان ميليفل في "موبي ديك"، وغير هؤلاء كثر مما أستطيع أن أملاً به عن ذكرياتي مع أعمالهم صفحات وصفحات .

وولجت عالم القصة القصيرة، وكانت البداية مع محمود تيمور، والمازني، والإيراني، وقاص مصري لم يشتهر كثيراً، اسمه محمود البدوي، وقد أطلق عليه نجيب محفوظ فيما بعد لقب تشيكوف القصة المصرية. إضافةً إلى أن هذه المرحلة أمكنتني من ولوج عالم "إدغار ألن بو" السحري، و "أو هنري"، و"ثنائيل هاوثرن"، وغيرهم ممن لا أجد صعوبة في تذكر أسمائهم، بل الصعوبة في كبح نشوة الغلو التي تأخذني إلى حشد مثل هذه الأسماء.

وتضاعف عدد الكتب التي أقرأها حين تمكنت من الاشتراك ببطاقة أنيقة عليها صورتي وتوقيع مدير المكتبة، اكتشفت أن استخراج هذه البطاقة لا يتطلب أكثر من نصف دينار رسوماً، إضافة إلى كفيلين معروفين يوقعان على نموذج خاص، وكان من السهل توفير الكفيلين من بين أساتذتنا في المدرسة .

على أن موقع المكتبة كان يتغير باستمرار، وكان هذا يسبب لي بعض التنغيص؛ فبعد أن أكون اعتدت القراءة في جو مكان معين، وفي زاوية بعينها، وأمامي رفوف من الكتب ألقت أوضاع ترتيبها وألوانها وحفظت أسماء مؤلفيها وعنواناتها، يجري نقل المكتبة إلى موقع آخر مما يتطلب -أحياناً- توقف خدماتها لمدة تمتد لشهور، أو لأكثر من عام.

وأذكر أن منزل المغفور له الملك عبد الله الأول الذي كان يقضي فيه شرطاً من فصل الربيع كل عام كان المقر الثاني أو الثالث لمكتبة البلدية خلال تلك الفترة - النصف الأول من الستينيات - ويقع هذا المنزل الجميل في شارع السينما (وكان يطلق عليه آنذاك شارع الجميل قبل أن يستقر اسمه على الوضع الحالي: شارع الشهيد وصفي التل)، لكن مدخله الرئيسي كان يطل على الشارع الموازي شمالاً (شارع الملك فيصل الأول) حيث "الفرندة" الجميلة التي تطل عليها شبابيك بزجاج ملون، وكانت قاعة المطالعة في البهو الرئيسي في الفيلا، في حين اتخذ المدير لنفسه إحدى الغرف مكتباً، وتوزعت رفوف الكتب بين باقي الغرف وبعض جوانب البهو. كانت الفيلا في وضع إنشائي سليم جداً؛ لأفاجأ ذات يوم بتحويلها إلى دائرة لشؤون المياه، ولم يمض سوى وقت قصير حتى هدمت، واستغل موقعها مع الحديقة الخلفية الجميلة المحاذية لشارع السينما الواسعة لإنشاء مجمع تجاري، ولم يبق من أثر البناء الأصلي سوى لون الحجارة الحمراء، ولعل هذه الأحجار الماثرة الوحيدة من البيروقراطية في بلادنا تجاه معلم تاريخي رائع كان من الممكن أن يغدو مع الأيام معلماً سياحياً جذاباً، لاسيما أن الفيلا ظلت مأهولة بعد رحيل الملك المؤسس، ولسنوات - كما سمعت في حينه - من جانب الملكة مصباح، قبل أن يصبح بيتاً للمتصرف، وكان بيت الملكة هذا أثناء إقامتها فيه مزاراً مفتوحاً لعدد كبير من سيدات المدينة.

على أن الموقع التالي للمكتبة، كان (بعد سنوات) الأكثر بؤساً في تاريخ هذه المكتبة ... تصوروا أن يقع مبنى المكتبة العامة الأولى بل الوحيدة في المدينة، وقاعة المطالعة فيها، وسط لجة سوق الخضار، أو حلبة المفرق التي كانت تمتد من ساحة الجامع غرباً إلى فندق الشمام (لمن يذكر واقع المنطقة في تلك الأيام) وكانت شقيقتي الصغرى (أنجيل) وصويجباتها التلميذات أولى الضحايا لهذا الموقع؛ فعلى مدخله تحول بيت الدرج بالخاوة إلى بسطات تتكدس فيها أنواع الخضار، فامتنعن عن ارتيادها؛ وزاد من الطين بلة، أنها كانت تحتل الطابق العلوي من البناء، مع ما يجلبه صعود الدرج للفتيات، "بالمرابيل" القصيرة، من تعليقات سوقية. أليس الموقع في قلب "حلبة"؟ ناهيك عن الأصوات المنبعثة من الباعة ومناداتهم على الخيار والبندورة والبقدونس والباذنجان ... وقد أقنعت نفسي مع الأيام أن هذه الأصوات يمكن أن تكون موسيقى تصويرية، كما في الأفلام، مصاحبة لما أقرأه من روايات ومسرحيات، ومع هذا فإن

تعلقي بالمكتبة قد ازداد، لاسيما أنني بدأت أدخل مرحلة جديدة صرت أشعر فيها أنني أكثر نضجا، كما أن فائدتي المعرفية أخذت تتضاعف. ولحسن الحظ لم يطل الأمر كثيراً بهذا المكان؛ فسرعان ما جرى نقل المكتبة إلى ظهر التل وفي بناء -مازال قائماً- يقع إلى الغرب مباشرة من سجن إربد (متحف السرايا الآن). وأخيراً انتهت رحلة "الشحشطة"؛ بانتقال المكتبة إلى مقرها الحالي الدائم في مبنى البلدية الجديد.

٤-

كانت قراءاتي قد تنوعت، ومصادر حصولي على الكتب قد تعددت كذلك. صحيح أنني قرأت في هذه المرحلة العشرات (هل أقول المئات؟) من الكتب العربية والأجنبية المترجمة، ومعظم ما قرأت كان في فنون السرد القصصي والأدب المسرحي، ولكن احتياجاتي التي تلح في أعماقي باتت أضخم بكثير، وأسئلتني حول ما أقرأ أخذت تتكاثر وتلج داخل عقلي طلباً لأجوبة لم تكن تحضر في الأغلب الأعم إلا بعد عنت ومعاناة... وقد لا تجيء - إن جاءت - إلا بمزيد من القراءة واستشارة من كنت أتوسم أن عندهم الجواب؛ وما أقلهم....

وكنت أشرت إلى المفارقة في موقف شقيقي الكبير أديب من قراءتي، وهي المفارقة التي نجمت عن تمزيق أول ما اقتنيت من كتب، ليعود هذا الشقيق نفسه أهم من يساعدني في استعارة الكتب التي أبحث عنها من مكتبة دار المعلمين في حوارة حيث مقر عمله، بل أصبح يمد لي يد العون مادياً حين يشعر بحاجتي لشراء مجموعة من الكتب الجديدة.

وكانت الباكورة راوية لم أترك باباً إلا طرقته سعياً للحصول على نسختها المترجمة: "لمن تفرع الأجراس؟"، وحدثت شقيقي عن حاجتي إليها، وكنت جاوزت المرحلة التي يمكن لأحد أن يجدد لي طبيعة ما أقرأ، ولم يطل انتظاري لأجد شقيقي داخلاً إلى المنزل وهو يقول: "وين نبيل؟" ويمد لي بالمجلد التحفة... لمن تفرع الأجراس، ترجمة خيرى حمّاد. وأظن أن بدء قراءتي

للمرواية سبق شكري لأخي، وهكذا على مدار يومين كنت قد قرأتها، ورحت أتأمل في نهايتها المفتوحة. هل مات "روبرت جوردان" بعد أن تركته "ماريا" ملقى في الغابة، يحس بخفقان فؤاده فوق ما تساقط من إبر الصنوبر الواخزة؟ أم بقي على قيد الحياة؟ وإلى متى؟

حسناً، ثمة من ينتظرون انتهائي من قراءة الرواية، وكان اثنان منهم هما الأشد لهفة وإلحاحاً: عبد الفتاح بني هاني وزياد التل، وكان البادئ زياداً الذي انتهى من القراءة في يومين، تلاه عبد الفتاح بمثل المدة. ثم اجتمعنا في المشوار شبه اليومي في شوارع إربد النظيفة الواسعة التي لم تعرف زحاماً بعد في تلك الأيام ... كان أكثر ما يشغلنا في النقاش عنوان الرواية؟ من أين جاء؟ وبأي الأحداث يرتبط؟ وما معناه؟ وما مغزاه؟ ؛ لم نتوصل إلى أي نتيجة رغم تكرار النقاش حول إشكالية هذا العنوان لمدة قد تكون امتدت أشهراً، إلى أن جاء يوم كنت أتفحص فيه الكتب المعروضة على رصيف الحاج عطية (ولي وقفة مطولة قادمة مع هذا الرصيف). وفجأة وقعت عيني على كتاب بالقطع الصغير بعنوان: "لمن تقرر (أو تدق) الأجراس؟ ...

تناولت الكتاب رأساً وقلبت غلافه الأمامي، ثم الخلفي لأجد نصاً من فقرة واحدة باسم الشاعر "دون جون" ... كان النص فلسفياً، ولا علاقة مباشرة له بالرواية، لكن الجملة الختامية للفقرة تقول: "لذا؛ فلا تسأل أبداً لمن تقرر الأجراس؛ لأنها لك إنما تقرر". كان الكتاب هو الجزء الثالث من ترجمة الرواية، وقد صدر في دمشق، وسألت عطية عن باقي الأجزاء. بحث وبحث

ولكنه التفت إلي وهو خالي الوفاض. حسناً اشتريت هذا الجزء من الرواية، ومازال بحوزتي إلى اليوم، ورحت أعيد قراءة نص جون دون مرة ثانية وعاشرة وأحاول تطويع معناه-أو مغزاه- على ما علق بذهني من وقائع الرواية وما كنت أحفظه من نصوصها... آه إن كلام "دون" هذا دعوة ضمنية للإخاء الإنساني، وأن ما يصيب الإنسان الواحد إنما يصيب الإنسانية جميعاً، وموت فرد هو موت جزئي للبشرية (وهذا بلغتي)، لذا فإن قرع الأجراس احتفاءً بشخص أو إعلاناً لوفاة إنسان، إنما هو إعلان يشمل كل فرد، وربطت هذا على الفور بمقطع من الرواية، حوار، جاء تنويجاً للمشهد الختامي وكنت أحفظه عن ظهر قلب، وذلك حين يرجو روبرت، وقد أصيب بقذيفة أقعدته وشلّت حركته، حبيبته ماريا أن تغادر الموقع الذي أصيب فيه لتنجو بنفسها قبل وصول الجنود.. ويقول لها أكثر من مرة: "اذهبي فإنك إن ذهبت فسنبقى معاً"..... يا إلهي؛ كيف سيبقيان معاً حين تغادر المكان وتتركه وحيداً والأعداء على وشك أن يطبقوا عليه؟

لم يتقبل الصديقان هذا التفسير للعنوان، لاسيما أنني لم أشأ البوح بمصدري في بداية الأمر؛ وهو غلاف نسخة أخرى من الرواية...غلاف فحسب... ربما غرورا وادعاءً، أو حرجاً من ضالة شأن المصدر. وانضم إلينا في مناقشة التفسير بعض الزملاء ممن قرأ الرواية، مثل ناجي الزعبي وأحمد حماد وسعيد أبي بكر وربما غيرهم، ولكن لم أجد من الجميع أحداً يُساند وجهة نظري، لاسيما أنني كنت غامضاً موارباً في مسألة المصدر، إلى أن "بقتت

البصة" فقلت إنني قرأت هذا في إحدى الكتابات عن همنغواي، فتراجع جزء كبير من الرفض، وتلاشى بعده بقليل نقاشاً حول الموضوع. لكنني أعجب من نفسي اليوم، وكنت آنذاك في حدود الخامسة عشرة، كيف استطعت أن أربط بين خاتمة الرواية، أي إصابة روبرت وإصراره على أن تتركه ماريا لأنها ستبقى معه- للمفارقة- في هذه الحالة، وبين الفقرة التي قرأتها لذلك الشاعر. وتبين لي بعد هذا -بوقتٍ طويل- أنه كتبها قبل ظهور الرواية بقرون، وأن همنغواي هو من بنى عليها نهايته، وأورد، من ثم، مقارنة رمزية لفكرة جون دون (١٥٧٢-١٦٣١) في حوار المشهد الأخير، وأن الناشر كان ناقداً "كناشري أيام زمان، ومن ثم استعان بالمقطع الشعري لتعزيز فكرة الرواية في هذه الرواية، ولكن دون أن يصرح بالصلة بين النصين.

-٥-

وثمة رواية أخرى، قرأتها تلك المجموعة من الأصدقاء، أثارت فينا من الحماسة العاطفية ما أثارته. كنا قد سمعنا عن فيلم "ذهب مع الريح"، وقرأنا بعض الإشارات حوله، واستمعنا إلى من يكبرنا من إخوة أو آباء أو حتى أمهات ممن شاهدوه في مرحلة لم نكن فيها قد وصلنا للسن الذي يسمح فيه حتى باصطحابنا إلى السينما.

قرأت "ذهب مع الريح" رواية قبل مشاهدة الفيلم إذن. بل إن حصولي على الرواية كان حدثاً سعيداً؛ لأنها لم تصبح من ضمن مقتنيات مكتبة البلدية إلا بعد أن حصلت على نسختي بمدة طويلة، وكذلك الأمر بالنسبة للمكتبات

الأخرى. وحدث ذات صباح أن لمحت نسخة يتيمة للرواية عرضها للتو الحاج أبو العبد الزرعيني، كان ثمنها نصف دينار، وهو المبلغ الذي أحمله لشراء إفطار الصباح من محل ياسين الفوال، ولكنني عرجت بالصدفة على مزارعي اليومي، رصيف الزرعيني وعطية، فأثرت اقتناص الرواية قبل أن "تطير"، وركضت إلى البيت حاملاً غنيمتي، ودارت الوالدة فعلتي، وظل الحُصص والفول إفطاراً للعائلة في ذلك اليوم، وأظنه تم دون تأخير كبير.

لا أذكر إن شاركت أهلي الإفطار أم أنني صعدت فوراً إلى محرابي (السدة فوق المطبخ) حيث مكتبي المكونة من عشرات، وربما مئات الكتب، مرتبة بصناديق الكازوز الخشبية الفارغة. لم أترك الرواية بصفحاتها التي تقارب الخمسمئة إلا وأجهزت عليها في يوم وبعض يوم، ولم أكن أتركها إلا للشديد القوي، كما يقول التعبير الدارج.

ومما زاد من متعتي إنني أخذت أتمثل شخصياتها بنجوم الفيلم الذي لم أكن شاهدته بعد، ولكنني قرأت كثيراً عن ممثليه وأدوارهم. ساعدتني المقدمة التي كتبها يوسف السباعي لتلك الطبعة، وأذهلتني شخصية بطلها، وتخليتها في ملك هوليوود كلارك غيبل، وكنت أسائل نفسي كيف لنا أن نحب الشخصية الروائية أو السينمائية وهي شريرة؟ في حين لا نحب الشر في حياتنا، وطبعاً احتجت لعشرات السنين لأعرف الجواب وسره الكامن في روعة بناء الشخصية وقدرتها على تشخيص الموقف وتمثيل النزعة الإنسانية بطريقة تتسم بالإقناع، أما شخصية ريت باتلر، فربما ألاحظ اليوم أننا لم نتعامل معه شريراً

قط، سمعنا وقرأنا أنه شرير، ولكن لم نر منه غير الفروسية.... وهذا ما كنت عاجزا عن تمثله آنذاك. كان "الموقف النقدي" -إن جاز القول- إحساسا مزاجيا عابرا. ثم جاء عرض الفيلم، بعد ذلك بسنوات... فجأة دون مقدمات أو إعلانات، إذ لم تصدق نبوءة "البلبل" فقد عرض الفيلم في سينما دنيا وليس في "الفردوس"، وليوم واحد أو يومين، ولم يثر، في حلقات تجمع "الشباب" أو أثناء "الكزدرية" أو خلال "الفرصة" أو أمام دار السينما الاهتمام الجدير به. ربما لخفوت جموح المراهقة، بحكم الاقتراب من مرحلة الشباب، وربما، وهذا الأرجح، للتطورات العامة التي كانت تعيشها المنطقة وقت عرض الفيلم وتؤثر في توجهات الناس وأمزجتهم، وأحيانا تلي مواقفهم، وهو ما سأتوقف عنده في سياق قادم.

وكانت قراءة تلك الرواية حافزا لي للقراءة عن الحرب الأهلية الأمريكية، وما كان يقال من أنها قامت لتحرير العبيد، وهذا ما شجعني كذلك على قراءة رواية "كوخ العم توم" وهي القراءة التي كشفت لي، بطريقة غامضة، أن المعنى السامي والفكرة الجليلة لا تكفي لإنجاز رواية جيدة، أو على الأقل ممتعة، ولكن هذا لم يكن مبلورا عندي في مفهوم متماسك، بل إحساس انطباعي لم أستطع -في حينه- تفكيكه ومنهجه.

لا ازعم لنفسي وعياً يفوق وعي أقراني في تلك المرحلة، قلب الستينيات؛ فقد كانت الأمور تبدو لي، بنفس المستوى، وربما بنفس الدرجة والصورة التي تبدو لغيري (من المجموعة) وبوعي مشترك. فما أن هل

منتصف الستينيات، حتى كانت السياسة الأمريكية، بعد اغتيال كيندي، سافرة العداء لأمتنا العربية ولقضيتنا الأولى، وتجسد هذا بالموقف الأمريكي من الزعيم الذي يعلق عليه الوجدان العربي كل آمال الأمة، والكيد له بصورة سافرة وفجة من جانب الرئيس الأمريكي البغيض ليندون جونسون.

ولم أكن أدرك آنذاك أن السياسة لم تختلف بين جونسون وما قبله إلا في درجة الصراحة والوضوح، ولكنني أزعم بأنني ظللت على الدوام واعيا للفروق بين السياسة من جهة، والثقافة من جهة أخرى؛ فاستمر اهتمامي بالأدب الغربي بعامة، واستمر انبھاري بالنموذج الحضاري الأمريكي تحديداً، ومع هذا وجدت ميولي تتجه أكثر فأكثر نحو الأدب العربي المعاصر.

كان النموذج الأمريكي الذي يقدمه الأدب والسينما يأخذ بألباب الكثيرين من الأجيال الجديدة، وبخاصة أنه يأتي بقوالب رومانسية، وهي الاتجاه الكاسح للشخصية العربية، ربما حتى هزيمة ١٩٦٧. وفي سياق عصر روماني كنا نعيشه حتى النخاع؛ تجلّى هذا بالإقبال الكبير، وأتحدث هنا عن إربد فحسب، على الأفلام الأمريكية؛ أحداثها وأبطالها؛ فقد كنت ترى الكثيرين في مجالسهم ورواحهم ومجيئهم يتحدثون عن أحداث الأفلام الأمريكية ونجوم هوليوود دون التفات لأية فوارق لغوية أو أنساق اجتماعية أو حساسية قومية. ناهيك عن أن العديد من الشباب كانوا يتخذون من نجوم هوليوود (ونجوم السينما المصرية، ولكن بدرجة أقل) نماذج لهم في زيهم وتسريحات شعورهم وتصنيفها "بالبريل كريم" وغيره مما يلمع الشعر

ويساعد على "تصفيفه". لم تظهر الحساسية المفرطة تجاه الثقافة الأمريكية إلا مع عهد جونسون (حسب معاشتي الشخصية) وانكشاف المستور مما لم يكن ظاهراً من قبل من تأييد أعمى للعدو الصهيوني. بل يمكن القول، إن الأمر قد قُضي بعد عدوان ١٩٦٧، فلم يعد كثيرون يجرؤون-أدبياً على الأقل- حتى بينهم وبين أنفسهم على الإعلان عن أي مظهر من مظاهر الإعجاب بالنموذج الأمريكي، سياسياً كان أم ثقافياً.

قبل ذلك- في السنوات الأولى من الستينيات- كان كثيرون من الشبان والشابات يباهون بالأفلام الأمريكية التي شاهدوها، وبعدد الممثلين الذين يحفظون أسماءهم، وبالروايات الأمريكية التي قرؤوها، وكان لاسم همنغواي مثلاً، رهبة بين بعض المثقفين الصغار تكاد تصل إلى درجة التقديس. وأذكر أن صديقي "بهاء الدين" استعار من المكتبة كتاباً لمؤلف أمريكي اسمه "جون فوكس الابن" (أي الصغير Junior) فجاء إلينا ذات يوم متحذلقاً ليخبرنا باعتزاز أنه انتهى للتو من قراءة رواية للمؤلف جون فوكس الابن، ونطقها Alabn، مما جعلنا نتندر ونقرن اسمه باسم المؤلف ولكن كما نطقه: "بهاء الدين ألابن".

-٦-

قد لا أبالغ إذا قلت إن جهود اثنين من بسطاء الناس في إربد، ولعلها حذق وشطارة منهما، قد قلبت المشهد الثقافي في إربد، ويسراً أمر الحصول على المطبوعات كتباً وصحفاً ومجلات بأرخص الأسعار، لكل من لديه أدنى اهتمام

بالثقافة. وبفضل "الزرعيني" و"عطية"، ورصيفهما، فرض الكتاب نفسه على عابر الطريق. ولم يعد القارئ في حاجة إلى أن يبحث عن الكتاب، بل أخذ الكتاب، بكل أشكاله مستلقياً أرضاً أمام ناظريه، يبحث عن قارئه أو مقتنيه، بل يفرض نفسه عليه، ويكاد يعرقل مشيته على الرصيف إن لم ينظر إليه ويأخذه في الاعتبار.

لا أذكر أيهما بدأ نشاطه قبل الآخر، ولكن ما أذكره كان البسطة الممتدة من زاوية محلات "كل شيء" الغربية حتى محل عازر الخوري جنوباً، وأصبحت الزاوية، بالنسبة لي ولعشرات من أمثالي، المَعْلَم الأول والمحج اليومي منذ مطلع الستينيات وحتى مغادرتي إربد بقصد الدراسة سنة ١٩٦٧، وهو التاريخ الذي ستتوقف عنده هذه الأوراق على أية حال، ولكن أحداث "الحكاية" كانت قبل هذا التاريخ، واستمرت بعده سنوات طوالاً...

إن الموقع الاستراتيجي، لتلك الزاوية التي تجمع بين شارعي السينما والملك عبد الله، وهما من أهم الشوارع في قلب المدينة، كان يشهد قدوم آلاف المواطنين يومياً نحو "شارع السينما" وهو عصب الحياة التجارية، وكان يضم - إلى جانب سينما الزهراء - معظم عيادات الأطباء، وعدداً كبيراً من مكاتب المحامين والمهندسين، والصيدليات، ومحلات النوفوتيه أو "البوتيكا" والمقاهي وبعض الحانات، وغير ذلك من الوسائل والمظاهر التي تضيء على إربد سمة "المدينة". وفي وقت قصير أصبح "الرصيف" يحتل أهمية بالنسبة للمهتمين بالقراءة والثقافة بشكل عام في المدينة، لا تقل عن الأهمية التي

يحتلها- والقياس نسبي- أشهر معارض الكتب في الهواء الطلق في منطقتنا العربية، أعني سوق الأزبكية في القاهرة.

كانت بسطتا الرجلين (الزرعيني وعطية) متلاصقتين، ومع أنهما كانا يعرضان البضاعة نفسها، فقد كانا يتعايشان بترفع وتنافس شريف، كما لاحظت بنفسني، وكانا يطبقان فعلاً وقولاً مبدأً: "إن الرزق من عند الله فقط". على أن ذلك لا يعني عدم وجود اختلافات بسيطة، إن في البضاعة المعروضة أو في التكوين الإنساني، أو بالأحرى الثقافي لكل من الرجلين. فقد لاحظت أن بضاعة أبي العبد الزرعيني كانت أكثر نخبوية، وكان أحرص على عرض أحدث مطبوعات بيروت بخاصة، ولا سيما ترجمات سارتر وسيمون دوبوفوار وفرانسواز ساغان (صاحبة الراوية المشهورة: "مرحباً أيتها الأحزان" التي سحرت معظم شباب إريد ممن قرأها)، وكان أبو العبد يعتني بعرض كتبه بحرفية ظاهرة، فمثل هذه الكتب ذات الطابع الفلسفي أو القيمة الأدبية العالمية، كان يبسطها فوق العتبة العليا للمحل ذي الواجهة الزجاجية، كما أن الرجل كان قارئاً يعرف القيمة الفكرية والأدبية لأي كتاب يعرضه. لذا، تجده يحدد السعر بموجب هذه القيمة.

أما الحاج عطية (أبو عمر) فقد كان إنساناً شعبياً ودوداً بكل ما تعنيه الكلمة، ويساعده في عمله شقيقه الحضيف عبد الهادي (أبو محمود) وكانت بضاعتها أكثر تنوعاً؛ فتجد عندهما- مثلاً- معظم أنواع المطبوعات، ولا سيما المجلات الفنية، قديمها وحديثها، أما القديم فلم يكن له سعر محدد، فكان

عطية يعطي زبونه السعر بشكل عشوائي، ولا يتردد في قبول أي سعر يعرض عليه. وكان الرجل يهتم كثيراً بالبيع والشراء معاً، فكثيراً ما كنت ألاحظ، أن "مكتبات خاصة" بكل محتوياتها، قد عرضت عنده، ربما لوفاة صاحبها، أو لحاجة مادية عند مقتنيها، أو لغير ذلك من أسباب. كما لاحظت حينذاك، أن معظم معروضات عطية كانت من المطبوعات المصرية، من مثل إصدارات دار الهلال، و"روايات عالمية" وسلسلة الألف كتاب، ومطبوعات "كتابي" لحلمي مراد، وما إلى ذلك. وبالتأكيد فإن الزرعيني كان يعرض مثل هذه الكتب، ولكن بانتقائية أشد وبحجم أقل، ربما لأن المساحة الأرضية المتاحة لعطية كانت أوسع قليلاً. وكان واضحاً أن مصادر الشراء الأصلية متعددة ومتنوعة وأهمها بطبيعة الحال بيروت ودمشق والقاهرة، علماً بأن القدس ومدن الضفة الغربية كانت مصدر مهماً لهذه المطبوعات ولا سيما الكتب المستعملة. ولكن الأرجح أن وصول المطبوعات كلها إلى إريد كان عن طريق الموزعين في عمان.

-٧-

المجلات إذن، والقديمة - نسيباً - منها كانت تحتل مساحة مهمة من الرصيف. وبالإضافة إلى المجلات اللبنانية (الموعد والوعد والشبكة والصيد وغيرها) كانت المجلات المصرية، وهي - تقريباً - نفسها التي ما زالت تصدر إلى يومنا هذا، ولكن ثمة مجلة مصرية احتلت المكانة الأولى بين الأطفال والياfecين، وأعني بها مجلة "السندباد"، التي ما لبثت أن اختفت مخلفة وراءها في نفوس قرائها الصغار، لهفة ولوعة ... وأي لوعة.

أذكر، أن أعداداً من هذه المجلة بالعشرات ظلت بحوزتي إلى حين غادرت إلى مصر. ولكنها ضاعت في غيابي فيما ضاع من كتبي ومقتنياتي "الخاصة" الأخرى. لقد أخذت هذه المجلة بألبابنا وسحرت مخيلاتنا، برسوماتها الرائعة التي كانت تجمع بين دقة التصوير للشخوص وملامحهم، الشريرة والطيبة والشقية، وبالملايس التي كانت تظهر فيها هذه الشخوص فتستدعي إلى المخيلة الحقة التاريخية لهذه الشخوص، وناهيك بالألوان المدهشة المعبرة، كل هذا في حجم سخي، بمعنى أن صفحة المجلة كانت في حجم صفحة الجرائد الأسبوعية (التابلويد) بحيث تمنحك الحكاية مادة دسمة تكاد تحاكي ما يمنحه فيلم سينمائي رائع، ورافقتنا شخصياتها في يقظتنا وخلال أحلامنا، لا أثناء طفولتنا فحسب، بل ظل الأمر كذلك حتى سن اليافع. ومن منا ينسى "زوزو" بطل الحكايات الأقرع ذا الشعرة الواحدة الطويلة ومغامراته، وهو يدبر المكائد، مستهلاً مغامرته "بفكرة" فتقلب عليه الأمور، ومن منا يمكن ينسى شخصية "شقي الصعيد"، وعصابته من مطايرد الجبل، وبخاصة حين يجد الأقرع نفسه وصاحبه واقعين في أسره؛ فيمسك هذا الشقي برقبة كل من الصديقين ويروح يضرب رأس الواحد منهما برأس صاحبه، فيتطاير الشرر على شكل نجوم حمراء أمام أعينهما بما يملأ الصفحة. وقد انعكس تأثير هذه المجلة بأكثر من مظهر في المدينة.

فقد افتتح أحد التجار محلاً في شارع السينما لبيع ملايس الصغار والشباب دعاه "محلات السندباد"، ووضع على لافتة المحل صورة السندباد

الطفل بعمامته البغدادية الأنيقة الساحرة بتلافيها العريضة فوق الرأس الصغير، ومنظاره ذي العين الواحدة، وقد صوبه الصغير نحو هدف بعيد في الأفق.

أما أبناء حافظ النابلسي؛ فقد افتتحوا مكتباً جديداً لخدمة "التاكسي" دعوه: "مكتب تاكسي السندباد" ووضعوا صورة السندباد بعمامته ومنظاره في واجهة المحل، وفوق هذا، فقد نظموا افتتاحاً مدوياً بالياфطات القماشية والمنشورات المطبوعة من الحجم الكبير، وكل منها يحمل شعار السندباد بمنظاره الشهير، وأذكر أنهم للمضاربة الذكية جعلوا سعر "الطلب" أو "النقلة" بسبعة قروش، في حين كانت التسعيرة السائدة تزيد على ضعف هذا المبلغ.

لم تلبث مجلة السندباد أن اختفت من عند عطية والزرعيني، وأصبح العثور على أعداد قديمة منها بمثابة العثور على صيد ثمين. حل محلها مجلة "سمير"، ولم تنل الإقبال الذي كانت تلاقيه "السندباد". ولم تلبث المرحلة - بالنسبة لي - أن ملمت خيوطها، وانتقل الاهتمام الأول، من السندباد وسمير، إلى المنفلوطي وجبران وبكائياتهما. ومرة أخرى، وكالعادة لم ييخل علينا الرصيف، أو "سوق أزبكية إريد"؛ بتلبية ما استجد من اهتمامات؛ فقد كانت كتب المنفلوطي وجبران متوافرة في كل وقت، وبأثمان زهيدة لا تضيف عبئاً كبيراً على ميزانيتنا المتواضعة.

كانت الجلسة أمام كتب الرصيف بوضع ثقلي فوق الجنزير موليا ظهري للشارع الرئيسي، وكان الجنزير، وقد وضعته البلدية لتنظيم مرور المشاة، يفصل الرصيف عن حافة الشارع. وهذا الوضع أصبح بالنسبة لي بمثابة ركن للقراءة قد تستمر ساعات. لم أكن وحدي من يلجأ إلى هذا الوضع الشبيه بامتطاء أرجوحة، بل ثمة كثر غيري يتخذون الوضع نفسه ممن يتصفحون الكتب والمجلات بغية الشراء أو أخذ فكرة عن المشور قبل الشراء أو عدمه. وأدين لهذه "الجلسة" بأكثر من صنيع؛ فعن طريقها افتتنت بالمنفلوطي واقتنيت جميع كتبه، وخاصة الأعمال الروائية (وكلها مترجم كما هو معروف) ولكن سحرتني لغتها، ولطالما أبكتني مضامينها، وأرقنتني مصابير شخصياتها، وفوق ذلك أفادتني أديباً بعض تقنياتها (والكلمة جاءت من وعي اليوم) رواية "مجدولين" مثلاً، التي ترجمها المنفلوطي عن الكاتب الفرنسي "ألفونس كار" بتصرف ما بعده تصرف، تعرفت من خلالها إلى تقنية القص بالرسائل: "من مجدولين إلى ستيفن"، و"من ستيفن إلى ماجدولين". وفهمت مبكراً الفرق بين القص بأسلوب التأريخ والحكي والقص الفني بشكل جديد غير مألوف، ولا أظن أن أحداً من "قراء" جيلي وجيل أساتذتي لم يقرأ "مجدولين"، ولم يسحره أسلوب المنفلوطي بل لم يغتن وجدانه بمعانيه ومضامين كتبه.

وقد لاحظت أثناء تدريسي في الجامعة (ومعذرة على هذه الملاحظة من خارج السياق الزمني الذي ألتزم به)... لاحظت أن العديد من طلابي، في فصول دراسية متتابعة، يحملن اسم مجدولين، وكنت أحرص على سؤال كل

طالبة عن سبب تسميتها؛ فتخبرني دون تأخير أن والدتها أو والدها أطلق عليها الاسم إعجاباً برواية المنفلوطي الشهيرة.

وشجعتني قراءة "مجدولين" على الانخراط أكثر فأكثر في عالم المنفلوطي؛ فأقبلت على قراءة رواياته كلها، سواء فوق الجنزير أو في البيت أو حتى في المدرسة حيث كنت اختار على الدوام جلستي في الصفوف الخلفية من حجرة الدرس وأغرق في قراءة إحدى الروايات بعيداً عن موضوع "الحصة" وهمومه، وشجعتني على "التمادي" أحياناً أنني لاحظت أن بعض المدرسين يغضون الطرف عن مجاوزتي هذه، حين تقع أنظارهم على غلاف أحد كتب المنفلوطي مزينا بصورته معتمراً "عمته" الشعبية المصرية بشاربيه المبرومين دقيقتي الحافتين، ويوحى - على عكس أشكال الشوارب الأخرى - بفيض إنساني وطيبة وسماحة تشعر أنك إزاء عمدة أدبه إصلاح ذات البين، وليس واحداً من أعظم أدباء "الإنشاء" في عصرنا الحديث، بل إنه واحد من صاغوا الوجدان الرومانسي لدى الأجيال العربية البازغة في النصف الأول من القرن العشرين، على الأقل.

ومن مآثر الوقوف على الرصيف متفرساً في أحدث المعروضات، ومن مآثر جلسة الجنزير... وقوعي على رواية "زينب". كان من جملة أصدقائي ممن يترددون على الرصيف صديقي منذ نعومة أظفاري، وابن الحارة الأولى التي تفتحت فيها عيناها على الحياة "كامل علي المطلق"، الشاب (اليافع آنذاك) الذي يتسم بكل سمات النبل والسماحة ورضى النفس والانفتاح على الناس

على الرغم من عكازه الذي يلازمه منذ طفولته المبكرة. ورغم هذا الوضع فإن كاملاً كان يأتي ليتفقد ما استجد من مطبوعات فوق أرضية الرصف، بل لم يمنعه وضعه الجسدي الذي كبر معه، من النزهة اليومية مع رفاقه، وكنت من جملتهم أحياناً كثيرة. وذات يوم ونحن واقفان على الرصف، لفت كامل انتباهي إلى أحد مطبوعات "دار الهلال"، أو بالأحرى إلى نسخة من "كتاب الهلال"، (وليس "روايات الهلال" أو "مجلة الهلال"). نسخة فاخرة ذهبية اللون، (الغلاف والحواف) لكتاب بعنوان: "زينب... مناظر وأخلاق ريفية"، والمؤلف: محمد حسين هيكل.

كانت قراءتي لـ "زينب" بفضل صديقي الحضيف عميق التفكير، سديد الحكم، كامل، وقبلها قراءة يوميات "نائب في الأرياف" بإرشاد زوج شقيقتي، وبعد ذلك مباشرة، تعلقي بجبران: أرواحه المتمردة وأجنحته المتكسرة، والمنفلوطي وبكائياته التي تسلب العقول وتخلب الألباب... كانت هذه القراءات البوابة الحقيقية التي عبرت من خلالها إلى عالم أدبنا العربي المعاصر، وهو العالم الذي لم أخرج منه حتى اليوم، وآمل أن أبقى فيه، معزراً مكرماً، وسعيداً كذلك، ما بقي لي من أيام في الدنيا، أو على الأصح في هذه المدينة.

حصل ذاك وأنا على أبواب الثانوية العامة، ومع هذه المرحلة، ومقرراتها المتقدمة في اللغة العربية وآدابها، التي قادتني للاشتباك مع كتب طه حسين، والعقاد، والدكتور هيكل، وتوفيق الحكيم والمازني، وتوفيق عواد، وغيرهم

ممن كانت مقرراتنا حافلة بنماذج من إبداعاتهم ... شعرت إنني أقف على أرضية مستقرة حاضراً، بل أخذت معالم مسيرتي المستقبلية تتضح أمامي شيئاً فشيئاً، وتيقنت منذ تلك الأيام أن ما أقرأه-آنذاك- يرسم معالم مستقبلي، بل يحدد قدرتي مقترناً بالكتاب، بل بما هو أضيق نطاقاً ... بالرواية ... ولو أن التعلق بهذا الفن قد يتخذ-بالنسبة لي-شكل التعلق بالأمكنة والبشر، بل بالشعر أحياناً، وهذا ما تحكيه قصتي مع كتاب "عرار شاعر الأردن" والتداعيات البديعة لهذه القراءة....



في قعدة الجزير، على الرصيف، عثرت على كتاب مستعمل، ما زلت أعتقد إلى اليوم، أنه من أكثر الكتب انتشاراً وشعبية في الحياة الأدبية في الأردن، وأعني به "عرار شاعر الأردن" للبدوي المثلث. كان هذا الكتاب الأول الذي أقرأه عن شاعر من بيئتي المحلية، بل من المدينة التي أعيش فيها. وقد سحرني شعر عرار، وسحرتني أكثر الحكايات التي أوردها البدوي المثلث عن حياته، وبعضها عن أناس كانوا مازالوا بيننا وأعرفهم (دون أن يعرفوني بطبيعة الحال) وفي أماكن أطرقها كل يوم، وضمن معالم أشاهدها وأتفياً كل يوم ظلها. لقد استشارت قراءتي لهذا الكتاب-مرات عديدة- كل مكان الجمال في وجداني نحو الشعر وكذلك نحو المكان والزمان والإنسان.

صحيح أنني كنت قرأت قبل كتاب البدوي المثلث عدداً من الروايات والقصص لكتاب أردنيين، ومن إربد بصفة خاصة، كنت قرأت كتابين لكاتب

فهمت أنه من عجلون واسمه محمد سعيد الجنيدى، ما زلت أذكر عنوانيهما: "الدحنون"، و "الدوار الثاني"، وقرأت لأستاذ أعرفه عن بعد هو كامل الملكاوي بعض رواياته من مثل "عبرة القدر" و "من زوايا العدم". وفي تلك الأيام (١٩٦٢ على ما أظن) ظهرت رواية لكاتب من منطقة إربد اسمه عبد الكريم فرحان بعنوان: "زائرة منتصف الليل"، ومع أن هذه الرواية أثارت لغطاً كثيراً، ونقاشاً حامياً بين "المثقفين" الصغار آنذاك، فإنني للأسف لم أكمل قراءتها لأسباب شرحتها بعد مضي أكثر من أربعين عاماً في كتابي "كاميليا الرواية الأردنية"... أضف إلى ما سبق أن بعض المقررات الدراسية كانت تحتوي دروساً ونصوصاً حول بعض الأدباء من بيئتنا. لكن كتاب "عرار شاعر الأردن" حمل زاداً معرفياً وجمالياً ووجدانياً دسماً، بحيث يمكنني القول إن قراءتي له شكلت علامة فارقة في مسيرتي العلمية؛ ذلك أنني صممت أن يكون هذا الشاعر موضوعاً لرسالتي للماجستير، وسعيت في هذا في القاهرة، ونجحت في مسعائي (ولكن جزئياً) بعد أن اتضح لي أن أكثر من طالب أردني قد سبقني لتسجيل موضوع يحمل اسم هذا الشاعر.

كان غلاف كتاب البدوي المثلث من ورق الكرتون رخيص الثمن، وكان لونه أخضر باهتاً، ولكن البيانات كانت واضحة، وحملت لي الصفحة الأولى من تقديم الكتاب (بقلم محمد صبحي أبي غنيمه) إضافة معرفية جميلة حين شبه عراراً بالبلبل الهزار الذي غرد طويلاً، عرفت أن الهزار نوع من البلابل، وعرفت كذلك، ومن قراءة عابرة للمقدمة أنني إزاء اكتشاف حقيقي

لشاعر كبير. كان ذلك سنة ١٩٦٢ أو العام الذي يليه، أي في أواخر المرحلة الإعدادية، ولم أكن اطلعت بعد على شعر عرار الذي يقدم في المرحلة الثانوية لطلبة التخصص الأدبي، وحين أعود بذاكرتي لتلك الأيام أقول بملء الفم، وعلى طريقة يوسف وهبي: يا للهول. في الثاني ثانوي (الحادي عشر) تقرر علينا قصيدة "بين الخرايش" وقصائد أخرى لعرار عن المرائين وعبود والحب والخمر وغير ذلك من الأقيانيم التي يدور حولها شعر عرار؟ ... ما هذا الانفتاح الفكري أيام زمان، مقارنة بزمان أو حتى بأزمان لاحقة لم يعد فيها الترغم العلني بقصيدة لعرار في أحد تلك الموضوعات يخلو من حرج.

لعل أهم نتائج قراءة كتاب البدوي الملثم، أن تعمقت علاقتي بإربد، وتثبت يقيني بأن هذه البلدة أو "المدينة" (لا ننسى أننا نتحدث عن مرحلة انتقالية) يمكن أن تنجب من هم بمستوى عرار من الشعراء، وبيئتها بالتأكيد تصلح لأن تكون ميداناً لعمل قصصي كبير، ومن تلك اللحظة بدأت أشعر على نحو غامض بأن هناك "موضوعاً" للعمل الأدبي، وأن هناك "بناءً" و"مضموناً". لكن الفروق بين هذه المرتكزات لم تكن قد انجلت أمام بصيرتي بعد.

ورحت أسأل عن الشخصيات التي عرفت عراراً أو ارتبطت به بشكل أو بآخر، كان معظمهم على قيد الحياة. في بداية الأمر كنت أكتفي بالنظر إليهم حين أصادف أحدهم في الطريق أو في مكان ما، مثل والده: صالح المصطفى، وعمه علي نيازي، وكنت شاهدت سابقاً الدكتور صبحي أبا غنيمة جالساً في

"الفرندة" مع شقيقه حسن في بيت هذا الأخير الملاصق لمدرستي (أبي عبيدة)، واكتشفت في وقت متأخر أن صديقي حسان أبا غنيمة هو ابن شقيقة الشاعر، فرحت أتوسطه ليجلسني مع أبيه - الأستاذ محمود - المشغول دائماً بإدارة مدرسة العروبة وهمومها، إلى أن كان يوم ذهبت إلى حسان في البيت لأمر ما، فخرج إلي الأستاذ محمود، وأخبرني أن صديقي خارج المنزل، ولكنه دعاني للدخول بحرارة، بل إن السيدة حرمه، شقيقة عرار... ياه.. بشخصيتها الوقور قد قدمت لي بنفسها واجب الضيافة... فنجان شاي على ما أذكر، ثم جاءني الأستاذ محمود ومعه نسخة من كتاب الدكتور صبحي "نظرة في أعماق الإنسان"، بغلافه الذهبي المقشّب، "ومن لخمّي" لم أسأل عن عرار بل خرجت فقط، بهدية الأستاذ محمود وكأس الشاي...

و ذات يوم وجدت في بيتنا السيد عبد الله الجودة بشاربه الدقيق المفتول، حاولت أن أستدرجه للحديث عن عرار، أثناء إسهامي في تقديم واجب الضيافة، فأحالني إلى والدي الذي لم يعرفه إلا عن بعد، فخرجت صفر اليدين. ولم يكن حظي مع الأستاذ محمود المطلق بأفضل، فقد صادفته جالساً عند العم إبراهيم الحداد (أبي يوسف) في محله الكائن تحت مقهى الكمال، ولكن أن تنتزع كلمة من جبل أسهل من أن تسمعها من الأستاذ أبي سلمى، إلا إذا كان الطبع مؤاتياً.

على أن اثنين من المقربين لعرار تبسطا معي بالحديث عنه تبسط الند للند. الأول هو الأستاذ الشاعر أحمد الشرع وكان صديقاً حميماً لوالدي، ولعل

سهولة حديثه عن عرار وسيولته كذلك، نابعتان من كونه شاعراً ... وشاعراً مجيداً، فأخذ يحدثني عن حكاياته مع المسؤولين والتجار في إريد، ومع أن هذا كان أحد المجالات التي انشغل فيها كتاب البدوي المثلث، فإن بعض ما سمعته من الأستاذ أحمد الشرع من حكايات، وربما من أشعار، كان جديداً بالنسبة لي. أما الثاني فهو أبو حامد الحلاق. وكان قد تقاعد - تقريباً - أواسط الستينيات، وتسلم مهمات المحل ابنه بشير. لكن أبا حامد ظل يلزم المحل بعض ساعات النهار، ولاحظت أن الرجل يحفظ العديد من قصائد عرار حفظاً دقيقاً، مع أنه كان يلقي الشعر بنغمة شامية؛ فكان يقول مثلاً: "مازا على الناس" بدلاً من: "ماذا على الناس". وكان لدى أبي حامد الكثير عن عرار وشعره ليقوله، وكم ترك هذا الشيخ الوقور ذو الطربوش المهيب من شعور بالعرفان والإعجاب لدي، لما كان يبيده من تواضع وهو يتحدث مع فتى في مقتبل شبابه حديث الرجل للرجل... ويصغي إليه، ويصحح معلوماته بل يطورها ويغنيها.

وعلى الرغم من إحساسي القوي تجاه أشعار عرار، وتفاعلي الوجداني مع معانيها وجمالياتها المتوهجة ... فإن من الضروري أن أعترف أن تعلقي الأول والأقوى كان تجاه عرار الإنسان و البطل في المجتمع والمكان والزمان ومن ثم في الحكاية، وأن شعره من ثم - إن جاز الفصل - كان يأتي في المرحلة التالية. إن حياة عرار كما هو معروف حكاية إنسانية متكاملة، سواء في مسيرة حياته الغنية والمتفردة والمضطربة معاً، أم في المواقف الصغيرة والكبيرة، والشخص - في معظمهم ، آنذاك - كانوا ما زالوا بيننا نراهم ونكلمهم

ونتعامل معهم ... إنها دراما متجددة كان من السهل لفتي يملك الحدود الدنيا من الإحساس الدرامي، أن يستعيدوها، ويعيد تشكيلها، وينظم عرضها في أي وقت، سواء بينه وبين وجدانه، أو مع صحبه ومن يشاركه هذا التوجه. ويضاف إلى ما سبق أن شعر عرار كذلك حكايات درامية ممتدة ومتشعبة بل إن كل قصيدة من إبداعه ملحق بها سرديّة مشوقة، ورحم الله البدوي المثلث، وكان على قيد الحياة، حين ربط كل قصيدة أوردتها بحكاية جميلة، وهذه الحكاية ترتبط ببشر نعرفهم، وكل منهم له حكاياته بعد حكاياته مع هذا الشاعر. حكايتي مع عرار إذن، جزء من حكايتي الكبيرة مع القص والسرد، قبل أن تكون مكوناً في حكايتي الصغيرة مع الشعر.

-٩-

كتاب "عرار شاعر الأردن" إذن ثمرة ناضجة ملقاة على رصيف عطية التقطتها فكان طعمها من مذاق الحياة التي أعيش، ولكن مذاق الحياة في بيئتنا المحلية، وما يمكن أن يكون وراءه من عناصر غذائية مهما تنوعت أو أخصبت لم يكن يكفي لأراكم موقفاً أطل فيه على الحياة باتساعها... في كل مكان وزمان، خارج نطاق بيئتي المحلية، معاشة إنسانية، ونتاجاً أدبياً فكرياً.

وبالإضافة إلى ماسبق فقد هيأت وقفة الرصيف و"قعدة" الجنزير أهم الاكتشافات "الروائية" في حياتي، ربما إلى اليوم: روايات الهلال. ولعلي اليوم أتساءل: ما سر تعلقي وجيلي، بل وأسأتذني بهذه السلسلة من الإصدارات الروائية؟

أحاول أن أستعيد حالتي الفكرية في تلك الأيام، لأكتشف أن "روايات الهلال" حصرت هديتها الشهيرة للقراء بأهم الروايات العالمية، ومن كل اللغات العالمية؛ الإنجليزية، والفرنسية، والروسية، ثم العربية بطبيعة الحال، بدءاً ومنتهاً. وهكذا أتيت لي، في سن صغيرة نسبياً (كنت دون السابعة عشرة، طيلة تجربتي مع هذه السلسلة) أن أطلع على نتاج الأعلام الكبار في الأدب الإنجليزي من الروائيين الكبار.

ثم جاء تعلقي الشديد بالرواية البوليسية، وهذا من بركات الرصيف كذلك. كم سحرتني شخصية شرلوك هولمز وصديقه متوسط الذكاء (أو المتغابي) الدكتور واطسون. بل كم صدمت حين رأيت فيلماً مأخوذاً عن إحدى روايات أجاثا كريستي ورأيت شخصية المس ماربل (التحرية الخاصة) ممثلة بعجوز شبه خرفة جسدها مارغريت روزفورد. لكن السحر كله، في الرواية الرواية البوليسية كان من نصيب أعمال إدغار والاس، ولا سيما روايته الشهيرة "الأربعة العدول" التي أصدرتها روايات الهلال بعنوان: "الحكم الرهيب"، حيث قرأت فيها للمرة الأولى، إنجاز الجريمة الكاملة بالتكنولوجيا المتاحة زمن أحداث الرواية، أي بالتليفون.

كنت أتمنى وما زلت أن يكون في أدبنا الروائي اتجاه يمثل الرواية البوليسية، كما قدمها الأدب الإنجليزي تحديداً، ورحت أعزو السبب آنذاك إلى الكتاب أنفسهم وإمكاناتهم الفنية، قبل أن أكتشف اليوم أن الروائيين العرب لا يتحملون المسؤولية عن هذا النقص، بل إن طبيعة الحياة البوليسية في

بلادنا العربفة لا تسمح بنشوء تقالفا بولفسفة راسخة ومنضبطة تكون مصءراً للمبءعفن. باءصار فإن الروافة البولفسفة آآآ إلى تقالفا بولفسفة وأنظمة راسخة وممارسات ممءة لم تعرفها المآآمعات العربفة بعء؁ وإن عرفتها فلن فم آآرامها ومراعاة مآطلباتها.

ولم تكن آآربآف مع الروافة الفرنسفة (المآرآمة) بأقل مآعة أو فائءة معرففة على نحو آاص؛ فمن آلال آرآمات "الهلل" اطلعآ؁ بشغف ووعف؁ على نآآ إسكندر ءوماس الأب؁ وآكونآ لءف فكرة واسعة عن آارفآ فرنسا إبان آكم أسرة البوربون وما تلا ذلك من وقائع أثناء الثورة الفرنسفة وما بعءها... ومَن مِن مآموعآنا فسآطفع أن فنسف "الفرسان الآلاآة" و"الكونآ ءف مونآ كرسآو" وآرفهما من أعمال ءوماس الكبرف الآف آلبآ ألبابنا وأشعلآ مآفلاتنا؟ ٢

لكن آآربآف الوجدانفة لم آقل عمقا مع الأعمال ءاآ الطابع العاطفف والإنسانف؁ مع بلزآك وفلوبفر وءوماس (الابن) صاآب الروافة الففمة "عاءة الكامفلفا"... كل هذا وآفره من مآآر "روافآ الهلل".

وقءمآ هذه السلسلة؁ فف آفنه؁ روائع الأدب الروائف الروسف؁ من آلال العءفء من أعمال آولسآوف؁ وءوسآوففسكف؁ وؒوركف وآفرهم. كل هؤلاء آآآفآ بهم "الهلل" بطرفقآها الآاصة من آلال آرآمة أعمالهم وإصءارها مع آرآمات مفسرة فف مآطع الروافة لآفآهم ولأهم؁ أعمالهم الآف آمءآ كل فوم وبالعشرات على أرضفة الرصف العفء.

وكذلك الأمر بالنسبة لعدد من روائع الروايات الأمريكية التي ترجمتها دار الهلال وقدمتها بأسعار تناسب ميزانية طالب في الإعدادية تنتمي أسرته في أفضل الأحوال للطبقة المتوسطة. لكن الملاحظ أن معظم الأعمال الأمريكية كان يصدر عن المراكز الثقافية الأمريكية في العواصم العربية لينتهي المطاف بالكثير من هذه الكتب معروضا على الرصيف بأسعار زهيدة، أو كانت (الروايات الأمريكية) تظهر بطبعات فاخرة تصدر عن دور نشر معروفة في بيروت.

لا أزعم بحال، أنني كنت متفرداً بين أقراني في معرفة مثل هؤلاء الأعلام وقراءة أعمالهم؛ بل كنت أنتمي لجيل يقدر أهمية القراءة (أو المطالعة خارج نطاق المقررات) ويمارسها بوعي، بل إن معظم زملائي كانوا يتناوبون على قراءة الكتاب الواحد، أو بالأحرى، الرواية الواحدة. وحين كبرت قليلاً أدركت معنى الوجدان "المشترك" الذي تنجزه الفنون بين الشعوب. أدركت معنى الصمت، أو الرهبة، أو الحماس والتصفيق أثناء العرض السينمائي أو المسرحي، وفهمت دلالة اللعنات العلنية التي كانت تنصب على الشرير، وذلك حين يتوحد الوجدان في قاعة واحدة تضم ما يزيد على خمسمئة مشاهد لعرض فني واحد، ومعنى حالة الانسجام والمنافسة في إبداء الرأي ضمن حلقات تضم الأصدقاء، وقد يكون القاسم المشترك بينهم اهتمامهم بهذه الرواية أو تلك، أو إعجابهم بهذا الممثل وتلك الممثلة، أو المطرب والمطربة، أو أي رمز من رموز الفن العربي والعالمي وأعلامه.

-١٠-

لم تتوقف مآثر الرصف في مسيرتي على الكتب والمطبوعات فحسب، بل وسع من دائرة حياتي الإنسانية وأغناها بصديقين وأستاذين طالما جمعني بهما هاتان الصفتان، وكان لهما أثر كبير بل حاسم في توجهاتي وتطوير أحكامي القيمة بما عزز نضجي فكريا واجتماعيا " وإنسانيا، وجعلني أميز بصورة أفضل بين الغث والسمين، وما يستوجب الأولوية وما يقبل التأجيل، وفوق كل ذلك ما جعلني أكتشف أين أقف، ومن أين أبدأ، ثم ما الغاية التي أطمح في الوصول إليها. كان هذا- تحديدا- بفضل الصديقين والأستاذين: شحادة الناطور وعبد الفتاح النجار.

كان الاثنان مرتادين دائمين للرصف، وكنت أعرف أحدهما حق المعرفة بحكم الجيرة، ولكونه مدرسا للعديد من رفاقي في الحارة من كانوا طلبة في مدارس الوكالة في مخيم إربد. وكان الأستاذ شحادة (الدكتور فيما بعد) يجعل من ذهابه وإيابه من منزلة في الطرف الشرقي من البارحة، نزهة يومية، بوقاره وأناقته وتبادلته التحيات تقريبا مع كل واحد يصادفه؛ فقد كان معروفا للجميع، وفوق هذا فقد كان عازف عود ماهرا، لكن موهبته هذه كانت محصورة بين أصدقائه الأقربين، ومن جملتهم شقيقي إميل، حيث كانا يتبادلان الزيارات، ويتناوبان العزف على العود، بحضوري إن كانت الجلسة في بيتنا؛ فكان أحدهما يغني "عندما يأتي المساء"، مثلاً، والآخر يعزف ويردد. ومع أن

الأستاذ شحادة يكبرني بعشرة أعوام، فقد كان، والأستاذ عبد الفتاح النجار (الدكتور فيما بعد) يعاملانني معاملة الند للند.

في تلك المرحلة لم يكن ثمة نقاش ثقافي بين الأستاذ شحادة وبينني، لفارق السن أولاً، ولكون الزيارة كانت "موسيقية" وليست أدبية، وكنت أسمعهما يتحدثان بانبهار عن الأستاذ ألفرد سماوي بوصفه أمهر عازف عود في إربد. وأحياناً كان ينضم للجلسة الموسيقية في بيتنا بعض أصدقاء أخي، ممن يتقنون العزف والغناء، من مثل: منير العكاوي وخالد الطوباسي وعبد المنعم جرار. وأذكر في أحد الأيام أن استدعاني في "الفرصة" أحد المدرسين وهو الأستاذ الطاف النابلسي، وكان يدرسنا اللغة الإنجليزية، وسألني عن عزف العود الذي يسمعه منبعثاً من بيتنا أثناء مروره من أمامه؛ فأخبرته عن شقيقي والأستاذ شحادة، ويبدو أنه كان يعرف الثاني حق المعرفة، فلم يضيع فرصته، فجاء مرة بصحبة الأستاذ شحادة إلى بيتنا للاستماع إلى عزف شقيقي إميل الذي طار صيته في تلك الأيام. ويبدو كذلك أن تلك الجلسات كانت تمتد إلى خارج بيتنا وبيت الأستاذ شحادة، في صالون الحلاق فتحي الطشلي مثلاً، وكان يقع فيما كان معروفاً بـ "عمارة النصراوي" حيث يقطن الأستاذ الطاف، وحيث يحتل صالون الطشلي أحد المخازن في الجهة الشرقية من العمارة، (وقد هدمت فيما بعد وأقيم مكانها برج أبي علي).

لم يكن الرصيف إذن سبب معرفتي بالأستاذ شحادة، ولكنه بالتأكيد كان سبب معرفتي بصديقي وأستاذه، دون أدرس على يديه، عبد الفتاح

النجار. لقد كان الصديقان متلازمين، لا أذكر أنني رأيت واحداً منهما في منطقة وسط المدينة أو على الرصيف، دون الآخر. كانا يأتیان كل يوم تقريباً ليعاينا مستجدات المعروض من الإصدارات، وكان من الطبيعي، بل من لزوم ما يلزم أن يتبادل رواد الرصيف الحديث - عن الإصدارات طبعاً - دون تكلف بل كأنهم أعضاء في ناد ثقافي يعرفون بعضهم بعضاً في هذا المكان وخارجه.

و ذات يوم، وكنت مستنداً بثقلي فوق الجنزير توجه إلى الأستاذ عبد الفتاح بسؤال مباشر: "هل قرأت حديث عيسى بن هشام؟" وأشار بيده إلى كتاب ذهبي الحواف صادر عن "كتاب الهلال" (كما الأمر مع كامل بالنسبة لطبعة "زينب") لم أكن قد قرأته بعد، وإن كان عنوان الكتاب ومؤلفه، محمد إبراهيم المويلحي، ليسا غريبين على ذاكرتي، بحكم قراءتي الأخرى، وبحكم المناهج المدرسية. نصحني بقراءته.

وهذا هو دأب الأستاذ عبد الفتاح إلى يومنا هذا؛ فكل من يقترب منه أو يخالطه قليلاً أو كثيراً يشعر بأنه إزاء رجل نذر نفسه لرسالة يؤمن فيها ويطبقها فعلاً وقولاً. يشعر بأنه مدين لكل إنسان، وليس لكل تلميذ من تلاميذه فحسب، بتقديم واجب الزاد الخلقي والمعرفي. ومما عمق في تأثير هذين الصديقين أنهما لم يكونا تربويين وقارئین نهمين فحسب؛ بل هما أديبان متعددا الجوانب؛ فالأستاذ عبد الفتاح كان وما زال ناقدا لا يشق له غبار؛ يتصدى للشعر، وينقد النثر، ويخوض غمار نقد النقد. في حين بدأ الأستاذ

شهادة كاتباً للقصة القصيرة، ثم دخل معترك التأليف للأطفال، وتفرغ في السنوات الأخيرة من حياته للتأليف في مجال تخصصه الأكاديمي: التاريخ، ورفد المكتبة العربية بالعديد من الكتب بل المراجع المهمة في هذا الحقل. وثمة جانب أساسي في شخصيتي الاثنين؛ وهو الجانب الذي أفدت والعشرات من أمثالي من عطائهما فيه إفادة مباشرة؛ أعني كونهما ناشطين ثقافيين بالمعنى النموذجي للمفهوم، تراهما من أوائل المنظمين والمشاركين في العديد مما كانت تشهده المدينة من نشاط أدبي أو فكري.

وهكذا راح الاثنان يوجهاني لقراءة ما أنتجه يراع أعلام الأدب العربي الحديث حتى ذلك الحين، وربما قبل ذلك: أعمال طه حسين والعقاد وتوفيق عواد وغيرهم ممن هم في هذه الطبقة من العظماء، والأهم من هذا كله أن الاثنين جسدا لي نموذجا لم أكن عرفته أو خبرته بعد، ولم أعثر عليه في تلك المرحلة بمثل ما خبرته فيهما: نموذج المثقف والقارئ، وهو النموذج الذي طالما سعت إلى الاقتداء به إلى يومنا هذا، وأتمنى أن أكون نجحت في هذا المسعى جزئيا على الأقل. ولا أظن أن ختام المسك في الحديث عن "الرصيف" كان ليحضر ويتضوع، بالنسبة لي، وللرصيف، إلا بعد تلك الوقفة العابرة معها.

- ١١ -

لم أعرف من النوادي في إربد، قبل ١٩٦٧ سوى ناديين اقتصرت صلتني بهما على حضور ما يقيمانه من نشاط ثقافي أو فني فحسب: العربي، ونادي

الشباب الاجتماعي الذي أنشأته وكالة الغوث في الطرف الجنوبي الغربي للمخيم، والقريب من المقبرة.

وقد كانت النوادي، وآمل أنها ما زالت (وللأسف لست عضواً إلى اليوم في أي ناد) محافل رياضية وثقافية كذلك. في بداية الأمر، وجدت المجال متاحاً ليافع مثلي أن يرتاد نادي الشباب الاجتماعي دون معوقات. بل كان النادي يقدم خدماته وأنشطته دون شروط عضوية، ودون قيد أو شرط رغم أنه لم يكن يفتقر لإدارة أو لجان أو حتى لفرق. أكثر ما شدني في نشاط النادي الحفلات الفنية التي كان ينظمها شبان من سكان المخيم أو من خارجه، بل حتى من غير أبناء اللاجئين. وكانت الفقرات الفنية تشمل مشاهد تمثيلية من وضع الشبان أنفسهم، وأذكر إسكتشاً فنياً قدمه ذات ليلة أحد الفتية على المسرح، ممن كان في مثل سني، مسوّقا حركاته مع الإيقاع ومعنى الكلمات وضمن حلقة من المرددين ممن يكبرونه سنّاً. وتقول كلمات هذا الإسكتش المحلي جداً:

محسوبك درويش عالبركة بيعيش

لما يمشي ولما يقزدر...

بشكل شاويش... بشكل شاويش

على أنه من ناحية أخرى، لم يكن لمن كان في سني أن يكون عضواً في نادٍ عريق مثل النادي العربي (لم يكن نادي الحسين قد ظهر بعد)، ولكنني كنت كثير التردد عليه لممارسة بعض الألعاب التي كانت حديثة نسبياً بالنسبة لإربد،

مثل البلياردو، أو تنس الطاولة الذي لم أفلح فيه يوماً. ولكنني كنت ملتزماً بحضور كل الأنشطة الثقافية التي كان يعلن عنها وكانت تجري، في الأغلب الأعم، خارج النادي، في قاعة (أو مسرح) ثانوية إريد على ظهر التل في الأغلب الأعم. وشجعتني على الحضور كون بعض أساتذتي أو ممن هم في حكمهم كانوا منظمين أساسيين لتلك الأنشطة؛ من مثل: جورج حداد وزباد القاسم (غير الروائي) ومحمد النمراة وغيرهم. وهنا أشير إلى واقعة ثقافية كان لها صداها، بل أصبحت الموضوع الرئيسي في أحاديث المثقفين (أو بالأحرى المتعلمين) لفترة من الوقت.

ذات يوم في الستينيات (ربما ١٩٦٦) أعلن النادي العربي عن تنظيم محاضرة للأستاذ أديب عباسي يتحدث فيها عن "نظرية جديدة" له حول حجم الكون، هل هو محدود أم لا متناه. كنت أحد الحضور، واستمعت إلى فرضيات الأستاذ أديب وبراهينه التي توصل إليها، وثبتت - حسب رأيه - صحة تلك الفرضيات. وأذكر أن القاعة كانت تغص بالجمهور من الجالسين والوقوف؛ ذلك أن الرجل كان يتمتع بسمعة أسطورية لما يؤثر عنه من ذكاء والمعية، كما أنه صاحب مؤلفات منشورة، ونشرت له بعض المقالات والقصائد في مجلات مرموقة في ذلك الحين من مثل "المقتطف" و"الهلال"، وزاد من شهرة الرجل اعتكافه في بيته لعشرات السنين احتجاجاً منه على السياسات العربية القائمة، ومن هم وراء هذه السياسات من القوى الاستعمارية الغربية، والإنجليز بخاصة الذين كانوا يتقصّدونه - شخصياً -

بالأذى ولطالما حاكوا له المكائد، حسب ما ظل يكرره أمام زواره ومريديه. والمعروف أن الرجل كان يتجراً بالجمهور أحياناً أمام الداني والقاصي بآراء صادمة حول الثوابت التي تؤمن بها غالبية الناس. ولعله أثناء تلك المحاضرة العامة جاهر بما رآه عدد من الحاضرين تجاوزاً لا يجوز السكوت عنه؛ فوقف أحدهم، الأستاذ قاسم، وهو معلم في مدرستنا، وينتمي لأحد الأحزاب العقائدية يريد مناقشة المحاضر، تكلم ولعله أطال، مما جعل مدير الندوة، الأستاذ محمد النمرا، على ما أذكر، يطلب إليه الاختصار، وحين لم يستجب أعطى الكلمة لغيره؛ فغضب الأستاذ قاسم، وتساجل بحدة مع مدير الجلسة.

ولكن العديد من الحضور، من أعضاء النادي، حاولوا إسكاته مما عده نوعاً من القمع يمارسه أولئك اليساريون. انتهت المحاضرة على خير، ولكن تفاعلاتها لم تنته بالنسبة لنا في المدرسة؛ ففي صباح اليوم التالي حضر أستاذنا إلى الطابور الصباحي ويده ميكرفون الإذاعة، وألقى كلمة في الطلبة لأن عدداً كبيراً منهم كان ضمن الحضور، قال فيها إنه يود أن يوضح ما أراد توضيحه بالأمس وتم منعه من قبل من وصفهم المدرس بما وصفهم به ذلك الصباح. واستبقى الطلاب لما يزيد على عشر دقائق، فوق دقائق الطابور، ليبن زيف ادعاءات عباسي ومن دعاه ووالاه.

لم أكن آنذاك بحكم سني ولأسباب أخرى، في وضع يسمح لي بإبداء الرأي اتفاقاً مع هذا الطرف أو ذاك سواء في أثناء المناظرة أم بعدها. ولكن حين دخلت إلى قاعة تلك محاضرة أديب عباسي كنت معجبا بأستاذي صاحب

المداخلة الاعتراضية؛ لأنه كان من أولئك الذين يقرؤون كثيراً ويسعون إلى توجيه طلبتهم، لكن حين خرجت منها كان إعجابي قد تزعزع بذاك المدرس لما أبداه من نزق وعصبية أمام هدوء عباسي وصرامته بل وحسمه فيما يعرض من فرضيات. وكذلك شعرت بنوع من التعاطف مع هذا الأخير لا لقوة حجته فحسب، وإنما لهيئته الكلاسيكية بل الأثرية، ببذلته الكحلية كالحلة اللون وربطة عنقه التي تستعيد أزياء العشرينيات وتترحم على أيامها، وياقة قميصه المنشأة في وقت ظهرت فيه الياقات اللينة التي لم تُغَطس وسوف لن تغطس بعد ذلك اليوم بإناء مملوء بالنشاء. ولا عجب في هذا، فقد شهد ذلك اليوم أول إطلالة لأديب عباسي من صومعته المعتكف فيها في الحصن منذ سنوات طويلة، حسب ما أعلن هو نفسه في بداية اللقاء.

وقد أتيت لي أن ألتقي الرجل في بيته بعد ذلك بحوالي عقد من السنين، وذلك حين أثارت جريدة الرأي في منتصف السبعينيات موجة نقاش شارك فيها بعض الكتاب والقراء، حول اعتكاف أديب الطويل، وناشدته أقلام كثيرة بضرورة إنهاء عزلته والانخراط من ثم في المجتمع. وسبب آخر حفزني للذهاب إليه في صومعته بصحبة صديق العمر شحادة الناطور، ذلك أنني كنت في حاجة للاستمتاع إليه فيما يخص موضوع رسالتي للماجستير حول الحركة الشعرية في الأردن. في ذلك اليوم تحدث أديب كثيراً عن معاناته مع الجهات الاستعمارية (البريطانية تحديداً) وكان في حديثه ما يقنع وما لا يقنع، وأذكر أنه أرشدني إلى قصيدة له نشرتها مجلة المقتطف المصرية في الأربعينيات،

وكانت حقاً قصيدته فلسفية عميقة الأفكار متماسكة البناء، وقد أوردتها في رسالتي وأدرجتها ضمن التيار التجديدي الذهني الذي كان يروده في حينه عباس محمود العقاد، كما أهداني، والأستاذ شحادة بطبيعة الحال، نسخة من كتابه المدهش "عودة لقمان".

- ١٢ -

ولكن من منا يستطيع أن يغفل دور المدرسة في تأسيس وعيه الثقافي وتشكيل مرجعياته المعرفية والفكرية والقيمية والإنسانية، بل سائر مرجعياته. تحدثت في البداية عن تجربتي المدرسية الأولى في مدرسة أبي عبيدة بن عامر الجراح، التي انتقلت منها بعد ذلك إلى مدرستين أكملت فيهما المرحلة الابتدائية، مدرسة محمد الثقفي، وأمضيت فيها عاماً، ثم "نقلونا" إلى مدرسة سعد بن أبي وقاص أي ثانوية البارحة، بعد أن تم تحويلها - لفترة قصيرة - إلى مدرسة ابتدائية، أمضيت فيها عامين، ثم عادوا "فنقلونا" إلى مدرسة حمزة بن عبد المطلب في نهاية شارع الرشيد جنوباً، وهناك أمضيت المرحلة الإعدادية كلها، لأعود بعد هذا إلى مدرسة سعد مجدداً بعد أن استردت وضعها التاريخي بوصفها مدرسة "ثانوية".

في المرحلة الإعدادية (مدرسة حمزة) عرفت وعاشت بل شاركت فيما ندعوه اليوم بالنشاط اللاصفي. لم يكن النشاط الرياضي - وما زال الأمر كذلك - يعنيني كثيراً. لكن في تلك المرحلة بالذات بدأت أحس "بشخصيتي الثقافية" - إن جاز لي قول هذا - بل بدأت ملامح المستقبل تتكشف لي، وإن بصورة ملتبسة. مستقبل لا بد أن يرتبط بالكتاب والكتابة، والفنون بصورة

عامة. وكان العديد من المدارس في تلك الأيام - وآمل أن يكون الحال هكذا في أيامنا هذه - يحرص على إقامة بعض النشاطات الثقافية والفنية. وهكذا استمتعنا منذ العام الأول في مدرسة حمزة بعدد من التمثيليات التي كان يشرف عليها الأساتذة، من مثل أستاذ الرياضة جمال خوري وأستاذ المهن سعيد جميل وأستاذ الجغرافيا - في حينه - غازي كنعان، ولحسن حظ المدرسة كان "السعدي" واحداً من طلبتها العتيقين، وكان يكبر جميع التلاميذ في مختلف الصفوف سناً وحجماً، وأذكر أن ما لا يقل عن سهرتين تمثيليتين قامت عليهما أكتافه وبهمته؛ أولاهما مسرحية قصيرة من تأليف توفيق الحكيم بعنوان: "إبليس ينتصر" اقترحتها أنا، وهي المسرحية التي كانت تعرضها معظم المدارس التي تهتم بالنشاط الفني. أما "المسرحية" الثانية (إن جاز لنا أن نطلق عليها هذا الوصف) فقد كانت مجموعة من المشاهد التمثيلية تصور الباعة ونداءاتهم والشحاذين ودعواتهم في شوارع إربد، وقد "أبدع" السعدي في تلك الليلة؛ إذ أحضر معه "إكسسواراته" اللازمة؛ من مثل الأواني والفناجين والصحون من تلك التي يبيعها أشهر الباعة الجائلين في حواري إربد، وأخذ يطلق نداءاته بصوته الجهوري الأَجَش: "كاسات الماي"... "كاسات الشاي". وكان يضع "البضاعة" في "خيشة" كبيرة حملها على ظهره، وأصداء صوته مع ضحكات "الجمهور" وتصفيقه، تتردد في أرجاء الحي، وكنت من جملة ممن أسهموا في تذكير السعدي بنداءات ذلك البائع، قبل العرض وأثناءه.

وقد عاصرت في المرحلة الإعدادية (في مدرسة حمزة) اثنين من المديرين تركا لدي أثرًا إيجابيًا، فكرياً وفنياً. كان أولهما الأستاذ محمد هزاع الحتملة، ومع

أنه كان قليل الكلام، بل قلما سمعناه يتحدث فإنه، بالإضافة إلى مكانته تربوياً مثقفاً، صاحب موقف سياسي، أدركته وفهمته من خلال حصتين أو ثلاث أشغلها لنا بسبب غياب المدرسين الأصليين. أما المدير الثاني (وجاء مباشرة بعد الأستاذ محمد هزاع) فهو الأستاذ فؤاد الخصاصونة، وقد كان صاحب مبادرات بدت لنا ريادية في ذلك الحين؛ فقد استهل عهده بتعزيز فعاليات الإذاعة المدرسية؛ فأخذ يتعهد أموراً بنفسه، ويختار بنفسه الطلبة المتحدثين ويصحح ما يكتبون أو يقتبسون لإذاعته على زملائهم، وما زلت أذكر إلى اليوم أحد أبرز الطلبة في هذا المجال، وهو الصديق القديم جهاد الزعبي، وكان مثقفاً يجيد الإلقاء، لا سيما أن والده أبا جهاد كان يمتلك أهم "المكتبات" التي تعنى ببيع الكتب ذات الطابع الفكري، أعني "مكتبة الجهاد" في شارع الهاشمي في إربد، وكان الزميل جهاد (واعتقد أنه أصبح مهندساً فيما بعد) يمتلك قدرات تعبيرية وخطابية متقدمة بالنسبة لمن هم في مثل سنه أو مرحلته الدراسية، وأذكر من تعبيراته التي "بثها" في الإذاعة المدرسية ذات يوم، بمناسبة وعد بلفور: "سجل يا قلم ... اذكر يا تاريخ..". شخصياً كنت أمتلك حصيلة أدبية ومعرفية جيدة، بيد أنني لم أكن أشارك بصوتي في النشاط الإذاعي المدرسي؛ بل فقط بالنصوص التي يلقيها غيري ممن كانوا أفضل مني إلقاءً، وذلك لرهبتي أمام الميكروفون ثم من الكاميرا فيما بعد، وظل هذا دأبي مع وسائل الإعلام - غير المكتوبة - إلى يومنا هذا.

ومن مبادرات الأستاذ فؤاد التي ما زلت أذكرها، أنه كان يستهل اليوم الدراسي، ببث مقاطع موسيقية من ميكروفون الإذاعة المدرسية، تثير في الطلبة

نشاطاً بل حماساً، وأذكر منها المقدمة الموسيقية لأغنية "دعاء الشرق" لعبد الوهاب التي ما زالت إلى اليوم تشدني كما لا يشدني مقطع آخر في الموسيقى العربية، بل إنه دأب في فترة ما على بث مقطع موسيقي من فيلم أجنبي لقي إقبالا كبيرا في تلك الأيام، أعني موسيقى فيلم "جسر نهر كواي" ذات اللحن القريب من حركات المارش العسكري، وكانت آلتها الوحيدة في الأداء هي الصفير، ولم تكن ندري هل هو صفير بشري أم صفير آلة موسيقية.

وكان الأستاذ فؤاد يحرص على إحياء المناسبات ذات الطابع الوطني أو القومي، ويلمح ميول الطلبة وقيّم قدراتهم؛ فيكلف هذا الطالب بإعداد موضوع عن عيد الشجرة مثلاً، ويخير معد الموضوع بين قراءته بصوته أو بأداء زميل له من اختيار المدير شخصياً. وعادة ما تتم "إذاعة" الموضوع إما في يوم المناسبة، أو في يوم الدوام التالي للعطلة.

أما الأستاذ مرشد شاكر فقد كان علامة المدرسة دون مدافع أو منازع. وكان له من اسمه النصيب كله بالنسبة لكل من يأتيه مسترشداً برأيه. وقد بدأت في تلك الأيام أقترح عالم الرواية بالقراءة بكل ما أمتلك من نشاط، حتى لو تم الأمر على حساب قيامي بالواجبات المدرسية؛ فكنت كلما وقعت على كتاب وأنوي قراءته أذهب إلى الأستاذ مرشد وأطلب رأيه، فيكون جوابه لي من قراءته للعنوان فحسب، إما بالمضي في القراءة، أو لا تضيع وقتك. ومما يؤكد صدور حكم الأستاذ على الكتاب عن دراية مؤكدة بمضمونه أنه كان يناقشني بعد إتمام القراءة مناقشة الناقد الحصيف لتلميذ بين يديه لا يمتلك من الأحكام أكثر من "أعجبني ولم يعجبني". جاء الرجل من الضفة الغربية،

وكثيراً ما كان يحدثنا عن بلدته (يعبد) واشتهارها بزراعة الدخان. كان في نحو الأربعين آنذاك يضع الشماغ والعقال فوق رأسه صيفاً وشتاء، تنم ملاحه عن طيبة وحذب يغمرنا به، بل كان يُشعر الطلبة كأنه مسؤول عن تثقيفهم وتطوير معارفهم، فإذا انتهى مقرر الدرس، وتبقى من وقت الحصّة عشر دقائق مثلاً فإنه كان يشغلها بقراءة نص أدبي ما، من خارج المقرر، من عيون الأدب العربي أو العالمي، كأن يكون قصيدة أو قصة قصيرة، وما زلت أذكر قصة "ورقة اليانصيب" لمحمود سيف الدين الإيراني، التي قرأها على مسامعنا ذات يوم في حصّة كاملة، وطلب إلينا إعداد موضوع "إنشاء" حولها، بل ما زلت أتمثل جيداً المعنى الإيجابي الذي تقدمه تلك القصة وبيّنه لنا الأستاذ مرشد؛ بمعنى أن الأمل له ثمن أيضاً؛ صحيح أن الشخص الذي اشترى ورقة اليانصيب لم يربح أي جائزة؛ ولكنه ربح أياماً من الأمل في انتظار الجائزة.

على أن الأستاذ سامح عليان، مدرس التربية الدينية كان من نمط مختلف. كنت آنذاك في السنة الأخيرة من المرحلة الإعدادية، وكان الانتقال إلى المرحلة الثانوية يتطلب اجتياز "مترك الإعدادي" أي امتحان الإعدادية العام، وكان توزيع الطلبة بين التخصصين: الأكاديمي والمهني يتم استناداً للنتيجة التي يحصل عليها الطالب في "المترك الإعدادي"؛ فرأيت أن أدرس مادة التربية الدينية سعياً لمعدل أعلى يضمن لي الانتقال إلى الأول ثانوي الأكاديمي، كما كنت أخطط.

والتزمت بحضور حصص الدين التزاماً مطلقاً، وحققت فائدة معرفية وقيمة استمر تأثيرها معي، مع ما راكمت بعدها بطبيعة الحال، عبر سنين

العمر. كان مدرس المادة هو الشيخ سامح عليان، وكم كان له من اسمه نصيب. يقدم دروسه بحماسة ومودة وحرص، واتسمت شروحه وآراؤه وتعليقاته بل واجتهاداته بالتسامح والانفتاح الفكري على كل رأي أو اجتهاد يخوض فيه. لكنه كان يميل إلى الاستطراد، بحيث يصرف الجزء الأكبر من وقت الحصة على موضوعات تتصل بالحياة بعامة وآداب السلوك والعبر بخاصة، وأحياناً - وربما كثيراً - بالسياسة، أما الدرس المقرر فكان يكتفي بشرحه بما يكفي استعدادنا لامتحان العام. وكان دائم التشجيع لنا على الاعتراف بالخطأ ومراجعة النفس، وعلى الجرأة في قول الحق دون خشية من أحد إلا الله سبحانه وتعالى، ويختتم نصيحته هذه بقوله المأثور: "انتقدوا" "سامح" فإنه طالح". مع ميل لنطق السين أقرب إلى الشاء. ولكن الحق أننا لم نر من هذا الأستاذ - إذا ما جاوزنا ميله للاستطراد - إلا الصلاح فقط.

وكان الشيخ سامح دائم الاستشهاد بأراء شيخ الأزهر الدكتور محمود شلتوت، الذي كان قد توفي - آنذاك - منذ عهد قريب. وقد حفظنا اسمه واستوعبنا بعض اجتهاداته من كثرة ما كان يرد ذكره على لسان أستاذنا.

وحدث بعد فترة أن اغتيل الرئيس الأمريكي جون كيندي، وأحدث اغتياله ضجة بين الناس، وعلى المستوى الرسمي في الأردن كذلك. إذ أعلن الحداد (بتنكيس العلم الأردني) في إحدى المؤسسات السيادية لثلاثة أيام. لم يرق هذا للشيخ سامح لا لموقف يتعلق بنفور من الآخر، بل لما رآه من تقصير تجاه عَلم من أعلام الأمة حسب اعتقاده. في ذلك اليوم استهل الأستاذ حصته منفعلًا؛ بأنه لا يجد غضاضة أن ننكس الأعلام لكائن من كان حتى لو كان

رئيس أمريكا، ولكن أليس الأولى بالتكريم عالم بحجم الشيخ شلتوت؟ لماذا لم يُنكس العلم حين وفاته؟ هنا أطلق الصديق هاني الكراسنة (المهندس فيما بعد) تعليقاً أصاب به كبد الحقيقة: "هيك بدها السياسة يا أستاذ". نعم؛ فقد كانت علاقتنا بمصر آنذاك تمر بأصعب مراحلها، ثم إن خطوة تنكيس العلم بدت للقاصي والداني في حينه على أنها مجاملة للأمريكيين، ومسايرة لما اتبعته معظم دول العالم تجاه الحدث العالمي الجلل، لا أكثر. المهم أن علامتي في التربية الدينية كانت ٩٣٪، ولا شك أن قدراً كبيراً من الفضل، يعود إلى ذلك الأستاذ الشيخ الصالح... غير الطالح...

- ١٣ -

حين عدت إلى مدرسة سعد، كانت قد استردت، كما ذكرت، وضعها التاريخي بوصفها ثانوية البارحة مع احتفاظها باسمها الرسمي (ثانوية سعد بن أبي وقاص). كان انتقالي إليها في خريف ١٩٦٤، كنت آنذاك قد جاوزت بقليل الخامسة عشرة، وقد نجح سعيي بسهولة في بلوغ التخصص الأكاديمي، ومن ثم، بعد عام، سيتسنى لي الدراسة طالباً في الفرع الأدبي. ازدادت ثقتي بنفسي وبقدراي العلمية بعد أن تخلصت مع دخولي في المرحلة الثانوية من عبء الرياضيات والعلوم، وأصبحت المناهج الآن أقرب إلى ميولي الثقافية والأدبية بصفة خاصة، مع منغصات طفيفة من بعض المواد العلمية في الأول ثانوي (العاشر في أيامنا).

دخلت المرحلة الثانوية وكنت قد قرأت المئات من الكتب (خارج المقرر) بل لعلني أكون صادقاً مع النفس حين أقر بأنني آنذاك شعرت بقدر من

الغرور والتفوق بين أقراني لكثرة ما قرأت من كتب وما أحفظ من عناوانات الروايات وأسماء المؤلفين عرباً وأجانب، وكنت، في أواخر المرحلة الإعدادية، وللزوم استكمال صفة المثقف أو القارئ التي أشيعت عني بين زملائي وأساتذتي قد بدأت أقرأ في الفلسفة والنقد كثيراً مما كان يشبع غرور المراهق ويساند ادعاءاته، إن لم يكن استعراضاته. الأدب الوجودي إذن!

نعم، كانت الوجودية هي "التقليعة" السائدة بين عدد كبير من شباب إربد المتعلمين (ودعونا نطلق عليهم وأنا من ضمنهم، مع قدر من التسامح وصف "أنصاف المثقفين")؛ فبعد قراءات مبسطة لأنيس منصور، وأخرى تأسيسية لبعض ما كتب عبد الرحمن بدوي؛ رحنا نغترف من معين سارتر ودوبوفوار وفرانسواز ساغان، وكولن ولسون، وغير هؤلاء بطبيعة الحال. بل إننا التفتنا إلى بعض قصص لمحمود سيف الدين الأردني نحت هذا المنحى الوجودي، ووجدت طريقها إلى كثير من القراء ممن يتحمسون للوجودية وينخرطون في النقاش حولها. وفي هذا السياق لا أستطيع أن أنسى صنيع عطية وأبي العبد الزرعيني معي حين كانا "يدبران" من مصادرهما التي أجهلها، روايات من قبيل: "طقوس في الظلام" و"ضياع في سوهو" لكولن ولسون، و"المنفى والمكلوت" و"الغريب"، لألبير كامو، إضافة لسلسلة "دروب الحرية" لسارتر، وغيرها من علامات الأدب الوجودي المترجم إلى العربية. ولا أبالغ إذا قلت إنني قرأت كل كتاب استطعت الوصول إليه، في الأدب والفكر الوجوديين.

ومع أن إحساسي بالمسؤولية تجاه مستقبلي الذي ستحدده نتيجة امتحان الثانوية العامة، بدأ يكبر، وهو اجسي تجاه "امتحان التوجيهي" تستوجب مراعاتها على حساب قراءتي "الخارجية" وارتداد دور السينما؛ فقد استمرت قراءتي للكتب ومشاهداتي للأفلام بالمعدل نفسه، وشجعني على هذا إحساسي بقدر أكبر من النضج الفكري والنفسي، بحيث أصبحت استوعب الروايات الإشكالية، وصرت أقلل من ادعاءاتي الاستعراضية، بل أصبحت أكثر جرأة بيني وبين نفسي في البحث عن مغزى ما أقرأ ومحاولة تكوين التصورات الخاصة بي تجاه كل عمل أقرأه. وما أكثر التصورات "الموازية" التي كونتها عن روايات مثل "المنفى والملكوت" و"الغريب" و"الطاعون" لكامو. لكن التطور الأهم في تلك المرحلة كان تعلقي بنجيب محفوظ في المقام الأول، وبأعمال بعض الروائيين المصريين مثل المازني والسحرار ومحمد عبد الحليم عبد الله وإحسان عبد القدوس، وآخرين من مثل حنا مينه وتوفيق عواد وسهيل إدريس، وغيرهم بطبيعة الحال.

لست متأكداً من صواب حكمي فيما يتعلق بالتكوين الفكري للمرحلة الدراسية ومدرسيها، وتباين هذا التأثير بين مرحلة وأخرى، بالنسبة للطلاب أو بالأحرى التلميذ. بصورة عامة، واستناداً إلى هذا الحكم أو التصور؛ فإن ما تركته المدرسة لدي من أثر فكري ونفسي، خلال المرحلتين الابتدائية والإعدادية أقوى بكثير ... وكثير جداً مما تركته المرحلة الثانوية. ولدي فرضيتي الخاصة بحالتي التي تفسر هذا... وهي ليست فتحاً علمياً بحال من

الأحوال. وبناء عليها أفترض أنني ولجت المرحلة الثانوية، أي مرحلة التخصص الفرعي بين العلمي والأدبي، وقد تكاملت، ولا أقول اكتملت، شخصيتي فكرياً ونفسياً، فلم تعد أحكامي وتحليلاتي وتفسيراتي لما أقرأه أو أعيشه تعتمد على سؤال الآخرين بقدر ما تتكىء على استفتاء الذات ومساءلة النفس، ومحاوره المنطق الخاص، ناهيك عن الاستئناس بالضمير الشخصي. لكن ثمة واقعا آخر فرض مقتضياته عليّ خلال هذه المرحلة، وقلص من ثم هذه الهوامش أمامي، وهو هاجس اجتياز امتحان الثانوية العامة في الفرع الأدبي، وكانت نتيجة طلبة هذا الفرع هي الأدنى بين التخصصات الأخرى؛ فقد كانت على ما أذكر، خلال الستينيات، في حدود الأربعين بالمئة، وأحياناً أقل. فرض هذا الهاجس إذن استحقاقاته على حساب الاهتمامات الأخرى.

ومن هنا فإن محاولتي اليوم مقارنة السنة الأخيرة من المرحلة الثانوية أقرب إلى النقش في الصخر، إذ إن معظم الوقت -آنذاك- راح في الحفظ والاستظهار والتلخيص وخلاف ذلك. وحسبي، بالنسبة للمرحلة الثانوية أن أشير إلى حقيقة عشتها في عملي أستاذاً في جامعة اليرموك، وجاءتني موصولة بالمرحلة الثانوية، أقصد أن ثلاثة من أساتذتي في ثانوية سعد أصبحوا زملاء لي في نفس التخصص؛ اثنان معي في القسم نفسه، وثالث في الجامعة الأردنية. وأكثر من عشرة قبل الثانوية العامة في تخصصات أخرى. أما المرحلة الثانوية نفسها فإنني أدعو الله أن يكون في العمر متسع لأتوقف مجدداً عند مرحلتها العمرية ... ليس بالضرورة بوصفها مرحلة دراسية، والحمد لله فإن الطبع

فواتفني؁ والرغبة فف الكتابفة عن تلك المرحلة؁ بمنأى عن هموم الثانوية العامة؁
تحفزف؁ لا كف أوصل النبش بفن طبقات الذاكرة فحسب؁ بل للاعتراف من
معفن لا فنبب؁ إرد؁ قففل هزفمة ١٩٦٧؁ وقفل ذلك... إلى أفق آخر.
إنه السفاسة... ولكن مهلاؑ لفس الاشتغال بالسفاسة؁ بل الانشغال
ففها....

السياسة... انتتغال أم انتتغال؟

-١-

لا أذكر اسمه كاملاً، بل كل ما علق في الذهن أنه عمر ابن أم عمر جارتنا التي بالورع والتقوى ويُنظر إليها بصفقتها "ولية" قريبة من السماء ومكشوف لها الغطاء. وكانت نساء الحي يلجأن إليها في أوقات الكرب؛ ابن أو زوج مسافر انقطعت أخباره. مصير مريض حار الأطباء في علاجه. ضياع غرض عزيز. زواج ابنة طالت عنوستها، وغير ذلك مما كان يتطلب - بحسب عرف سيدات الحارة - استبصار أم عمر ومعرفة ما يخبئه الرمل والمنديل. وشاع عنها أنها لم تكن تأخذ أي مقابل مهما اشتد الإلحاح، كان الإجماع أنها تقدم خدمتها لوجه الله فحسب، ولا تستغل ما جباها الله به من قدرة على "كشف المستور" - حسب قناعة الحارة - إلا فيما وراءه صلاح الحال وإراحة النفوس الحائرة. أما ابنها عمر؛ فقد آنذاك، في مقتبل شبابه، في التاسعة عشرة أو العشرين من عمره، وكان يتردد أنه شيوعي، واعتقل مرات بسبب انتمائته هذا.

وحين أطلق سراح عمر، وكان هذا تحديداً في نهاية الخمسينيات، لم يجد سبيلاً للاستزاق سوى شراء عربة (بثلاث عجلات) يضع فوقها كل يوم نوعاً واحداً من الخضار أو الفاكهة ويطوف حتى آخر النهار؛ ليعود إلى بيته، وقد خلا ظهر العربة إلا من الميزان، الذي كان يحمله إلى داخل البيت، ويترك العربة على الرصيف الضيق أمام المنزل. هذا هو الشريط المائل حتى اليوم أمام ناظري.

وقد اعتدنا على الشراء مما كانت تحمله "عرباية" عمر، وبخاصة إذا كانت السلعة من الفاكهة الشائعة آنذاك من مثل التفاح الصغير، أو الإجاص الأخضر، وأحياناً الليمون الحلو، وخلاف ذلك.

كم كان عمر ودوداً، يعامل الصغار كأنهم أنداد ويحدثهم عن السلعة التي يشترون أو عن كرش البقال العم إبراهيم، وأحياناً غش الفوال أبي خليل... وكان الحديث يطول إذ كنا نلتهم ما نشتره منه أمام العربة، أو يساعدنا في تقشير الليمون الحلو، لتخرج حبة الليمون من يديه نظيفة أنيقة سليمة. لكن "بهجة" أو أم سهام كانت لها رؤية مختلفة في عمر وفي مشهد الصغار المتجمعين حوله. فما أن دخلت البيت، بعد وقفتي مع عمر، حتى كان في انتظاري وشايتها... استجواب مرير من الوالدة بخاصة: "شو كنت بتحكي مع ابن أم عمر الشيوعي؟" ولم يكن لدي أي جواب، ولا أذكر أن ردي حينذاك كان مقنعاً، وما كان ليكون مقنعاً مهما كمال الطفل من أيمان غليظة، وما كنت قادراً على زحزحة خوف الأم من الشيوعي على ابنها ذي الأحد عشر أو الاثني عشر عاماً (بالكثير). ثم أخذت تستحضر لنا حكايات وتروي على مسامعنا أمثلة مما جرت به الشيوعية على بيت أبي حكمت، وعائلة أبي إلياس وخلافهم... كان كلامها أقرب إلى الهلع من جانبها والترويع لنا. وكان هذا هو التحذير الأساسي الأول في حياتي من الاقتراب من السياسة والسياسيين. إن جاز أن نصف "عمر" ذاك، بالسياسي. هل أقول إن هذا المشهد ظل يلازمي ويحفر في أعماقي إلى اليوم؟

ذكرت في مستهل هذه الذكريات، أن أول ما استحضرت همتي في كتابة هذه الأوراق جاء طبقاً لما استقر في أعماق الذاكرة ... وكان الكثير من الوقائع، جُلها، إن لم يكن كلها، من صميم ما نعهده، بحسب كل الأدبيات، شأنًا عامًا.

وأكثر من ذلك؛ فإن التطورات السياسية، من شأنها أن تشكل في كثير من الحالات والأحداث نمط حياة المواطن، ولطالما ارتبط إيقاع الحياة الشخصية، وليس الجمعية فحسب، بالأحداث السياسية وتطوراتها. هل ننسى كيف تسببت حروبنا مع الكيان الصهيوني في تشكيل وجه الحياة في مجتمعنا الأردني بالذات؟ وهل ننسى ما تسببت فيه حروب الخليج من خراب البيوت؟ بل بالتأثير المباشر في نمط استعمال الناس للمركبات، زوجي وفردى، حسب الأيام والتواريخ؟

وحين كنا صغاراً أقرب إلى الطفولة انطبعت الأحداث السياسية في وجداننا، بل تحكمت في إيقاع حياتنا، ولكن أدوارنا لم تتجاوز التهليل أو السخط؛ أي بما لا يتعدى دور المتفرج أو نشاط الناقد السلبي، وربما المحتفي أو كذاب الزفة كما يقول التعبير الشعبي؛ وبهذا الإطار؛ فإن غداً-مثلاً- عطلة بسبب المظاهرات، وذلك اليوم إجازة بمناسبة قومية أو وطنية ما، أو بمناسبة زيارة شاة إيران أو قدوم عدنان مندريس إلى البلاد. كان الناس ينامون على السياسة ويقومون على الأحداث والتطورات العامة. كانت السياسة أحداثاً ووقائع وخطباً ونقاشات مكوناً أساسياً في حياة كل عربي تقريباً دون أن يكون له حق المشاركة في صنع القرار.

كنا بعد اندحار العدوان على السويس، ورغم حداثة السن متأكدين بأنه لم يعد يفصلنا عن تحرير فلسطين وطرد اليهود منها سوى خطوة واحدة... خطوة ونستعيد بيتنا في بيسان حيث ولدت أنا ومعظم أشقائي.

وعلى الرغم من أن مظاهرات تلك السنة ١٩٥٦ والسنة التي تلتها تحديداً، كانت تزودنا بسبب إضافي للتهليل (الغياب عن المدرسة)؛ فإن قدراً ضئيلاً من الوعي أخذ يتسرب في وجداني بأن وراء هذه المظاهرات سبباً ما، معنى ما. أذكر أن والدتي أرسلتني ذات يوم ملأ فيه ضجيج المظاهرات شوارع المدينة وسماءها، لآتيها بأخبار شقيقي الأكبر، الذي يجازف أحياناً بالمشاركة في التجمعات. أخبرني زميل لي أنه قد قبض عليه وحملوه للتو في العربة إلى سجن إربد على ظهر التل. ركضت كالمجنون مخترقاً الأزقة لأختصر المسافة، ولأصل باب السجن دون أن أرى شيئاً، وحين عدت إلى البيت تبين أن الخبر حول القبض على شقيقي لم يكن صحيحاً، تأخر ليلتها، واتجه فوراً إلى سريره دون أن يكلم أحداً.

-٢-

سأعود الحديث قليلاً فيما يلي عن شارع الهاشمي وبخاصة عن جزئه الأوسط الواقع بين طلوع البلدية والدرك وأول شارع حكما. وهذا الجزء أقرب إلى سعة الميادين، وعن محيطه وأهميته في تاريخ إربد القريب.

كان هذا الجزء من "الهاشمي" قلباً نابضاً للشارع السياسي المعارض، ولا سيما في الخمسينيات؛ فهو البؤرة الدائمة للتجمع وانطلاق المظاهرات التي

ما أن تغادره حتى تنطلق الثانية وما بعدها في متواليات لا تتوقف... أيام أزمة السويس بخاصة وما تبعها عام ١٩٥٧. ما زلت أذكر اللافتات والفتافات التي تندد بحلف بغداد وتهتف بسقوط جلال بايار وعدنان مندريس ومشروع أيزنهاور، ولعل أشهر شعارات ذلك الحين، وقد ظل مكتوباً على الجدران لفترة طويلة، ذلك القائل: "الفراغ في رأسك يا أيزنهاور" وذلك رداً على مقولته بضرورة ملء الفراغ في "الشرق الأدنى"، كما كان يطلق على منطقتنا بعد رحيل بريطانيا وفرنسا عنها.

لكن هذه الشعارات، بل التوجه السياسي وراءها، ما لبث أن بدأ يتغير تدريجاً، بعد منع الأحزاب وفرض الأحكام العرفية، والأهم من هذا الجريمة الوحشية التي هزت الضمير الأردني في معظم قطاعاته، أعني تلك التي ارتكبتها الانقلابيون في بغداد عام ١٩٥٨ بحق العائلة المالكة. أضف إلى ذلك توتر العلاقات مع "الجمهورية العربية المتحدة" وما رافق تلك التطورات من اعتقالات شملت أعداداً كبيرة من الناشطين القوميين واليساريين. ومن ثم فقد أخذت التجمعات تنعقد لدوافع سياسية ووطنية أخرى؛ فأصبحت المنطقة التي يطل عليها فندق غازي وبناء المحكمة القديم، وتحديدًا في الفترة ما بين ١٩٥٨ و ١٩٦٣ ميداناً للاحتفالات بالمناسبات الوطنية التي كانت ولا شك تحظى برعاية رسمية، مثل الاحتفال بعيد الاستقلال أو بعيد ميلاد الملك. ولعل أقوى هذه الاحتفالات - في ذاكرتي - ما نظمته جماهير إربد بحماسة منقطعة النظير احتفاءً بنجاة طائرة الملك حين حاولت بعض الطائرات التابعة للجمهورية العربية المتحدة أن تأسر الطائرة

الملكية وتقتادها إلى أحد المطارات السورية، لكن براعة الربان - نفسه، جلالة الملك - حالت دون هذا، وذلك بعد أن أوهمت المهاجمين بأن الطائرة على وشك الهبوط، لتعود وتنطلق بعد ذلك كالسهم باتجاه فضاء الوطن، وشاعت في ذلك الحين أغنية توفيق النمرى:

طيارتك يا ملكنا حسين يحميها الله من العين
ودائماً يحرسها.. يحرسها ما عدو يلمسها.. يلمسها

وحتى اليوم لا تفارقني صورة الشاويش العجوز أبي إدوار، وكان أحد "شّواش" المخفر الشرقي (ولعله كان وقتها بصحبة أبي زياد الرهيب، وسيأتي الحديث عن هذه الأسطورة لاحقاً) وهو يرقص ويدبك حاملاً مسدساً ضخماً للصوت بأربع فوهات (يشبه أسلحة رامبو في أيامنا) يطلق منه إحدى قذائفه الصوتية بين وقت وآخر.

وكان لشارع السينما (شارع الشهيد وصفي التل الآن) نصيبه من الجماهير الحاشدة في المناسبات، ولكنها ليست في زخم ما كان يشهده شارع الهاشمي، وكان بعض هذه التجمعات ينعقد لأسباب انتخابية، في الفترات المسائية، وبعد أن تغلق معظم المحلات أبوابها، ولكن تبقى المحلات مضاءة بواجهاتها الزجاجية الجمالية "والمذكّرة" بأبرع الطرق الفنية السائدة. لكن شارع السينما ظل بالنسبة لعموم الناس شارع النزهة اليومية ومعرضاً بهيجاً لأحدث موضة الألبسة، بل قل للأزياء والأحذية وحتى الباروكات، وكانت مداخل البنايات أماكن لتجمعات الشباب المتعلمين والمثقفين بخاصة، بل إن مدخل عمارة مختبرات سعدون كان أقرب إلى منتدى شبابي يجتمع فيه

مساءً، صيفاً وشتاءً عدد من الشبان. لم أكن بحكم مرحلتي العمرية عضواً في أحد تلك التجمعات، ولكن قيص لي، من خلال وقفات عرضية، أن أستمع إلى بعض أحاديثهم حول فكتور هوغو وسارتر وإحسان عبد القدوس وغيرهم.

-٣-

ظل الشارع الأردني ظل، طيلة الخمسينيات والستينيات منضبطاً على إيقاع اليسار. كان الناس، (ربما باستثناء المحافظين الملتزمين بسياسة الدولة آنذاك ومعهم الإخوان المسلمون بطبيعة الحال)، ينافحون عن الاتحاد السوفياتي للعديد من الأسباب، وأبرزها ولا شك موقف الروس في أزمة السويس، وتسليح الجيوش العربية، وما تلاه في الستينيات من أخبار الفيتو في مجلس الأمن حيث ظهر السوفيات كمدافعين عن قضية العرب الأولى، فلسطين، ناهيك عن أحاديث هذا الشارع حول بناء السد العالي، والوحدة بين مصر وسوريا، ثم انفكك هذه الوحدة، وغير ذلك من السياسات التي كانت تشد الشارع الأردني المكترث بل المسكون بالشأن العام.

ويا لها من فرحة عمت صفوف مثقفي تلك الأيام، وبخاصة المعلمون ممن كنا نسترق السمع إلى أحاديثهم بعضهم مع بعض، بل إن بعضهم كان يحدثنا حديثاً صريحاً بالسياسة .. يالها من فرحة اكتسحت الناس حين سبق الروس الأمريكيين في غزو الفضاء (١٩٥٧). حفظنا كلنا أسماء من قبيل القمر "سبوتنيك"، والكلبة رائدة الفضاء "لايكا"، ثم اسم أول رائد فضاء: "غاغارين". وبعض المعلمين كانوا يسخرون بل يستخفون أمام الطلبة

بالمحاولات "البائسة" الأولى للأمريكيين في إرسال أقمار صناعية للدوران حول الأرض كما صنع الروس. ووصل الأمر بأحد معلمينا من المتحمسين بأن أكد لنا في "الصف"، حين أعلن الأمريكيون أنهم أرسلوا إحدى أقمارهم للدوران حول الأرض، أنهم إنما يخدعون العالم، وأنهم أرسلوا طائرة على شكل قمر صناعي أو مركبة فضاء طارت فوق المحيط ربع ساعة ثم عادت ليزعموا أنهم لحقوا بالروس. وكان يزيد من هيبة الروس لدى الناس عندنا خطب خروشوف (بل قل عنترياته) وأشهرها خطابه بعد إسقاط طائرة الجاسوس الأمريكي باورز فوق أراضي الاتحاد السوفياتي، وتداول الناس بانبهار كلماته: "إن صواريخ الاتحاد السوفياتي قادرة على إسقاط ذبابة إن حاولت أن تتسلل إلى سمائه". أما حادثة الحذاء الذي طرق به خروشوف طاولة زعماء العالم في الأمم المتحدة، فقد كثر الجدل حولها، ولكن معظم الناس كانوا إلى جانب الروس بطبيعة الحال.

تعي الذاكرة جيداً قرار عزل غلوب باشا، وتعي المسيرات التي انطلقت من المدارس ابتهاجاً وترحيباً بالخطوة التاريخية. كان ذلك كما هو معروف في الأول من آذار ١٩٥٦، وهو أكثر الأعوام توهجاً واشتعالاً في الخمسينيات من القرن الماضي. ولم تلبث التطورات التاريخية الحاسمة أن تلاحقت، والتهبت معها مشاعر الناس؛ فتحوّلت الشوارع إلى ميادين للمسيرات والاحتفالات والاحتجاجات... تأميم قناة السويس؛ ثم العدوان الثلاثي؛ فاندحار العدوان؛ فقيام الوحدة المصرية السورية.

ولم تكن المظاهرات والمسيرات لتتوقف حتى تندلع من جديد. كان ما يجذبني هو ما ينجم عن المظاهرات من عطل مدرسية، وأحياناً كنت أجد تسلية في السير في ذيل مسيرة أو إلى جانبها إذا كان واحد من إخواني الكبار أحد المشاركين فيها. وقد غدا تعطيل الدراسة أمراً ضرورياً، بل بدهياً حين أصبحت الأسلاك الشائكة ذات الحلقات اللولبية تسد الشوارع الرئيسية. وكنت أندهش وأحياناً أنفعل انفعالاً طفولياً حين تصدح الحناجر هاتفة لفلان أو لسقوطه، وكنت ألتقط الأسماء التي تتردد في الهتافات أو مكتوبة بخط سيء على الجدران، وأعود إلى البيت وأسأل من هم أكبر مني: من هو جلال بايار؟ وما معنى النقطة الرابعة؟ أو ما المقصود بمشروع أيزنهاور؟ وكيف يكون الفراغ في رأسه وليس في بلادنا؟ حسب ما تقوله الشعارات التي تملأ الجدران. من هو جونستون هذا وما هو مشروعه؟ وثمة أسئلة أكثر تعقيداً؛ ماذا يعني الحلف، حلف بغداد؟ وماذا تعني المعاهدة، المعاهدة المركزية؟ وأين تقع أنابيب "الآي. بي. سي" التي تم نسفها؟ وهل ثمة فرق بين منع التجول وحظر التجول؟ إنها عشرات من الأسئلة كانت تضج في عقلي الصغير، ويضج منها إخواني من إلحاحي عليها، لم أكن أعلم آنذاك أنها تشكل المنظومة السياسية / التاريخية لتلك المرحلة.

على أن الحماسة للاحتجاجات أخذت تخف شيئاً فشيئاً لتطورات أخرى عايشتها في حينه، ولم أدرك تأثيرها على حالة الشارع إلا بعد مضي وقت طويل.

٤-

لعل أول هذه الأحداث كان الحدث التاريخي الجلل المتمثل بانقلاب ١٤ تموز ١٩٥٨ وما صاحبه من تمثيل مفعج بالأسرة الهاشمية الحاكمة في العراق آنذاك.

جاءت هذه المأساة بعد الإعلان عن الاتحاد العربي بين المملكتين الهاشميتين. صحيح أن هذا الاتحاد تعرض للكثير من التشوية - وكم أحس اليوم بفداحة ظلم معارضييه وحمقتهم - من القوميين - أو بالأحرى من جانب بعض القوى الديماغوغية، ولكن وحشية الانقلاب أخذت تلك القوى إلى موقف دفاعي إزاء معظم قطاعات الرأي العام، لا أقول هذا بوعي اليوم فقط. بل إن مأساة الأسرة الحاكمة في العراق ظلت ذكرى مؤلمة تلازمي. ولعلها اليوم، وقد كبر الوعي، وتعاضمت المدارك، واتضحت التبعات، وتوالت النكبات، أشد وقعاً وإيلاماً. أما يومذاك، فقد رأيت الحزن في وجوه كل الناس، وكانت الشوارع شبه خالية، وأذكر أن البيوت، ودون أن يطلب أخذت تعلق الأعلام السود على الأبواب والشبابيك وفوق الأسطح، ولا أذكر أن بيتاً في إربد لم يقيم أصحابه بذلك. وما زلت أذكر تجمهراً لليلة الأولى بعد الانقلاب في المكان الذي أقيم فيه ميدان وصفني التل اليوم، مكوناً من عشرات الأشخاص وقد راحوا ينظرون إلى السماء ويتحدثون عن علامات احتجاج بعينها في القمر أو النجوم - لا أذكر - حزناً بل سخطاً على ما جرى في ذلك اليوم المشؤوم، وهو يوم ما زلت أراه، وتزداد قناعتني بأنه

شهد الحدث الذي فتح باب الكوارث للعراق، وهو باب لم يغلق بعد، بل يزداد اتساعاً. ولعل أكثر ما صدم الناس المصير المحزن للملك الشاب ذي الشخصية الأسرة، وهيئته الملوكية البهية، وقد علقت صور الملك في العديد من الأماكن العامة والبيوت، وأظن أن الناس - في معظمهم - قد نسوا - بهذه المناسبة - خلافاتهم الفكرية ومواقفهم السياسية المتباينة، كما أظن أن احتجاجات بعض القوى السياسية على الوضع في الأردن، قد انحسرت بل تلاشت، حين لم تعد تجد تجاوباً في الشارع.

وبعد ذلك بعامين تشهد البلاد حدثاً مأساوياً آخر لا يقل ترويعاً وبشاعة. إنه حدث تفجير رئاسة الوزراء في عمان، وما نجم عنه من استشهاد رئيس الوزراء القوي هزاع المجالي ورهط من العاملين في مكتبه. ورغم أن المجتمع الأردني في ذلك الحين كان يشهد استقطاباً سياسياً حاداً بين أنصار دولة الوحدة المجاورة، ومن يرفضون سياسة الجمهورية العربية المتحدة، فإن الناس صدموا، ولا أذكر أنني سمعت من الأبناء الزملاء ما يفترض أن سمعوه من الآباء مختلفي الاتجاهات إلا ما ينم عن مشاعر الحزن والرفض لهذا العمل الوحشي الذي هز أعماق الناس رجالاً ونساء صغاراً وكباراً؛ وكأني أرى، بمنظور اليوم، أن أحداً من الناس لم يعد يمتلك الرغبة، بعد هذا العمل الفظيع في أن يتظاهر أو أن يشاغب، وإن وجد من كان لديه مثل هذا الهدف، فلن يجد كثيرين يمكن أن يسايروه أو يسيروا معه.

كنت آنذاك (١٩٦٠) في حدود الثانية عشرة، ومشاعري موزعة؛ فقد شاهدت بنفسه هزاع المجالي يخطب من شرفة بلدية إربد، وتعلقت بفروسية

الرجل وأعجبت بشخصيته الحازمة وهو يتوعد خصوم الأردن، وأذكر مما علق في ذهني من كلامه قوله بالفصحى: "لقد عرفنا نوايا عبد الناصر، وكشفنا سوء فعله"، لكنني في الوقت نفسه، وبتناقضات الصبي، كنت مبهوراً بشخصية عبد الناصر، وكلامه على فلسطين؛ فأنا من جيل أبصر الدنيا ومرارة المأساة الفلسطينية تمور في صدره، ويعيش تبعاتها في بيته ومظاهرها من حوله، بل تحيط به وبأصدقائه من كل جانب، وتتداخل حياته مع تطوراتها في كل مظهر من مظاهر الحياة... عرفنا منذ الصغر أن الصهاينة ما كان لهم أن يأخذوا فلسطين ويطردونا لولا بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة. صحيح أنني كنت في السابعة أو الثامنة حين وقع العدوان الثلاثي على مصر سنة ١٩٥٦، ولكنني كنت على وعي بكل التطورات... بهرني صوت عبد الناصر وهو يتحدث عن فظائع بريطانيا وتاريخها المشؤوم، وفي المدرسة قرأنا عن فرنسا وجرائمها في تبيد الحلم القومي في المشرق ودورها مع بريطانيا في تمزيق سوريا، وعاصرنا تنكيلها بشعب الجزائر (وقد غدت الجزائر وبطولات شعبها قصة يومية مستمرة في حياتنا)، وبهرتني بساطة الزعيم المتوهج حين كان يتحدث عن أمريكا وعن منعها السلاح وتمويل السد واعترافها بـ "الكيان الصهيوني" بعد دقيقتين من إعلانه. لكن هذا لم يمنعني من السخط على المتسببين في اغتيال هزاع، ولو أنني، أخذت بالرواية التي تقول إن الاغتيال دبره عبد الحميد السراج من وراء ظهر عبد الناصر. ولكن هذا التفسير المسطح ما لبث أن تداعى أمام ادعاءات بلغت حد الفجاجة، حتى بالنسبة لطفل في مثل سني، حين استمعت إلى المذيع توفيق حسن يزعم بصفاقة من

إذاعة دمشق "إن الذين استحووا ماتوا" وإن الذين دبروا اغتيال من استحقى هم جهات محلية في الأردن.

لا أستطيع أن أغفل تأثير إذاعة عمان التي كانت حديثة العهد في تلك الأيام (بدأ بثها سنة ١٩٥٩) كانت إذاعة ناجحة بكل المقاييس، استقطبت معظم المستمعين في المملكة في ذلك الحين، وما زال الكثير من مضامين تعليقات الأستاذين صلاح أبي زيد وطارق مصاروة عالقاً في الذهن إلى اليوم، وما زال كذلك صدى صوت المذيع إبراهيم الذهبي يتردد في مسامعي حين كان يقدم برنامجاً يومياً قبيل نشرة أخبار الثانية ظهراً، ويزعق دون مقدمات: "يا حماة الديار"، ثم تبدأ القذائف الإعلامية تنهال على رؤوس القائمين على السلطة في سوريا.

ولم تطل المسألة كثيراً، فسرعان ما تحقق ما كان يتردد في المجالس والشوارع عن أن الانقلاب السوري على الوحدة بات وشيكاً. أستحضر هنا ذكرياتي عن هذا الانقلاب (١٩٦١)، وما تداعى بعده من مشاريع باءت بالإخفاق لإقامة وحدة ثلاثية بين مصر والنظامين البعثيين البازغين في سوريا والعراق (١٩٦٣) وأرى أن هذا كان عنصراً ثالثاً أدى إلى تغير مزاج الشارع الأردني وانكفاء الدعوة إلى المسيرات والاحتجاجات بعد موجة عاصفة من التظاهرات استمرت لبضعة أيام فحسب. كنت آنذاك في حدود الخامسة عشرة، وقد بدأ وعيي للأمور يتسع؛ أقول: ليس لمثلي أن يضيف جديداً حين

أزعم أنني لم ألحظ على معظم من عرفتهم آنذاك علامات أسف كبير على سقوط دولة الوحدة، ولو أن هذا لا ينطبق على شقيقي الشابين آنذاك.

كنت أسمع عن الخلافات بين البعثيين والقوميين والشيوعيين، وبين هؤلاء من جهة والإخوان المسلمين من جهة أخرى، ودأب أحد أساتذتنا من المتتمين للاتجاه الأخير، لأيام، على تخصيص نصف " حصته " للكلام عن سوء تصرف الضباط المصريين وكبيرهم (عامر) في الشام بطريقة لا تخلو من تشنيع مكشوف حتى بالنسبة لمن كانوا في مثل عمري.

٥-

ولئن كانت الخمسينيات سنوات مد ثوري قومي صاحبته بعض الانتصارات التي لا يمكن التقليل من شأنها؛ فإن الستينيات كانت سني تجاذب ومد وجزر وهزائم كذلك؛ انفصام عرى الوحدة بين سوريا ومصر، والحرب الباردة الشرسة بين المحورين العربيين المحافظ والثوري. حرب اليمن وما أشاعتها من انقسامات واختلاف وجهات النظر حتى بين أفراد العائلة الواحدة أحيانا. استكمال مصادرة الحريات العامة في جميع بلدان المشرق العربي (ربما باستثناء لبنان) نتيجة للانقلابات العسكرية وتمترس معظم الأنظمة العربية وراء سياسات وإجراءات أمنية إما دفاعاً عن وجودها أو لنوازع القمع والاستئثار بالسلطة، وهو الأصل في تاريخ المشرق منذ ألف عام أو أكثر... إلى أن جاءت "درة" الهزائم... حرب حزيران ١٩٦٧.

خرجت مسيرات في إربد سنة ١٩٦٣ للمطالبة بانضمام الأردن إلى الوحدة الثلاثية الموعودة بين مصر وسورية والعراق قبل أن تكتمل المباحثات

بشأنها في القاهرة، ودون أن يرى العالم أي خطوة عملية باتجاه قيام هذه الوحدة. وبدأ - لبرهة - كأن الشارع قد استرد روح الخمسينيات؛ فراح بعض المسيرات يرفع صور عبد الناصر وأعلاماً بنجوم أربع تمثل دولة الوحدة الموعودة مضافاً إليها الأردن، كما يطمح إلى ذلك المتظاهرون.

ولكن خيبة الأمل لم تأت لأولئك المحتجين، على نبل نواياهم، من الداخل، بقدر ما جاءت من نجم الوحدة: جمال عبد الناصر؛ ففي خضم خروج الناس بعشرات الآلاف كان الزعيم المصري ينعى الوحدة، ويهاجم بشراسة البعثيين القائمين على الحكم في سوريا والعراق متهماً الحزب بالغدر بالوحدة الغابرة ودعم الانفصاليين، وبالتلاعب في قضية الوحدة في مباحثات القاهرة، وهي المباحثات التي لم تلبث جريدة الأهرام أن نشرت وقائعها ومحاضر جلساتها بالحرف الواحد، وكأن مصر قالت للبعث حينذاك: "كش وحدة". ثم راح عبد الناصر يهاجم علناً الحكم في سوريا والعراق، ويقول: إنه ليس مستعداً للدخول - مع هؤلاء - في مغامرة وحدة جديدة لن ينجم عنها سوى الإخفاق والإحباط للشعوب العربية. وهكذا فقد صب الموقف المصري آنذاك ماءً بارداً على الرؤوس الحامية في الأردن، بعد أن أخذت المظاهرات لأجل الوحدة، أو بسبب إسقاط حكومة الرفاعي في البرلمان في ربيع سنة ١٩٦٣، شأواً بعيداً.

وسأتحدث فيما يلي عن بعض التجارب والمشاهدات الشخصية؛ فلطالما شعرت - وأنا اليافع المراهق نفسياً وفسيولوجياً - بأن أسباب تلك المظاهرات، سنة ١٩٦٣ تحديداً، وما صاحبها من صخب سياسي، تقتقر إلى

منطق سياسي راسخ رغم اندراجها ضمن سياق قومي تاريخي كاسح. لم أؤيدها... هل كان الموقف مع ابن عمر "الشيوعي" حاضراً معي في تلك الأيام؟ أعترف اليوم... واليوم فقط أن الجواب الأقرب إلى الصدق: نعم. لم أجامل أصدقائي في مجاهرتي بذلك، وكم اشتد النقاش بيننا بسبب تلك المظاهرات، نحن الأصدقاء المختلفين؛ فالأكثرية منهم متحمسون، والأقلية قانطون، لا سيما أن ألوية بعض المظاهرات، في الحارات على الأقل، انعقدت لأناس من مثل فوزي. ولكن من فوزي هذا؟

ذات يوم من أيام تلك "الهبة" انطلقت مظاهرة من شارع فلسطين باتجاه مستشفى الأميرة بسمة، بوصفه مؤسسة حكومية، ولعله المؤسسة الوحيدة من هذا النوع في منطقتنا - باستثناء المدارس - التي ترفع علماً. تجمع المئات أمام بوابة المستشفى الرئيسية الجنوبية (ولم يكن السور قد شيد بعد) واقتحم بعضهم البوابة وصعد الدرج ورمى بالعلم أرضاً، ثم صعد بعض الصبية وأنزلوا اللوحة التي تحمل اسم المستشفى بعد أن حطموها، وصرخ فوزي بالمحتجين: "اكتبوا مستشفى خالد جمال" عوضاً عن الاسم القائم، ولم يكن في الإمكان تنفيذ تعليمات فوزي بطبيعة الحال، وتفرق الجمع بعد أن أعياهم التعب دون أن يتم التغيير.

كان فوزي أجذب بكل ما في الكلمة من معنى، ولكن لم يكن تنقصه حماسة الحلم القومي ولا أمل العودة إلى الوطن السليب. كان شقيقاً لصبحي "بلا بنزبن" والاثان كانا موضع سخرية وتندر في الحي، وكان فوزي في بداية

الأمر حملاً يستأجره الناس للصدقة قبل الخدمة، ثم انتهى به الأمر متسولاً يمضي يومه نائماً على قارعة الطريق وقد فرد منديلاً أصفر يتلقى من خلاله الصدقات. وأستأذن هنا، كسر السياق، لأحكي قليلاً عن شقيقه، ولقبه العجيب.

كان صبحي يعمل سائقاً "لتراك" من نوع مرسيدس يمتلكه الأستاذ المتقاعد "طرطر". لا أعرف اسمه الحقيقي ولكن أحداً من الناس لم يكن يتحدث عنه - أمامي على الأقل - إلا من خلال هذا اللقب المقتبس من صوت سيارته التي تنتمي للجيل الأول من نوعها... المرسيدس. كانت الحارة تستيقظ على طرير المحرك قبل الفجر. وكان الحاج مديراً لإحدى المدارس وينحدر من عشيرة معروفة في وسط الأردن، ولم يكن يظهر - بعد تقاعده - إلا بهيئة الوجهاء؛ شماغ أبيض (شورة)، وعقال معوج نحو الشمال، وشنب صقوري وعينين مكحلتين سوداوين غائرتين، وقد اكتملت لديه هيئة "الشيخة" بعد أن اكتسب لقب الحاج. ولكن نعت "طرطر" تغلب على كل ماعداه من أسماء وصفات. بل إن بعض الخبثاء كانوا يبدلون حرف الزاي بالراء، وكان الحاج متفرغاً لإدارة شؤون التراك، تراه لا يفارقه حين "يُكرّج" في الحارة، ولا يغادره إلا بعد أن يلحق تعليماته في كل ما له صلة بشأنته لسائقه صبحي. وذات يوم تأخرت السيارة في سعيها الصباحي نحو الرزق، فجاء الحاج منفعلًا (وكان عصبيًا بطبيعته) ومتسائلاً وموبخاً: "ليش السيارة بعدها ما طلعت؟" في حين ظل صبحي منهمكاً يحاول تشغيلها بمعونة فوزي شقيقه ومساعدته، بإدارة "المانويل" من أمام المحرك، ولما نزل صبحي من

حجرة القيادة وهو يردد: "ما فيش فايده، بدها بنزين"، دار جدل ساخن بين السائق وصاحب السيارة، ترك الحاج إثره المكان ساخناً ومنفعلاً، وتصادف أن سألته "أبو سهيل" أحد الجيران عن "القصة"، فأخبره عن البنزين، ليعلق الجار: "ما هو كله صبحي بلا بنزين"، فذهبت لقباً تلبس الرجل مدى حياته ولاحق ذريته.. لقد التقطها الأولاد الفضوليون ممن كانوا يتجمعون خصيصاً للاستمتاع بسماع صراخ الحاج المتكرر، والطرطرات المنتظرة للمحرك حين يأبى الدوران.

ومر وقت وغير صبحي مهنته من سائق لصاحب مقهى صغير في شارع فلسطين بالقرب من البركة، وكنت أحرص على إلقاء السلام عليه كلما مررت من أمام المقهى فيرد التحية بأحسن منها... إلا مرة واحدة، حين قلت له: "مرحباً عمي بلا بنزين"؛ فكان جوابه: "بنزين يحرقك ويحرق أهلك". ومات صبحي فجأة، كان في حدود الخمسين، أما شقيقه فوزي فأعتقد أنه ما زال حياً يرزق.

ما علينا .. لقد صبت خطب عبد الناصر بعيد محادثات الواحدة (١٩٦٣) الماء البارد على الشعلة المتقدة في رؤوس عشاق العمل القومي. في الأصل كان الناس فريقين: فريق "المحافظين" وأغلبهم من كبار السن، بل قل فريق الآباء، وفريق الشباب الأصغر سناً ممن يعيش الأمل العربي الواعد. ليس من تبسيط الأمور أن أزعّم أن الفريقين كانا على طرفي نقيض؛ فقد كان الآباء يتحلقون كل مساء أمام أحد بيوت أحدهم وقد جلسوا على كراسي القش الصغيرة الواطئة، ولا أعتقد إن كان مناسباً إقحام تعبيرنا الجميل المعاصر من خلال

القول إنهم كانوا "من شتى المنابع والأصول"، ومعظمهم كان ضد السياسات الثورية، وسياسة عبد الناصر تحديداً، وبدا من خلال ما كنت ألتقطه من حواراتهم، أنهم على بينة بحقيقة القوة الإسرائيلية وغدرها، وكنت أسمع بعضهم يستحضر ذكريات مريرة مستوحاة من تاريخ النكبة وماقبلها، أضف إلى هذا معاشتنا لما يشهده الشارع من هياج قومي وفوران وطني ... لم يكن من السهل على من فتح عيونه لأول مرة على مأساة الهزيمة والتشريد أن يتقبل منطق القائلين بتفوق اليهود. وأذكر أن أحدهم كان يتحدث بفكر "إستراتيجي" - إن جاز القول - حين قال، من واقع خبرته المباشرة سنة ١٩٤٨، ومن معلوماته المستمدة - بطبيعة الحال - من إذاعات "إسرائيل" ولندن وصوت أمريكا التي أخذ معظم الجيل الشباب يقاطعها بعد العدوان، ألا فائدة في محاربة العرب لليهود، ما دام هؤلاء يملكون أحدث أنواع الطائرات (وكان ينطقها بالفصحى) وأن حروب اليوم تتم بالطائرات والطائرات فقط. ولكن أنى لأبناء جيلي وجيل من يكبرني مباشرة أن يقتنعوا بمنطق القبول بالأمر الواقع؟، كنا نرى العكس، وتحديداً في الفترة التي سبقت كارثة ١٩٦٧، بل حتى ما بعدها، كان بعضنا إذا شارك في نقاش مع والده أو من هم في حكمه، يأبى تعظيم قوة الأعداء. كنا نضرب الأمثلة لهم من التاريخ تبعاً لما نقرأه أو نشاهده من أفلام مثل: "خالد بن الوليد"، و"الناصر صلاح الدين"، و"رد قلبي" و"أرض السلام" و"في بيتنا رجل..." ثم إن طبيعة المقررات الدراسية كانت تسهم في تعبئتنا وتجعلنا ننتظر اليوم الذي سنحرر فيه فلسطين، وأذكر في هذا الصدد الحكايات التي كان يتضمنها أحد الكتب

المقررة علينا، في المرحلة الابتدائية، تملأنا حماسة: "بطولات عربية"، وكلها بطولات عن النضال العربي في فلسطين، وتحديدًا خلال المرحلة التي سبقت عام النكبة الأولى (١٩٤٨).

كانت المشاركة السياسية، في حكم سني، مشاركة وجدانية في المقام، وكان الاشتراك في المظاهرات، في المرحلة الأولى مشاركة التلميذ الهارب من صرامة الدوام المدرسي، أو "كذاب الزفة" كما يقولون، على أن مشاركتي الجدية الأولى في "الشأن العام" لم تكن لأسباب سياسية، بل احتجاجاً - مع من احتجاجوا - على إجراءات تنظيمية للدراسة.

-٦-

كان ذلك في أواسط نيسان ١٩٦٧ على الأرجح، ولم تكن ذروة الأزمة التي أطاحت بعد أسابيع بأحلامنا القومية قد أطلت برأسها بعد، ولكن الجو كان ملتهباً بحكم الحملات الإعلامية بين الأردن وكل من مصر وسوريا، إضافة إلى الاعتداءات الإسرائيلية المتكررة على الضفة الغربية، وكان أشهرها الاعتداء على قرية السموع.

وفي مثل هذا الجو المكهرب طالب معظم المتقدمين لامتحان الثانوية العامة (التوجيهية) لذلك العام، أن تبدأ عطلة "المذاكرة" أي العطلة التي تسبق امتحانات الثانوية العامة، مع منتصف نيسان، ولكن إدارات المدارس المعنية التزمت بالعرف السائد، وهو بدء هذه الإجازة مع عيد الجلوس الملكي في الثاني من أيار من كل عام (لم تكن عطلة عيد العمال قد أقرت بعد) ولعل

عدم التحاق الطلبة بالدراسة بعد عيد الجلوس جاء أمراً واقعاً أخذ استحقاق العرف، ولكن المعلمين كانوا يسيرون أمر المقررات استهداءً بهذا التاريخ. لم تكتف الإدارات برفض نداءاتنا، بل صدر، في تلك الأيام الملتهبة - سياسياً - تعميم شديد اللهجة، قيل إنه من الوزارة في عمان، يتوعد بحرمان أي طالب من أداء الامتحانات، إذا تغيب عن الدراسة، قبلها لأكثر من أسبوع، بل طُلب من المعلمين - كما قيل لنا - بالالتزام "بالتفقد" اليومي، أي أخذ الحضور والغياب في كل حصة، وأن توضع الكشوف كل يوم أمام المديرين.

وبدأ الأساتذة بالتطبيق الصارم لهذه التعليمات، مع ما كان يلزمها من عبارات النصح والتحذير حرصاً علينا بطبيعة الحال. ولكن ذات يوم في أواخر نيسان، جاء من يبلغ شعب التوجيهي الأدبي (وهو التخصص المعني أكثر من غيره من التخصصات الأخرى بهذه الإجازة) أن طلبة التوجيهي الأدبي في ثانوية حسن كامل الصباح، وكانوا جميعاً من الفرع الأدبي، شأنا في ثانوية سعد، قد خرجوا عنوة من قاعات المدرسة وتجمهروا أمامها، ولم تجد معهم مطالبات مديرهم قوي الشكيمة (الأستاذ قاسم الغزاوي) بل أصروا على موقفهم، وقد انضم إليهم كثيرون من المدارس المحيطة، من طلبة ثانوية إربد من الفرع العلمي وغيرهم.

لم نكذب خبراً، فما أن حان وقت "الفرصة" بعد الحصة الثالثة، حتى كنا قد أطلقنا ما يمكن أن يطلق عليه في تلك الأيام، البيان رقم ١... قيادة تولت تجميع طلبة شعب التوجيهي كلها، وقد وزعنا الأدوار فيما بيننا، رياض في المقدمة، ومحمد نور وعبد المهدي على الجانبين، وأنيطت بي مهمة "الباك"

بلغة كرة القدام، لضبط أي زميل يحاول الانسحاب وإقناعه بالمضي معنا، ولم أكن في حاجة لممارسة الدور؛ فقد كانت أعداد الطلبة تتزايد دون دعوة من أحد وتتوافد من جهات كثيرة لا أعرفها- وتم الزحف باتجاه ثانوية الصباح. حاول البعض إطلاق بعض الشعارات السياسية، ولكن الكثرة الغالبة تصدت له، وعلى أية حال فإن جموع طلبة هذه المدرسة بالذات (سعد) لم يكونوا من المؤسسين؛ فجزء كبير منهم كانوا من القرى المحيطة، إضافة إلى أن هاجس النجاح والرسوب والمعدل ظل المهيمن على أية نوازع أخرى.

وقف الجمع، وكان يتكون من أكثر خمسمئة طالب أمام المدخل الرئيسي (الغربي) لثانوية حسن كامل الصباح، أي تحت الدرج مباشرة، لم تكن الهتافات التي تصدح بها عشرات الحناجر ... استفزازية؛ بل كانت ساذجة من قبيل: "العطلة اليوم ... العطلة اليوم... وبدنا ندرس ... بدنا نذاكر... بدنا معدل حتى نسافر"، وهو هتاف من وضع نور الدين المصري، لم يطل الوقوف حتى جاءت سيارة حكومية صغيرة نزل منها الأستاذ واصف الصليبي مدير التربية في المحافظة، وكان يتمتع بسمعة مدوية كونه شاعراً كبيراً وأستاذاً قديراً ومسؤولاً خطيراً. صعد درج المدرسة ووقف فوق البسطة، وانضم إليه الأستاذ قاسم الغزاوي (مدير المدرسة) الذي لم ينطق ذلك اليوم بكلمة واحدة، ووجه لنا الأستاذ واصف كلاماً أبوياً نصحننا فيه بتحكيم العقل وعدم الانجرار وراء نزوات الميل للعطل، مؤكداً أن نتيجة ما نطالب به، هو ضد الهدف الذي نسعى إليه (المعدل المناسب). كان منطقته تربوياً بامتياز.

قد يكون "تحكيم العقل" كما يطالب الأستاذ واصف أمراً ممكناً لدى البعض، ولكنه آخر الحسابات لدى الأغلبية الساحقة من المتجمهرين، ممن كانت تنتظر بفارغ الصبر هذا اليوم ومنذ اثنتي عشرة سنة للفكاك من قيود المدرسة والتحرر من قيود الدوام المدرسي. لم يجد كلام الأستاذ الصليبي صدئ مباشراً بل راح البعض منا يحاول أن يستدرجه بخبث إلى سجلات لا تؤدي إلى نتيجة... وفجأة حضر أحد الأشخاص ومعه شرطي، وهمس في أذن الأستاذ واصف بأمر ما .

طلب الأستاذ الهدوء، وقال: "يا شباب يريدون في المحافظة أن يقابلوا وفداً منكم"، ثم نزل الدرج واختار بنفسه بعض الوجوه. اختار خمسة وأراد اختيار السادس ليتدخل الشرطي: "العدد خمسة بس... بس خمسة". والحقيقة أن الحماس لم يكن كبيراً لهذا اللقاء، وبعض من تم اختيارهم، وكنت أحدهم، ذهبوا مع الأستاذ واصف مسايرة للموقف لا أكثر.

كان مقر المحافظة يحتل الواجهة الشمالية لمبنى بلدية إربد القديم، أي إنه لم يكن يبعد عن مكان تجمهرنا بأكثر من أربعين أو خمسين متراً، صافحنا المسؤول (ربما كان المحافظ نفسه أو أحد المتصرفين، لم نهتم يومها بهويته) وهو جالس في مقعده الجلدي، وكان يشير بالجلوس إلى كل واحد فينا، بعد أن يصافحه، ثم بدأ حديثه: "شو القصة يا شباب؟"، توليت أنا شرح قضيتنا إزاء القرار المفاجئ بمد أيام الدوام، وأشارت إلى اعتمادنا على هذه الفسحة الزمنية للاستعداد للامتحان، وكان يصغي إلينا وهو يسترق النظر إلى صفحات الجريدة المفرودة بطولها أمامه على المكتب ويهز رأسه وكأنه يبدي تفهمه إزاء

مطلبنا، ثم قال فجأة: "يا شباب إنتو شايفين الأحوال بالبلد.. (وكان الاعتداء الصهيوني على بلدة السموع الحدودية ما زال قريب العهد) واحنا مش ناقصنا شوشرة"، ثم بدأ صوته يرتفع تدريجياً ودخل إلى منطقة (كلامية) لا أحسب أنها أقل من التهديد الصريح. لكنه لم يلبث أن استدرك نفسه وراء الانسياق للتهديد المباشر؛ فعاد إلى المواربة ولكن بلهجة أبوية، قبل أن يطلب منا الانصراف إلى مدارسنا فوراً. اتجهنا إلى بيوتنا، وعاودنا الدوام صباح اليوم التالي متعاهدين على أن نستمر في حضورنا للمدرسة حتى آخر ذلك الأسبوع فحسب مهما كانت التبعات، وقد كان.

ولكنني شخصياً لم أخرج من تلك الواقعة سليماً، فما أن بدأت الحصة الأولى في اليوم التالي حتى كان العم عبد الكريم أذن المدرسة يطرق باب الصف ويطلبني بالاسم لمقابلة مدير المدرسة الأستاذ يحيى الغرايبة. أخبرني الأستاذ يحيى أنه يعرف جيداً أنني من رؤوس الفتنة (قالها لزملاء آخرين حين استدعاهم) وأنه رأي بعينه أحرك يدي الاثنتين إلى الأمام (حركة مجدف، والتشبيه من عندي) وأنا أمشي خلف الركب لمنع أي طالب من ترك المسيرة إن حاول الارتداد، وكان هذا صحيحاً. أما قضية رأس الفتنة، فإن العبارة كانت من قبيل التهويل والتخويف؛ فالحدث لم يقتصر فقط على مدرستنا ولم ينطلق منها، كما أنني لم أكن الأبرز بين "القادة" آنذاك. وأصر الأستاذ يحيى على إحضار ولي أمري (وكذلك الأمر مع الآخرين وكانوا أربعة أو خمسة) وهدد بأن التخلف عن إحضار ولي الأمر وكتابة التعهد يعني سحب أرقام جلوسنا

وحرماننا من التقدم للثانوية العامة... وأردف قائلاً بنبرة بدت صادقة: إن المسألة ليست بيده، بل إنها في الأصل لم تخرج من عنده، ولم يضاف إلى ذلك كلمة أخرى.

وأثناء خروجي من مكتب المدير ناداني سكرتير المدرسة الأستاذ عدنان الشرع من مكتبه المقابل لمكتب المدير، وتربطه بوالدي وإخواني الكبار صداقة، وقال إن أمر التعهد ليس من المدرسة بل من المحافظة، وأنه سيتولى الأمر بنفسه، وسيكلم أبا عصام (شقيقه الأستاذ أحمد الشرع الشاعر الكبير وأحد المسؤولين الإداريين المهمين في المحافظة آنذاك، وتربطه -بدوره- بوالدي صداقة حميمة) ثم شجعني على تجاهل الأمر وعدم إخبار أهلي بما تطلبه المدرسة... والحق أن الأستاذ يحى في المرة الوحيدة التي رأي فيها خلال الأيام الثلاثة التي حضرنا فيها إلى المدرسة -بعد المسيرة- تجاهلني وشعرت أنه بدوره لا يرغب في متابعة الموضوع.

-٧-

كان هذا آخر عهدي بالمدرسة، وبدأت استعداداتي الدراسية المكثفة لامتحانات التوجيهي. هذا على الصعيد الشخصي، أما عن الوضع العام؛ فقد شهدت الأسابيع القليلة التي سبقت حزيران (٦٧) أخطر تطورات شهدتها القرن العشرون (بالنسبة لتاريخ العرب الحديث). عشنا العدوان الصهيوني على قرية السموع قرب الخليل، وتكررت الاعتداءات الصهيونية على الجبهة السورية، ثم كان رد الفعل المصري: طلب سحب القوات الدولية من سيناء،

وحشد الجيش المصري على خطوط الهدنة المصرية الصهيونية... وإغلاق خليج العقبة وتموضع القوات المصرية في جزيرة تيران، وتلاحقت الأحداث، واشتد وجيب القلوب... وكان الكل يتحرق لبدء حرب طال انتظارها... والجميع يعتقد أن اندلاع الحرب يعني بكل بساطة بدء ساعة الحساب مع العدو الذي شردنا وظل يسعى لإذلالنا طيلة عشرين عاماً... .

كنا نقدم امتحان إحدى مادي التاريخ في ثانوية إربد، (ظهر التل) حين دخل أحد الأساتذة المراقبين إلى القاعة وخاطب في ظفر زميله المراقب في قاعتنا بصوت سمعناه جميعاً: بدأت الحرب... أهمل الأساتذة عملية المراقبة... وراحوا يتبادلون الكلام بجذل يقرب من تبادل التهاني... لم يطل وقت الامتحان، بل انتهى، طبيعياً على ما أذكر، في حدود العاشرة. ركضت قافلاً إلى البيت لأستمع إلى الراديو، واتخذت طريقي في شارع فلسطين بعد نزولي من ثانوية إربد، وحين وصلت إلى مقهى "صبحي بلا بنزين" في منتصف الطريق إلى بيتنا استمعت وأنا في الشارع إلى المذيع من راديو المقهى وهو يذكر عدد الطائرات التي تم إسقاطها على الجهة المصرية.. بقية الوقائع والأحداث يعرفها القاضي والداني.. ولكن التبعات كانت مُضّة... وموجعة... وثقيلة... في كل الأحوال.

إنه الحدث الذي لا يمكن التفريق بين تأثيره العام، بل قل في حركة التاريخ، وتأثيره الشخصي على كل من عاصره، بوعي أو بغير وعي... والأدهى من ذلك؛ فأن التبعات والتأثير، بعد مرور أكثر من نصف قرن، آلت إلى ما هو أسوأ مما كانت تتوقعه أكثر الناس تشاؤماً ومعظمهم من كبار السن،

من جيل الآباء والأجداد، من الأعمام والأخوال والجيران. هؤلاء، ولا سيما البسطاء من غير المتعلمين كانوا يتحدثون عن القادم الأسوأ... أما اليافعون والشبان فظلوا يكابرون ... يتحدثون عن المعركة القادمة، وعن استرداد الأرض والكرامة...

ومع أن الأسابيع التي سبقت الحرب (باستثناء الأسبوع الأخير منها) قد شهدت صخباً إعلامياً، بل حملات، من الإعلام المصري بخاصة، تجاه من عاينوا بفتح خليج العقبة أمام الملاحة الصهيونية بعد حرب (٥٦) ... فإن الأيام التي أعقبت الحرب كانت حقاً أيام الذهول والصدمة، ثم اللطمة؛ فالصحوة على الواقع الكارثي الجديد.

بعد الحرب أصبحت الصحف والمجلات العربية تملأ شوارع المدينة. لم يعد ممنوعاً دخول أي منشور حتى ولو كان ضد الحكومة وذلك بعد بدء نشاط المنظمات الفدائية؛ فأصبحت تصدر في الأردن بعض الصحف التي تنطق باسمها، وبعضها كان ينادي علناً بسقوط النظام... وتلك قضية أخرى.

* * * *

ولكن المشهد الأخير الذي أريد أن أختتم به هذا الكتاب توافقاً مع بدء المرحلة التالية من رحلة العمر خارج الأردن، مشهد بائع الصحف سعيد المعروف بيننا بلقب: "يتلألأل". ظهر هذا البائع فجأة بعد الحرب، وهو يحمل "عبطة" ضخمة من الصحف والمجلات يسندها إلى جانب بطنه الضخم، يقدم بضاعته بطريقة مبتكرة، ويلجأ للأساليب الشعبوية التي تسير اتجاهات الناس وربما تحفهم فتستقطبهم؛ كأن ينادي مثلاً "انقلاب في مدغشقر"، أو

يؤلف حواراً علنياً بينه وبين نفسه: "سُئِلَ فأجاب: ماذا في الخرطوم؟ انقلاب"... ثم يروح يردد: "انقلاب في الخرطوم.. انقلاب في الخرطوم"... وحين لا يجد استجابة كافية يختار عاصمة عربية أقرب ليحدث فيها هذا الانقلاب المزعوم ... ويُحدث في الوقت نفسه لغطاً بين الناس. وفي أعقاب حرب حزيران مباشرة كثر الكلام عما انكشف من أسرار، وما كان يجري في مصر قبل الحرب في مصر. وشاعت بين الناس حكاية صلة المصاهرة بين عبد الناصر ونائبه عامر، حيث تزوج - كما قيل - شقيق الأول (حسين) من ابنة الثاني، وتردد وقتها أن شقيق عبد الناصر قد أخذ جانب المشير في الصراع مع الرئيس الذي أعقب الهزيمة؛ فكان "يتلألاً" يلوح بإحدى الصحف وهو ينادي: "اعتقال حسين عبد الناصر"، وكان يلفظ هذا الاسم بطريقة خبيثة حين يباعد - بوقفة قصيرة - بين مقطعي الاسم.

أما أشهر نداءاته فكانت مساء الجمعة حين يبدأ بتوزيع صحيفة "الأنوار" اللبنانية، وقد حملت مقال هيكل الأسبوعي "بصراحة" الذي كانت تنشره هذه الصحيفة بالتزامن مع "الأهرام". وواقع الأمر أن الناس كانوا ينتظرون بشغف ما سيقوله هيكل في كل مقال؛ فهو ينطق بلسان الرئيس. وكان هيكل يتحف الناس حقاً بحكايات ما جرى قبيل الحرب وأثناءها وما تبعها من أيام مريرة، وأبرز معاناة عبد الناصر بطريقة درامية لا أتصور غيره يستطيع تصويرها، وذلك - مثلاً - حين تحدث عن المسدس الذي وضعه الرئيس قريباً من وسادته في الليالي التي أعقبت نهاية الحرب. وكانت تلك المقالات تشبع - إلى حد كبير - فضول الناس، وتفسر لهم ما لم يكن في

الإمكان قوله قبل أيام الهزيمة، بل في كثير من الأحيان كان المقال ييثر روحاً تبعث على الأمل، ولا ننسى أننا إزاء هيكل عبقرى التعبيرات المنحوتة على قدر الحالة النفسية للمتلقين... تخفيفه مثلاً لما يحمله وصف "الهزيمة" من ثقل نفسي إلى وصف آخر أخف وطأة: "نكسة". وهو التعبير الذي أومأ إلى أن ما جرى لم يكن الأسوأ، وأن ثمة ضوءاً آخر النفق....

كان النداء الشهير لسعيد وهو يلوح بـ"الأنوار": "اقرأ هيكل .. هيكل .. هيكل يتلألاً" (وهذا ما أكسب سعيد لقب يتلألاً الذي شاع وانتشر) وأحياناً كان يردد: "هيكل... يتجلى". وذات يوم رأيته يلوح بإحدى المجلات ويقول: "هيكل..." ثم يصمت برهة؛ ليعود فيقول: "هيكل... يتلألاً" فقلت له: أين الأنوار؟ فرد: "هيكل يتلألاً اليوم في روزا اليوسف" ... ثم أقحم المجلة في يدي اليسرى بحيث لم يترك لليمنى مجالاً سوى أن تمتد إلى الجيب وتنقده الشلن... قلبت صفحات المجلة "ونبشت" بين صفحاتها وأعمدتها باحثاً عن "لؤلؤة" هيكل في ذلك العدد، فلم أجدها ... وكان من العبث بطبيعة الحال معاتبه بائع شاطر يتكسب القليل بطريقة ظريفة..

لم تفارق صورة سعيد بجسمه الممتلئ وبطنه المندفع قليلاً إلى أمام، أو حين يبرز تفصيلاته بـ"كنزة" صوفية ضيقة في تلك الأيام المبكرة من خريف ذلك العام ... لم تفارق صورته ذاكرتي، بل وجداني إلى اليوم... لم أعرف، لا أنا ولا رهط أصدقائي اسماً له - آنذاك - سوى "يتلألاً"، وقد ساعدني مؤخراً الصديق محمود الحلاق (أبو سمير) في اكتشاف اسمه الحقيقي، وقال إنه قابله منذ سنوات طويلة بمحض الصدفة في أبي ظبي ... وأنه اشترى منه صحيفة

امتشقها كالحسام من تحت إبطه مصدرة الفرقة إياها التي طالما أطربتنا في
إربد... في أكثر الأيام قتامة... .

وأما الأيام التي تلت تلالؤات هيكلي، فقد كنت أنتظر أن تكون في
ديار هذه التلالؤات... في مصر. كنت أتمنى أن أحصل على مقعد في معهد
السينما هناك. لكن ظروف "النكسة" قلصت أعداد المقبولين في الجامعات
المصرية في ذلك الحين (خريف ٦٧) إلى عدد كاد يهبط إلى الصفر.. تأخر ذهابي
إلى مصر بضع سنوات نلت خلالها اليسانس من جامعة بيروت العربية.
ولكن الفرصة واثت أخيراً... والتحققت بجامعة عين شمس في أرض
الكنانة... وبدأت مرحلة جديدة... لعلها الأجل في حياتي ... ترى هل
أستطيع أن أنجز ما تتمناه النفس.... كتاباً آخر يسجل لتلك التجربة التي ما
زلت إلى اليوم أتمثلها بأروع تجلياتها الوجدانية ... وهي تجليات تكاد تمسك
بالقلم وتضعه في يدي وتدفعني... أن هلم... .